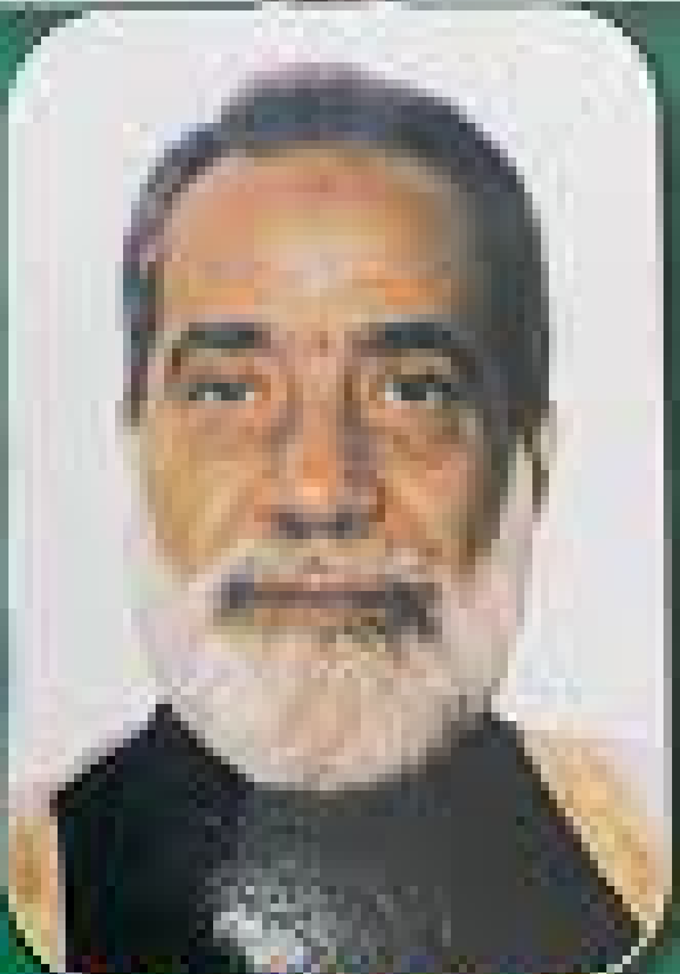
سلسلة
كتب إسلامية
١٠

الطريق إلى الله

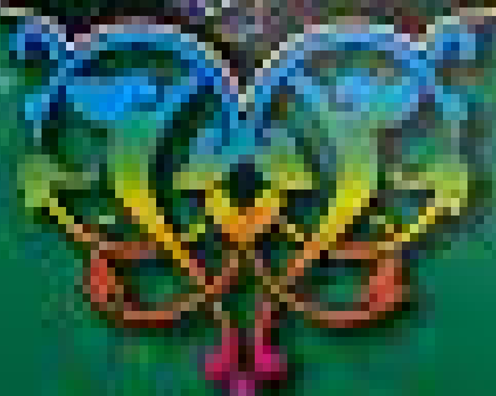
التصوف ما له وما عليه





الداعية الإسلامي

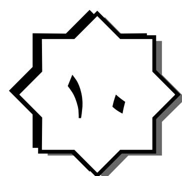
ياسين رشدي





الطَّرِيقُ إِلَى اللهِ

سلسلة كتب إسلامية



التَّصَوُّفُ
مَالَهُ ومَاعَلَيْهِ

الداعية الإسلامى

ياسين رشدى

بسم الله الرحمن الرحيم

نموذج رقم ١٧

AL-AZHAR
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY
GENERAL DEPARTMENT
For Research, Writing &

الأزهــــر
مجمــع البحـــوث الاســـــلامية
الادارة العـــــامة
للبحـــوث والتــأليف والترجمـــة

السـلام عليــكم ورحمــة اللــه وبركاته ـــ وبعــد :

فبناء على الطلب الخاص بفحص ومراجعة كتاب : (التصوف ماله وما عليه)
.... تاليف : الشيخ / ياسين رشدي

نفيد بأن الــكتاب المذكور ليس فيه ما يتعارض مع العقيدة الاسلامية ولا مـانع من طبعــه على نفقتــكم الخــاصة .

مع التــأكيد على ضرورة العنــاية التامة بكتــابة الآيات القــرآنية والأحاديث النبــوية الشريفـــة .

واللـــه المـــوفق ،،،

والســلام عليــكم ورحمــة اللــه وبركاته ،،،

مدير عــام
ادارة البحوث والتــاليف والترجمــة

٩٢/٢/١٢



تحريرا فى ١٨ / ٩ / ١٤١٢
الموافق ١١ / ٢ / ١٩٩٢

حقوق الطبع والنشر والتوزيع محفوظة
لجمعية المواساة الإسلامية بالإسكندرية

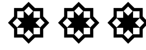
تقديم

الْحَمْدُ للهِ كَمَا يَنْبَغِى لِجَلاَلِهِ فَهُوَ الرَّحِيمُ الرَّؤُوف ..
اللَّطِيفُ بِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ فِى كُلِّ الظُّرُوف ..
فَلَوْ أُلْقِىَ الْعَبْدُ فِى بَحْرٍ زَاخِرٍ وَهُوَ مَكْتُوف ..
أَوْ طُرِحَ فِى الْخَلاَءِ عَارِيًا فِى يَوْمِ قَرٍّ عَصُوف ..
أَوْ نَالَهُ فِى قَعْرِ سِجْنٍ مِنَ الْعَذَابِ صُنُوف ..
أَوْ أُلْقِىَ فِى غَيَابَةِ جُبٍّ مُظْلِمٍ وَهُوَ مَكْفُوف ..
أَوْ أَصَابَهُ مِنَ الأَسْقَامِ مَرَضٌ غَيْرُ مَعْرُوف ..
أَوْ صُلِّبَ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ مَظْلُومًا وَالنَّاسُ عَنْهُ عُزُوف ..
لَمْ يَعْنِ ذَلِكَ أَنَّهُ مِنْ دِيوَانِ الْحُبِّ مَحْذُوف ..
فَاللُّطْفُ مِنْهُ الْخَفِىُّ وَمِنْهُ الظَّاهِرُ الْمَكْشُوف ..
يُونُس ، وَأَيُّوب ، وَيُوسُف ، وَيَمِينٌ بِاللهِ مَحْلُوف ..
عَلَى أَنَّهُمْ ، وَالأَوَّاهُ ، قَدْ نَالَهُمْ مِنَ الْبَلاَءِ صُنُوف ..
هُمُ الْكَوَاكِبُ ، وَشَمْسُهُمْ أَحْمَدُ ، عَلَى حُبِّ الإِلَهِ عُكُوف ..
فَإِنَّ هَوَى الْمُحِبِّ عَلَى مُرَادِ حَبِيبِهِ مَعْطُوف ..



وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ شَهَادَةَ حَرِيصٍ مَلْهُوف ..

عَلَــــى أَنْ يَمُـــــوتَ عَلَيْهَـــــا وَلَــــوْ ضَــــرْبًا بالسُّــــيُوف ..
شَــــهَادَةً تَقِينَـــــا مِــــنَ الشُّـــرُورِ وَسُـــوءِ الْحُتُـــوف ..
وَتَنْأَى بِنَا عَــنِ الْمُنْكَــرَاتِ ، وَتَسْــلُكُ بِنَــا طَرِيــقَ الْمَعْــرُوف ..
وَنُبْعَثُ عَلَيْهَا آمِــنِينَ بِفَضْــلِ اللهِ إِذَا لَحِــقَ بِــالْقَمَرِ الْخُسُــوف ..
وَنَنْجُـــو بِهَـــا مِــنَ الْفَــزَعِ الأَكْبَــرِ وَالْهَــوْلِ الْمَخُــوف ..
شَــــهَادَةً تُحَقِّــقُ لَنَـــا مِــنَ اللهِ وَعْــدًا غَيْــرَ مَخْلُــوف ..
وَتُلْحِقُنَا بِالْمُوَحِّــدِينَ الْمُخْلَصِــينَ لُحُــوقَ الأَصَــابِعِ بِــالْكُفُوف ..
وَتُظِلُّنَــا بِظِــلِّ الْعَرْشِ حَيْــثُ الْكُــلُّ بَيْنَ يَــدَيِ الْحَــقِّ مَوْقُــوف ..



وَأَشْــهَدُ أَنَّ سَــيِّدَنَا مُحَمَّــدًا عَبْــدُهُ وَرَسُــولُهُ الْمَوْصُــوف ..
نُـــورًا كَضَــوْءِ الشَّــمْسِ مِــنْ غَيْــرِ سُــحُبٍ أَوْ كُسُــوف ..
هَـــلْ سُــعِدَ الزَّمَـــانُ بِمِثْلِـــهِ أَوْ صِـــنْوِهِ .. إِلْـــفٌ أُلُـــوف ؟ ..
أَوْ شَـــرُفَ الْكَـــلاَمُ بِمِثْـــلِ حِكْمَتِـــهِ .. ثِمَـــارٌ وَقُطُـــوف ؟ ..
لَـــوْ جَـــاءَتِ الأَيَّـــامُ كُلُّهَـــا تَسْــعَى فِـــى صُــفُوف ..
لَزَفَّـــــتِ اللَّيَـــــالِى يَـــــوْمَ مَوْلِـــــدِهِ بِالــــــدُّفُوف ..
دُرَّةُ الأَيَّـــــامِ عَلَـــــى مَـــــرِّ الزَّمَـــــانِ عَطُـــــوف ..
بِعَـــبِيرِ أَنْفَـــاسٍ عَبِقَـــتْ بِهَـــا جُــدْرَانُ مَكَّـــةَ وَالسُّـــقُوف ..

لَــــوْ أَنَّ نَبْـــتَ الأَزْهَـــارِ مِــــنْ قَطْــرِ النَّـــدَى مَــأْلُوف ..
لَنَبَـــتَ مِــــنْ حَبَّـــات عَرَقِـــه مِـــنَ الْـــوُرُود أُلُـــوف ..
لَـــوْ كَـــانَ يَعْلَـــمُ جَــدُّهُ إِذْ كَـــانَ بِالْبَيْـــت يَطُـــوف ..
مُسْتَبْشِـــــرًا كَـــمْ رَغِمَـــــتْ بِمَبْعَثِـــــه أُنُـــــوف ..
لَظَـــلَّ يَلْهَـــجُ بِالثَّنَـــاءِ مُهَلِّـــلاً بِغَيْـــرِ مَلَـــلٍ أَوْ عُـــزُوف ..
وَلَعَلِـــمَ أَنَّ مَـــا سَـــمَّاهُ بِـــه مُخْتَـــارًا مِـــنْ حُـــرُوف ..
قَـــدْ سَـــبَقَ بِـــه الْقُـــرْآنُ وَبِشَـــهَادَةِ الـــرَّبِّ مَحْفُـــوف ..
مُحَمَّدٌ رَسُـــولُ الله ، وَأَيْـــمُ اللهِ فِـــى سُـــورَةِ الْفَـــتْحِ مَوْصُـــوف ..
لَوْ يَعْلَـــمُ الْـــوَاطِئُ ثَـــرَى الْمَدِينَـــة بِنَعْـــلٍ جِلْـــدُهَا مَخْصُـــوف ..
مَا يَحْوِى الثَّرَى ، لَمَشَى عَلَـــى الْجُفُـــون كَمِشْـــيَةِ الْمَشْـــغُوف ..
بِالْحُبِّ أَوْ ، بِالْقُرْبِ أَوْ ، كَرَجَـــاءِ طِفْـــلٍ مِـــنْ أُمِّـــه مَخْطُـــوف ..
أَهُـــــوَ الشَّـــــوْقُ ؟ .. أَمْ هُـــــوَ الْعِشْـــــقُ ؟ ..
بَـــــلْ كَـــــلامُ الصَّـــــبِّ غَيْـــــرُ مَأْلُـــــوف ..
اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَـــارِكْ عَلَـــى مَـــنْ : زَانَ الْوُجُـــودَ بِشَخْصِـــه ..
وَزَانَ الْقُلُـــــوبَ بِوَصْـــــفِه .. وَزَانَ الْعُقُـــــولَ بِصِـــــدْقِه ..
وَزَانَ الْعُيُـــــونَ بِرَسْـــــمِه .. وَزَانَ الأَفْـــــوَاهَ بِاسْـــــمِه ..
وَبِمِثْـــلِ طِيبِـــه أَبَـــدًا لَـــمْ تَحْـــظَ الأُنُـــــوف ..

أمـــا بعـــد ،،

فقد جاء الإسلام ، وأمة العرب لها أعْرَاف وتقاليد شتَّى :

منها **ما أقَرَّه الإسلام** : كإكرام الضيف ، وتأمين البيت الحرام وزُوّاره ..

ومنها **ما رفضه الإسلام وأبْطَله** : كتوريث الابن الأكبر الذى حمل السلاح وحرمان إخوته الصغار والإناث ، والإغارة على الجار ، ووَأْد البنات ، والبِغَاء والْمَيْسِر ، وأكل الميتة ..

ومنها **ما سكت عنه الإسلام توسعة على الأمة ، وتواؤُمًا مع تطوُّر الأزمنة ، واختلاف الأمكنة** : كالملابس ، والمساكن ، وبعض المعاملات ، والمكاييل ، والموازين ، والمقاييس .. ويتنَزَّل التشريع على مدار ثلاث وعشرين سنة آخِذًا الناس بالتدريج فى جميع شئون العبادات ، والعادات ، والمعاملات .. ولقد كان الحافز الأكبر لانتظام الناس فى سلك التشريع هو وجود الأسوة والقدوة ، الذى كان يأخذ نَفْسه بما يأمرهم به قبل أن يأمرهم ، ويمنع نفسه عمَّا ينهاهم عنه قبل أن ينهاهم .. ذلك هو النور المبين (ﷺ) ، والسراج المنير ، الذى أدَّبه ربُّه فأحسن تأديبه .. ولقد تأدَّب الأصحاب بأدبه (ﷺ) ، وبما أدَّبهم به ربُّهُم فى قرآن يُتْلى مثل :

- (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ)[1] ..

---

[1] سورة الحجرات آية ٢ .

- (إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ)[1] ..
- (لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ)[2] ..
- (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ)[3] ..
- (إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ)[4] ..
- (وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ)[5] ..
- (مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ)[6] ..
- (وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ)[7] ..

والكثير من أمثال هذه الآيات التأديبية والتربوية ، بالإضافة إلى الأحاديث التى كان يُحَدِّثهم بِهَا النَّبيُّ (ﷺ) لتوجيههم وتأديبهم ..

وهكذا كان أدب الصحابة (رضوان الله عليهم) أدَبًا راقيًا مُسْتَمَدًا من روح الشريعة الغَّراءِ ، والسُّنَّة المطهرة .. ذلك الأدب الذى أخذوا به أنفسهم ، وأدَّبوا به

(1) سورة الحجرات آية ٣ . (2) سورة النور آية ٦٣ . (3) سورة الأحزاب آية ٥٣ .
(4) سورة النور آية ٦٢ . (5) سورة الحشر آية ٧ . (6) سورة النساء آية ٨٠ .
(7) سورة الحجرات آية ٧ .

التابعين من بعدهم .. وسار التابعون على النهج القويم ، فكان التأديب ملازمًا للتعليم ، وعندما حدثت الفتوحات بدءًا من عصر الخلفاء الراشدين دخل الإسلامُ بلادًا كثيرة ، واختلط العرب بالأعاجم ، وظهرت تقاليد ، وأعراف جديدة ، لم يكن العِلْم وحده كافيًا لانتزاعها من طبائع الناس ، فظهرت دعوات التصوُّف التى تَهْتَم بالأدب قبل العلم ، وبالقدوة المتمثِّلة فى الشيوخ الذين أخذوا أنفسهم بالزهد ، والتقشف ، واعتزلوا المجتمعات الجديدة ، وآثروا الخلوة ، والاعتكاف بالزوايا ، و« التكايا » .. وأخذ دعاة التصوف فى وضع قواعد للسلوك ، وشروطٍ لقبول المريدين الذين اقتنعوا بفِكْرهم ، وأرادوا السير على نَهْجِهم فى تزكية نفوسهم ، وتطهير قلوبــهم ، والوصول إلى مقاماتِهم .. تلك المقامات التى ابتدعها السادة الصوفية كمقام : الخوف ، والرجاء ، والحب ، والشوق ، والبقاء ، والفناء ... إلخ ..

وأصبح لكل شيخ منهم فكر خاص ، وأسلوب متميز عن أسلوب غيره ، وتعريف للمقامات يعتمد على الإشارات بدلاً من العبارات ، فنشأت الطرق المختلفة ، وأصبح لكل شيخ طريقة تسمى باسمه ، فمنهم مَنْ جعل القرآن والسُّنَّة أساسًا لطريقته وهم قِلَّة ، ومنهم مَن ابتدع معانى لآيات القرآن لا يحتملها اللفظ ، وتأباها قواعد اللغة مُدَّعِيًا أنه تفسير باطني ، غافلاً عن أن كل باطن خالف الظاهر فهو باطل ، ومنهم من اطَّلَع على ثقافات أجنبية عن الإسلام ، وأقوال لفلاسفة الإغريق والرومان فتأَثَّر بِهَا ، وأدخل فى عقيدة الإسلام ما ليس منها كالحلول ، والاتِّحاد ، وما إلى ذلك حتى قال بعضهم : (ما في هذه الْجُبَّة إلا الله) .. تعالى الله عما يقولون عُلُوًّا كبيرًا !! ومنهم مَنْ أسقط التكاليف عن نَفْسه فامتنع عن

الصلاة ، والصيام مُدَّعِيًا أنه قد وصل إلى نِهَاية الطريق ، ومنتهى الغاية ، وخدع الناس بكرامات مزعومة ، وكأنه « خَضِر » زمانه .. إلى آخر التُّرَّهات ، والخرافات التى كانت أشد ضررًا على الإسلام من أعدائه ..

وفى الصفحات التالية محاولة متواضعة لِتَعَرُّفَ منهج أولئك القوم ، ونشأة علومهم ، ومدى موافقتها للكتاب والسُّنَّة ، والمقبول من كلامهم وفلسفتهم ، والمرفوض منها .. والأمر فى النهاية لا يخرج عن كونه محاولة لإلقاء الضوء على منهج وسلوك قد انتشر فى بعض البلاد الإسلامية – باعتباره طريقًا إلى الله – منها مَنْ قَبِلته بالكلية دون تمحيص أو مراجعة ، ومنها مَنْ رفضته بالكلية صحيحه وسقيمه حفاظًا على الدين من أن يدخل فيه ما ليس منه ولو من باب سَدِّ الذرائع ..

والحكم لك أيها القارئ الكريم ..

هداني الله وإياك للحق والصواب ، ولِمَا فيه رضاه ..

ياسين رشدى

عِــلْمُ التَّصَوُّف

نعني بالتصوُّف هنا التصوُّف بمعناه القديـــم ، أى أصل التصوف ، كما نعني بالصوفية أولئك الرجال الذين ذاع صيتهم ، وكثر أتباعهم ، وانتشر علمهم ، وهم أولئك الذين تحقَّقوا « بالشريعة » قبل أن يرقوا إلى « الحقيقة » ..

وسوف نتناول أصل علم هؤلاء الناس ومنشأه بأسلوب يُؤَصِّل هذا العلم الذى بدأ يندثر أو يشوبه الخلط ، مستندين فى ذلك إلى أقوال السلف أمثال : « الْجُنَيْد » ، و« بِشْر الحافي » ، و« أبي يزيد البسطامي » ، و« الشبلي » ، و« سهل التستري » ، و« السهروردي » ، و« حسن البصري » وهم الرعيل الأول ، وذلك بأسلوب مختصر لا يخل بالمقصود ، آخذين منهم الإشارة ، ناطقين بالعبارة ..

ولما كان الصوفية يرتقون من حال إلى حال [١] ، ومن مقام إلى مقام [٢] .. فقد استحال وصفهم ، ونعتهم بحقائقهم ، فهم فى كل درجة دائمو الترقِّي .. وسترًا لحقيقة حالهم ، وغيرة على عزيز مقامهم ، وخوفًا من أن تتداول الألسن حقيقة أمرهم فقد اكتفوا بمجرد ذكر ظاهر أمرهم فقط .. وكانوا يقولون : (**لَوْ عَلِمَ الْمُلُوكُ وأبْنَاءُ الْمُلُوكِ مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ لَذِيذِ الْعَيْشِ لَجَالَدُونَا عَلَيْهِ بِالسُّيُوف**) [٣] .. وفيما يلي تعريفاتـــهم ، ووصفهم لأنفسهم ..

---

[١] سوف يأتي ذكره بالتفصيل في باب الأحوال عند الصوفية .

[٢] سوف يأتي ذكره بالتفصيل في باب المقامات عند الصوفية .

[٣] صيد الخاطر لابن الجوزي .

التصوُّف من حيثُ التَّسْمِيَة اللَّفْظِيَّة :

- هو مصدر فعل « تصوَّف » أى : لبس الصوف ، لأن الصوفيّة قد اشتهروا بلبس الصوف اعتقادًا منهم أنه لبس الأنبياء ، فقد رُوِيَ عن رسول الله (ﷺ) **أَنَّهُ كَانَ يَرْكَبُ الْحِمَارَ ، ويَلْبَسُ الصُّوفَ ، ويَلْعَقُ أَصَابِعَهُ ، ويَأْكُل عَلَى الأَرْضِ** [(١)] .. كما اشتهر عن سيدنا « عيسى ابن مريم » (عليه السلام) أنه كان يَلْبس الصوف ، ويأكل من الشجر ، وينام حيث يُمسي .. أيضًا فقد رُوِيَ عن « الحسن البصري » – وهو من كبار التابعين – أنه رأى سبعين بَدْرِيًّا [(٢)] وكانوا جميعًا يلبسون الصوف ، فهو علامة من علامات الزُّهد ، والفقر .. وقد لبسوه لترك زينة الدنيا ، ولاكتفائهم بسدِّ الجوعة ، وستر العورة ، والاهتمام بأمر الآخرة ..
- وقيل : إن لفظ « التصوف » مُتَّخذ من كلمة « صُوفَة » ، لأن الصوفي فى زُهْده ، وتواضعه ، وافتقاره ، واستِكَانته ، وكذا فى تخفّيه ، وتواريه عن إظهار مقامه ، إنما هو كالصُّوفَة الْمُلْقَاة على الأرض ، والْخِرْقة التى لا يُبَالي بِهَا أحد ، فهو زاهد مستكين متمسكن لله ..
- كما قيل : إن كلمة « صُوفِي » هي نسبة إلى « صوفة » ، مثل « كُوفِيّ » نسبة إلى « الكوفة » .. وزُعِمَ كذلك أَنَّهم سُمّوا بالصوفية لأَنَّهم هم الواقفون فى الصَّفِّ الأوَّل بين يدي الله عز وجل ، ويتقدَّمون على باقي الصفوف جميعًا ، وذلك بعُلُوِّ هِمَّتِهم ، وإقبالهم على الله بقلوبِهم ، والوقوف بين يديه بسرائرهم ..

---

(١) رواه ابن المبارك فى الزهد ..

(٢) أى صحابيًا ممن حضروا غزوة بدر .

• وقيل أيضًا : إن التسمية هى نسبة إلى « الصُّفَّة » ، والمقصود بِهَا « الصُّفَّة » التى كانت لفُقَراء المهاجرين على عهد رسول الله (ﷺ) حيث كانوا يجتمعون بالمسجد متحابين فى الله ، مجتمعين عليه ، متآلفين لا يشغلهم تجارة ولا زرع ، وإنما يشتغلون بالعبادة ، ويقفون أنفُسَهم على حفظ كتاب الله وحديث رسول الله (ﷺ) وتلاوة القرآن ، وكان عددهم يبلغ حوالي أربعمائة منهم : « صُهَيْب ابن سِنَان » ، و« بِلال بن رَبَاح » ، و« عبد الله بن أم مَكْتُوم » ، وكذلك حال أهل التصوف ، فهم يجتمعون فى الزوايا وفى الخلوات ..

وهذان القولان الأخيران ، وإن كان وصف الصوفية فيهما صحيحًا ، إلاَّ أن الرأى فى سبب التسمية في كل منهما غير صحيح ، لمخالفته قواعد صياغة النسبة .. والجدير بالذكر أن هذه التسمية لم تكن موجودة فى عهد رسول الله (ﷺ) إنما كان هناك الصحابة ، وكانت درجتهم هى أعلى منـــزلة ، بل لا تدانيها منـــزلة ، وإنما وجدت هذه التسمية فى عهد التابعين ..

مَنْ هو الصُّوفِيُّ ؟

• الصُّوفِيُّ هو مَنْ صفا من الكَدَر ، وامتلأ من الفِكَر ، وانقطع إلى الله من البشر ، واستوى عنده الذهب والْمَدَر .. فعبادته عبارة عن تفكر فى الله ، وفى الخلق ، وفى الملكوت ، وهو مع الله دائمًا فى الخلوة ، وفى الجلوة يتكلم مع الناس بظاهره ، وقلبه دائمًا مع الله ..

- الصُّوفِيُّ هو مَنْ قام بالله على قلبه ، وقام بقلبه على نفسه ، بمعنى أنه قائم بأمر الله ونَهْيه على قلبه ، فهو يأتمر بأمر الله .. ولما كان القلب هو مَلِكُ الجوارح فمعنى ذلك أنه قائم بقلبه على نَفْسه التى هى محل الشَّهَوات ..
- الصُّوفِيُّ كالأرض يُطْرَح عليها كل قَبِيح ، ولا يخرج منها إلا كل مَلِيح ، ويطؤها البرُّ والفاجر ، أى هو مصاحب للأبرار ، ومصاحب للفجار ، فهو ينهل من الأبرار ، ويهدي الفجار ..
- الصُّوفِيُّ كالسَّحَاب يظَلِّلُ كلَّ شيء ، وكالمطر يَسْقِي كلَّ شيء دون تفرقة ، فهو ليس كالعالِم الذى لا يعطى علمه إلا لأهل العلم والتعلم فقط كما قال الإمام « الشافعي » :

سأكتم علمي عن ذوي الجهل طاقتي ... ولا أنثر الدُّرَّ النفيس على الغنم
فإن يَسَّر اللهُ الكريم بفضله ... وصادفت أهلاً للعلوم وللحكم
بثثت مفيدًا واستفدت ودادهم ... وإلا فمخزون لدَيَّ ومكتتم
فمَنْ منح الجهال علمًا أضاعه ... ومَنْ منع المستوجبين فقد ظلم

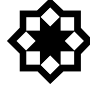
- الصُّوفِيُّ هو مَنْ تمسَّك بالحقائق ، ويَئِسَ مما فى أيدى الخلائق ..

ما هو التصوُّف ؟

- التصوف هو الدخول فى كل خُلُقٍ سَنِيّ ، والخروج من كل خُلُقٍ دَنِيّ ..
- هو استرسال النفس مع الله فيما أراده الله ..

- هو أن يُميتك الحق عنك ، ويُحْييك به ، فأنت قائم فى الأشياء بالله لا بنفسك فتكون حيًّا بالله ميتًا بنفْسِك ..
- التصوف أوَّله عِلْم ، وأوْسَطه عَمَل ، وآخره موهبة ..
- التصوف أصله تربية وآداب ، فلكل وقت أدب ، ولكل حال أدب ، ولكل مقام أدب ، ومَنْ تحقَّق بآداب الأوقات ولزمها بلغ مبلغ الرجال ..

وللدخول فى طريق الصوفية يجب العمل بالقاعدة الأساسية عندهم وهى : **التمسُّك بالفقر والافتقار** .. وسوف نبيّن ذلك في الصفحات التالية ..



الفَقْر والافْتِقَار

الفقر هو أوَّل طريق الصُّوفِيَّة ، وهم يستندون فى التمسُّك به إلى حديث لسيدنا رسول الله (ﷺ) قال فيه : (**فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنِيَائِهِمْ بِخَمْسِ مِائَةِ سَنَةٍ**)[1] ..

والفقير فى فقره متمسِّك به ، متحقِّق بفضله يؤْثره على الغِنَى ، متطلِّع إلى ما تحقق له من العوض عند الله ، وكلما لاحظ العوض الباقي أمسك عن الحاصل الفاني ، وامتنع عنه ، وهو مقام أدنى من مقام الصُّوفي ، ذلك أنَّ تمسُّك هذا الفقير بالفقر هو منه إرادة واختيار ، وهما من علل الأحوال عند الصُّوفِيَّة ، فيؤخذ على هذا الفقير أنه يفتقد الافتقار ، والمفروض أن يكون قائمًا فى الأشياء بالله لا بنفسه ، ومن ثَمَّ لا يرى للفقر فضلاً على الغِنَى ، ولا يرى للغِنَى فضلاً على الفقر ، وإنما الفضل فيما يُوَفِّقُه الحق فيه ، فهو تبارك وتعالى أقام العباد فيما أراد ، وبالتالى لا يدخل فى الأشياءِ إلا بإذن الله ، والإذن أنواعٌ وله علامات ، وعليه ألاَّ يتحرك إلا بإذن ، ويصبح الفقر بذلك طريقًا إلى التصوُّف ، وليس شرطًا من شروط التصوُّف ..

كما يُؤْخذ عليه أيضًا أنَّ تمسُّكه بالفقر إنما هو من أجل العوض الباقي .. والصُّوفِيُّ لا يتمسَّك بالأشياءِ من أجل الأعواض الموعودة ، وإنما من أجل الأحوال الموجودة ، أي ليس من أجل الثواب الموعود ، وإنما من أجل شعوره بلذَّة ما يفعل ، فالصوفي ابن وقته ..

[1] رواه الترمذى كتاب الزهد .

وعليه فالفقير عند الصُّوفيَّة ليس هو مَنْ تمسَّك بالحقائق ويئس مما في أيدي الخلائق ، وليس هو مَنْ ترك الحاصل الفاني من أجل العوض الباقي .. أي إنّ الفقير الحقيقي عندهم ليس فقط هو مَنْ ليس له عند الناس حاجة ، وإنما هو الذي ليس له عند الله حاجة من حاجات الدنيا ، فهو مع الله لا يسأله شيئًا وذلك : ليقينه بأنَّ عِلْمَ الله بِحَالِه يُغْنِيهِ عن السُّؤال ، وَلِرِضَائِه بِالْقَضَاءِ والْقَدَر ، وأيضًا لِتَمَسُّكِه بالحديث القدسي : (**مَنْ شَغَلَهُ الْقُرْآنُ وَذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ**)[1] ..

وهم يعتبرون أن : **أُولَى درجات التصوُّف هى التَّشَبُّه** .. والمتشبِّه هو الذي يجاهد نفسه وهواها ، ويحاسبها على كل ميل لها ، فهو صاحب مجاهدة ومحاسبة ، ثم تأتي الدرجة التالية وهي درجة المتصوِّف الذي تعدَّى مرحلة مراقبة النَّفس بعد أن استقامت له إلى مرحلة مراقبة القلب ، ثم تأتي بعد ذلك درجة الصُّوفِيّ ، وهو الذي توصَّل إلى مراقبة الرُّوح بعد مراقبة القلب ..

والْمُتَشَبِّه هو المبتدئ فى أول الطريق ، وهو حين يتوجَّه للصُّوفِيّ الذي وصل إلى درجة المشيخة يجده يعامله برفق في البداية .. ذلك أن الرفق يؤنس ، والعلم يوحش ، وقد أطلقت على المبتدئ هذه التسمية لأنه سوف يتشبَّه بالقوم ويتزيَّا بزيِّهم ، فيقرِّبه ذلك من مجالسهم ومحافلهم ، وببركة مخالطتهم يحبُّ أن يسلك مسلكهم ، ويصل بذلك إلى شيء من أحوالهم ..

---

[1] رواه الترمذى كتاب فضائل القرآن .

والتشبُّه نوعـــان :

(أ) **تشبُّه بالظَّاهر فقط** .. وهنا يثار سؤال هام : هل لهذا المتشبِّه بالظَّاهر مقام ؟ يقولون : نعم .. له مقام يوجب عدم طرده فطالما أنَّ المتشبِّه لَبِسَ لِبَاسَ القَوْم وقلّدَ ظاهرَهم ، فسوف يحبهم ، ورسول الله (ﷺ) يقول : (**الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**)[1] .. أيضًا ، فإنه إذا أحبَّهم جالسهم وائتلف معهم ، والله تبارك وتعالى يقول في حديث قدسي : (**هُمُ الْجُلَسَاءُ لاَ يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ**)[2]، وبالتشبُّه بالظَّاهر يصبح محسوبًا على مَنْ تشبَّه بِهِم منسوبًا إليهم ..

(ب) **تشبُّه بالأخلاق** .. وليس مجرَّد تشبُّه بظاهر الزِّيِّ والصُّورة ، دون السيرة والصِّفة ، وإنما تجب المحاكاة في أخلاقهم ، وذلك بالدخول في بداياتهم ، فقد أقاموا عقولهم في سُنَّة رسول الله (ﷺ) ففهموها ، وأقاموا قلوبَهم على السُّنَّة فعملوا بِهَا وتخلَّقوا بِهَا واستسلموا بنفوسهم لله واستعاذوا من شرورها بالله ، أي اعتصموا بسيِّدهم من شرِّ نفوسهم فلجأوا إليه لقول النبي (ﷺ) : (**لاَ تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ**) وقد رأوا نفوسهم بكمال لطف الله فعرفوها ومَنْ عرف نفسه فقد عرف ربَّه ، وتخلَّقوا بأخلاق رسول الله (ﷺ) **كالْحَيَاءِ ، والْحِلْمِ ، والْعَفْوِ ، والرَّأْفَةِ ، والصَّفْحِ ، والْمُدَارَاةِ ، والنَّصِيحَةِ ، والتَّواضُع ،** وحين تخلَّقوا بأخلاقه رُزِقُوا نصيبًا من أحواله وهي : **الْخَشْيَة ، وتَعْظِيم الله ، والسَّكِينَة ، والْهَيْبَة ، والزُّهْد ، والرِّضَا ، والصَّبْر ، والتَّوَكُّل ... إلخ ..**

---

[1] رواه البخارى كتاب الأدب . [2] رواه البخارى كتاب الدعوات .

الْوُصُولُ إِلَى اللهِ عِنْدَ الصُّوفِيَّة

يتم ذلك عن أحد طريقين :

الطريق الأول : الْمَحْبُوبُ الْمُرَادُ ..

وهو مَنْ أحبه الله وأراده ، فاصطفاه واجتباه ، فكشف الحجاب عن قلبه ونوَّره بنور اليقين ، ثم ردَّه إلى مقام الاجتهاد بعد أن وصل إلى مقام الاجتباء ، والاجتباء هو : الاصطفاء ، وليس للعبد فضل في هذا المقام ، وليس له سابقة كسب ، أو اجتهاد ، وإنما أراده الله واصطفاه كما اصطفى الأنبياء ، فأضاء قلبه بنور اليقين ، فكشف له ما لم يكشفه لغيره ، ومنحه المنح والمواهب ، وحين تم له ذلك رُدَّ إلى مقام الاجتهاد ، فأقبل على الطاعات ، والعبادات ، فشعر فيها باللَّذّة والسَّعادة ، فأصبحت قُرَّة عين له ، ولكنه في الأصل ممنوح ، ومن البداية موهوب ..

الطريق الثاني : المحبُّ الْمُرِيدُ ..

وهو السَّالك الذي بدأ بالمجاهدة ، والمحاسبة ، والاجتهاد في الطاعة للوصول إلى الله ، وذلك بتقليد القوم ، والتخلُّق بأخلاقهم ، والتَّشبُّه بصفاتِهم ، وهو في المجاهدة ، والمحاسبة يتقلَّب في رمضاء الإرادة ، وينخلع عن كل مألوف وعادة ، تتأجج معه نيران الطلب [1] ، وتتحجب دونه لوامع الإرب [2] ، فإن كان كذلك وصل إلى المكاشفة بعد المجاهدة ، ووصل إلى الاجتباء بعد الاجتهاد ..

وسندهم في هذا التقسيم هو قول الله تبارك وتعالى : (ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ

---

[1] أي الرغبة في الوصول .

[2] أي ما يطلبه من علامات الوصول .

وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ)[1] ..

والمحبُّ المريدُ هو : مَنْ وضع الله له الإنابة شرطًا للوصول إلى الهداية ، فإذا تحققت منه الإنابة رزِقَ الهداية فهي : هداية خاصة إلى الله ، أما الهداية العامة فهي : الهداية إلى أمر الله ونَهْيه ..

وتكون الإنابة باتِّباع ما يأتي :

١- **التخلُّص من الغلِّ والغشِّ** ، وهم يستندون في ذلك إلى قول النبي (ﷺ) « لأنس بن مالك » (رضي الله عنه) : (**يَا بُنَيَّ إِنْ قَدَرْتَ أَنْ تُصْبِحَ وَتُمْسِيَ لَيْسَ فِي قَلْبِكَ غِشٌّ لأَحَدٍ فَافْعَلْ**) ثُمَّ قَالَ : (**يَا بُنَيَّ وَذَلِكَ مِنْ سُنَّتِي ، وَمَنْ أَحْيَا سُنَّتِي فَقَدْ أَحَبَّنِي ، وَمَنْ أَحَبَّنِي كَانَ مَعِي فِي الْجَنَّة**)[2].. ذلك أن أساس الطريق هو المحبة ، والائتلاف .. فهم قد ائتلفوا بالله ، واجتمعوا على مودته ، واتَّفقوا على محبته ، فلابد من خلو القلب من الغل ، والغش في مجالسهم ومعاملاتِهم ، فالحق تبارك وتعالى يقول : (وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ)[3] .. ومثار الغلِّ والغشِّ هو حبُّ الدنيا ، وحبُّ المنـــزلة بين الناس ، وحبُّ الرِّفعة ، لذا فإنه للتخلص من الغلِّ والغشِّ – وهو بداية الطريق – كان لابد من التمسُّك بالفقر والافتقار إلى الله بالزهد في الدنيا ، وتركها لأربابِها وطلابِها ، وإذا ما افتقرت إلى الله تركت الاختيار ، وما دمت قد تركت الاختيار فقد بدأت أول الطريق بأن تكون مع الله حيث أرادك الله

---

[1] سورة الشورى آية ١٣ . [2] رواه الترمذي كتاب العلم . [3] سورة الحجر آية ٤٧ .

فتسترسل نفسك مع الله حيث أراد ، وتصبح كالريشة في مهب الريح ..

ولابد أن تكون في الأشياء بالله لا بنفسك ، فَيُميتُك الحقُّ عنك ويحييك به .. من هنا فإنَّ السالك يتقلَّب في رمضاء الإرادة ويتخلَّى عن كل مألوف وعادة ، فإرادته تعمل على الرغم منه ، واختياره قائم على الرغم منه ، وهو يحترق لذلك ، إذ إنه يريد الخروج من دائرة الاختيار والتدبير إلى دائرة الافتقار والتقدير ، فيتخلَّى عن كلِّ مألوف وعادة بالمجاهدات ، وتتأجج فيه نيران طلب طريق الصوفيَّة ، وفي الوقت نفسه تتحجَّب عنه أحوالُهم ومقاماتُهم ، فتصبح رغباته في بلوغ تلك المقامات نيرانًا تتأجَّج ، ومع ذلك ، فهو لم يأخذ شيئًا بعد ، وكلما اعتقد أنه يقترب من ذلك وجد نفسه ما يزال بعيدًا ..

وإذا ما دخل المريد مرحلة المجاهدة هذه وجب عليه أن يطمئنَّ إلى قول الله عز وجل : (وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ)[1] ..

٢- **على السَّالك أن يعلم أن التصوف لا يُؤْخَذ من القيل ، والقال** ، وإنما يُؤْخَذ بالمجاهدة ، والمكابدة .. يؤخذ بتنقية القلب ، وتنقية النَّفْس ، وبالشفاء من أدوائها ، وأمراضها ، وبالزُّهد في الدنيا والإقبال على الآخرة .. ومن هنا كان كل باطن يخالفه ظاهر باطلاً ، ومَنْ أمَّر السُّنَّة على نفسه قولاً ، وفعلاً ، نطق بالحكمة ، ومَنْ أمَّر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة ، وعليه ، فإنَّ كلَّ حال من أحوال الصوفيَّة لا يشهد له الكتاب والسُّنَّة ، فهو باطل ..

---

(١) سورة العنكبوت آية ٦٩ .

٣- بعد المجاهدة ، وبانتهاء فترة الحضانة ، والرِّفق ، والحنوِّ الزائد على المريد الذي يؤدي به إلى حبِّ شيخه وتقليد أخلاقياته باستمرار مجالسته والاستماع إلى كلامه بانفتاح قلب ، يبدأ في التَّعَلُّم ، وأوَّل ما يتعلَّمه هو العمل بأحاديث سيدنا رسول الله (ﷺ) التي يقول فيها : (**مَا عُبِدَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ بِشَيءٍ أَفْضَلَ مِنْ فِقْهٍ فِي الدِّينِ ، وَلَفَقِيهٌ وَاحِدٌ أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ ، ولِكُلِّ شَيْءٍ عِمَادٌ ، وعِمَادُ هَذَا الدِّينِ : الْفِقْهُ**)[١].. (**مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ ، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَاللَّهُ يُعْطِي**)[٢] .. (**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**)[٣] ..

ومحل تعلم الفقه هو القلب ، فقد قال تعالى : (لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا)[٤].. والفقه صفة للقلب ، وقلوب الصوفية واعية ، لأنَّهم زهدوا في الدنيا بعد أن أحكموا أساس التقوى ، فبالتقوى زكت نفوسهم ، وبالزهد صَفَتْ قلوبُهم ، فلما عُدِموا شواغل الدنيا بتحقيق الزُّهد ، انْفَتَحَت مسام بواطنهم ، وسمعت آذان قلوبِهم ، ولما فقهوا علموا ، ولما علموا عملوا ، ولما عملوا عرفوا ، ولما عرفوا اهْتَدَوا ، فتزكَّت نفوسهم ، وانجلت مرايا قلوبِهم بما صقلها من التقوى ، فانجلت فيها صور الأشياء على هيئتها ، وماهيتها ، فبانت الدنيا بقبحها ، فرفضوها ، وظهرت الآخرة بحُسْنها ، فطلبوها ، وانْضَافَ إلى علم الدِّرَاسة علم الوراثة ، وأنبتت أراضي قلوب العلماء الكلأ والعشب بما قبلت من ماء الحياة ،

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط .

(٢) رواه البخاري كتاب العلم .

(٣) رواه البخاري كتاب فضائل القرآن .

(٤) سورة الأعراف آية ١٧٩ .

ويقول (ﷺ) : (**إنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِيَ اللَّهُ بِه عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْث أَصَابَ أَرْضًا ، فكَانَتْ منْهَا طَائفَةٌ طَيِّبَةٌ قَبلَت الْمَاءَ فَأَنْبَتَت الْكَلأَ ، وَالْعُشْبَ الْكَثيرَ ، وكَانَ منْهَا أَجَادبُ أَمْسَكَت الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بهَا النَّاسَ ، فَشَرِبُوا منْهَا ، وَسَقَوْا ، وَرَعَوْا ، وَأَصَابَ طَائفَةً منْهَا أُخْرَى إِنَّمَا هيَ قيعَانٌ لاَ تُمْسكُ مَاءً ، وَلاَ تُنْبتُ كَلأً .. فَذَلكَ مَثَلُ : مَنْ فَقُهَ في دينِ اللَّه ، وَنَفَعَهُ بمَا بَعَثَنِيَ اللَّهُ به فَعَلمَ ، وَعَلَّمَ ، وَمَثَلُ : مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بذَلكَ رَأْسًا ، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّه الَّذي أُرْسلْتُ به**)[1] .. ويقول الحق تبارك وتعالى : (أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ)[2] ..

وقد أخذ بعض الصوفية بتفسير « ابن عباس » (رضي الله عنهما) إذ يقول : إن ما أتى به الرسول (ﷺ) من قرآن وسُنَّة مثل المطر ، فالعلم هو : المطر ، والأودية هى : القلوب ، ولكل قلب قدر يحتمله من العلم ، كما أن لكل واد قدرًا يستوعبه من المطر .. وكما ينْزِل السيل ، أو المطر على الوادي ، فينظفه بأن تطفو الشوائب على سطح الماء ، فتتجمَّع ، ثم يُلْقى بهَا ليصبح الوادي بعد ذلك نظيفًا ، ويبقى الماء أيضًا نظيفًا ، كذلك العلم ، فإنه إذا نزل على القلوب كَنَسَها من الأوضار ، والأكدار ، والأمراض ، والأوساخ ، وإذا كَنَس العلمُ القلبَ استنار هذا القلب ، وانطبعت فيه صور الأشياء ، وماهيتها ، فبانت في القلب على حقيقتها ، فتظهر الدنيا بِقُبْحها ، فيجْتَنِبُونَها ، كما تبدو الآخرة

---

(١) متفق عليه واللفظ لمسلم كتاب الفضائل .
(٢) سورة الرعد آية ١٧ .

بِحُسْنِها ، فيطلبونَها ، وكلما كانت المرآة مجليَّة كانت الصورة واضحة جليَّة .. وصورة المعلوم هذه المنطبعة في مرآة القلب لها ظاهر ، ولها باطن ، ذلك لأن العلم له ظاهر ، وباطن .. ظاهر العلم : التعلُّم ، وباطن العلم : الفهم ، وهو أرقى وأشرف من العلم ، وقد نبَّه الله تبارك وتعالى إلى ذلك ، فقال : (فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ)[1] .. وهو ما يعني أن الفهم أعلى من الحكم ، وأعلى من العلم .. والناس في فَهْمِهم للعلم مُتَفَاوتون ، كلٌّ بحسب انْجِلاءِ مرآة القلب ، وبحسب انْطِباع الصورة ، وبحسب الظاهر والباطن ..

ولقد حقق الله تبارك وتعالى حديث المصطفى (ﷺ) المتقدم ذِكرُه ، وذلك في عصر الصحابة حيث وُجِدَ منهم الذين أَبَّدوا الدين [2] ، وحقَّقوا الشريعة ، وبيَّنوا العلوم للتابعين ، الذين نقلوها إلى مَنْ بعدهم ..

وقد انقسم هؤلاء إلى ثلاثة أقسام من العلماء :

أولا : علماء القرآن : وهم علماء التفسير ، والتأويل ، الذين عرفوا علوم وفنون النحو ، والتصريف ، وكلام العرب ، وفقه اللغة ، والذين حفظوا القرآن وحفَّظوه ، وفهِموه ، وفهّموه ، وفسَّروه بالنَّحو ، والصَّرف ، والإعراب ، وقد نشأ عن علم التفسير علم أسباب نزول الآية ، وإعرابـها ، ومعاني ألفاظها ، وما تَطْلبه ، وما تؤدي إليه وما تدعو له ، وكذلك علم القصة ، وخبر السابقين .. وقد شرطوا للتفسير كعلم حدودًا لا يمكن لعالِم أن يتجاوزها ، وهي **السَّماعُ** ،

---

[1] سورة الأنبياء آية ٧٩ .

[2] أى جعلوه أَبَدِيًّا لا يزول .

والأَثَرُ .. فلا يمكن أن يُفسَّر القرآن إلا بالسَّماع والأثر من شيخ عن شيخ حتى نصل إلى التابعين ، ومنهم إلى الصحابة ، والفرق بين مفسرٍ ومفسرٍ إنما هو فرق في الاجتهاد ، وفي القراءة ، أو الحفظ ، أو تتبع الأثر ..

أمَّا علم التأويل : فهو رد الآية إلى ما تحتمله من معان وذلك بحسب وضع اللفظ ، وبشرط ألا يخالف ذلك قرآنًا أو سنَّة ..

ثانيا : علماء الحديث : لقد كانت هناك طائفة من الصحابة وهبوا أنفسهم لضبط أفعال رسول الله (ﷺ) ، وأقواله ، وتقريراته ، وصفاته ، وحفظوا ذلك في قلوبهم إلى أن دُوِّن علم الحديث في عصر « عُمَرِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ » الْمُلَقَّب بخامس الخلفاء الرَّاشِدِين الذى كتب إلى « أَبِي بَكْرِ بْنِ حَزْمٍ » : (**انْظُرْ مَا كَانَ مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) فَاكْتُبْهُ ، فَإِنِّي خِفْتُ دُرُوسَ** [1] **الْعِلْمِ ، وَذَهَابَ الْعُلَمَاءِ .. وَلاَ تَقْبَلْ إِلاَّ حَدِيثَ النَّبِيِّ (ﷺ) .. وَلْتُفْشُوا الْعِلْمَ ، وَلْتَجْلِسُوا حَتَّى يُعَلَّمَ مَنْ لاَ يَعْلَمُ ، فَإِنَّ الْعِلْمَ لاَ يَهْلِكُ حَتَّى يَكُونَ سِرًّا**)[2] .. إلى أن انتهى الأمر إلى كبار الطبقة الثالثة ، فصنَّف الإمام « مالِكُ بْنُ أَنَسٍ » (الْمُوَطَّأَ) بالمدينة المنوَّرة ، و« عَبْدُ الْمَلِكِ بْن جُرَيْجٍ » بِمَكَّةَ ، و« عَبْدُ الرَّحْمنِ الأَوْزَاعِيُّ » بالشَّام ، و« سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ » بالكُوفة ، و« حَمَّادُ بنُ سَلَمَةَ بنُ دينَارٍ » بالبصرة .. ثم تلاهم الكثير من الأئمة مثل : « أَحْمَد بنُ حَنْبَل » ، و« إسْحَقُ بن رَاهَوَيْه » ، و« البَزَّار » ، وغيرهُم .. وأوَّل مَنْ صنف فى خصوص الصحيح الإمام

(1) دُرُوس : ضياع .

(2) رواه البخارى كتاب العلم .

« محمد بن إِسْماعِيل البُخَارِىُّ » .. وازدهر علم الحديث ، وبرز فيه رجال عُرِفوا بالصِّدق ، والأمانة ، والدقَّة المتناهية فى مراجعة **مَتْنِ الحدِيث** [1] ، ومدى إتفاقه مع ما جاء فى القُرآن الكريم .. وكذلك بدقة البحث فى سيرة الرواة ، ومدى صدقهم ، وما عُرِفَ عنهم فى زمانـــهم من : صلاح ، ووَرَع ، وحفظ .. وفى التحقق من سماع فلان من فلان الذى يَرْوِى عنه ، أو التقائه به ، أو معاصرته له ، وهكذا .. وهو ما يعرف **بِسَنَدِ الحديث** .. ثم قاموا بوضع مَعَايير دقيقة ، وشروطٍ تُوزَنُ بـــها الأحاديث لمعرفة درجة صِحَّتِها ، ونِسْبَتِها إلى رسول الله (ﷺ) .. وقسَّموا الأحاديث إلى : صَحِيح ، وحَسَن ، وضَعِيف ..

ثالثا : علماء الفقْه : وهم الذين عرفوا الحلال والحرام ، والأَمْرَ والنَّهْي ، ونشأ من عِلْمهم عِلْمُ أصول الفقْه ، وكيف تُرَدُّ الفُرُوع إلى الأصُول ، والقِياس ، والاجتهاد ، والتعليل ، وعِلَل الأمور ، وكيف تُقَاس المسائل على العِلَل الأساسيَّة ، ونشأ من هذه العلوم علومٌ أخرى هي : علم الخِلاف ، وعلم الكَلاَم ، وعلم الْجَدَل ، كما نشأ أيضًا علم الحساب والْجَبْر ، وعلم الفرائض أي (المواريث) ..

وقد انقسم علماء الفِقْه إلى مدارس منها : **مدرسة « مالك »** : الذي بنى أساس فِقْهِه على عَمَلِ وفِعْل أشياخه (أهل المدينة) ، ولذلك نجد أغلب أحاديثه مرويَّة عن « نافعٍ » عن « ابن عمر » عن رسول الله (ﷺ) ..

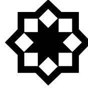
أما الإمام « أَبو حَنِيفَة » : فقد أخذ عن (**مدرسة الرأي**) فأعمل عَقْلَهُ آخِذًا

---

[1] متن الحديث : موضوعه وكلماته .

عن شيوخه .. وأساس هذا المذهب هو « عبد الله بن مَسْعُود » الصحابي الجليل الذي أسَّس المدرسة الفِقْهِيَّة في العراق ، والتي أخذ عنها الإمام « أبُو حَنِيفَة » ..

ومنهم مَنْ تمسَّك **بالحديث النبوي** فكان أساسًا لمذهبه كالإمام « الشافعي » ، والإمام « أحمد بن حَنْبَل » .. وهؤلاء الأصناف الثلاثة من العلماء كانوا أرضًا شربت ، وأخَّاذات حفظت الماء فَسَقَتْ ، وعَلِمَت ، وتَعَلَّمت ، وعلَّمَت الناس ، وكانوا أئمة لا يمكن أن يدانيهم أحد .. **وما ترك هؤلاء الأئمة الأوائل من كلمة لقائل** ..



كيف يُؤْخَذُ التَّصَوُّف

يؤخذ التصوف كما أشرنا بالْمُجَاهَدَةِ ، والتعلُّم ، لا من القيل والقال ، وأوَّل ما يُتَعَلَّم هو الفِقْه ، وذلك لأن كل ظاهر خالفه باطن فهو باطل .. وعلى سبيل المثال : مَنْ لا يعرف كيفية الوضوء بطلت صلاته وإن خشع ، وإن ارْتَعَد أثناء أَدَائِها ..

ورسول الله (ﷺ) يقول : (**مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ ورَّثَهُ اللهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**)[1] .. ومن هنا فإن أوَّل طريق العلم هو : **الاستماع** ، **ثم الفهم** ، **ثم الحِفْظ** ، **ثم العمل** ، **ثم النَّشْر** ..

وهؤلاء القوم عَلِمُوا ، وحين عَلِمُوا عَمِلُوا ، وحين عَمِلُوا عَرَفُوا ، وحين عَرَفوا شاهَدُوا ، وحين شَاهَدُوا تَحَقَّقُوا فكانوا مِمَّن قال فيهم الحق تبارك وتعالى : (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)[2] .. والآية تتحدَّث عن القرآن ، فلا ينتفع به إلاَّ مَنْ كان له قَلْبٌ ، أو أَلْقَى السَّمْعَ ، وهو شهيد .. ويقصد بالقَلْبِ هنا : ذلك القلب الذي سلم من الأَغْرَاض والأَمْرَاض .. قَلْبٌ حَاضِرٌ مع الله ، لا يغفل عنه طَرْفَة عَيْنٍ ، فإذا سَمِع الكلمة سمعها برُوحه ، وقَلْبِه ، ونَفْسِه فتعمُّه الكلمة ، وتشملُه ، وتَصِير كُلُّ شَعرة منه سمعًا ، وكُلُّ ذَرَّة منه بَصَرًا ، فيسمع الكُلَّ بالكُلِّ ، فيفهم الكلام ، ويعمل به ، ويجانب هواه .. وهذا الذي جَانَبَ الْهَوَى ، وانتهج سبيل الهدى هو (الصُّوفِيُّ) الذي تنسَّم رُوح

[1] رواه أبو نعيم في حلية الأولياء .

[2] سورة ق آية ٣٧ .

ما دعا الله إليه ، فأسرع إلى مَحْوِ العلائق الشاغلة ، وهجم بالنَّفْسِ على مُعَانقة الْحَذَر ، وتجرَّع مَرَارَة المكابَدَة ، وصَدَقَ اللهَ في الْمُعَامَلَة ، وأَحْسَنَ الأدَبَ فيما توجَّه إليه ، وهانت عليه المصائب ، وعرف قَدْرَ ما يطلب ، وسَجَنَ هَمَّه عن الالتفات إلى مذكور سوى الله ، فحيِيَ حياةَ الأَبَد بالحي الذي لم يزل ولا يزال .. ذلك أن أُولَى درجات العلم : حُسْن الاستماع ، إذ يقول الحق تبارك وتعالى : (وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡ) [1] .. وأما مَنْ تَمَلَّكَتْه الوساوس ، وغلب على باطنه حديث النَّفْس ، فلا يقدر على حُسْن الاستماع ، لذا كان لابد للإنسان أن يُنَظِّفَ قَلْبَه ، ويُجَانِب هَوَاه ، وهو ما عمل به السادة الصوفية ، فعَلِمُوا كلام الله تبارك وتعالى ، ورسائله إلى عباده ، ومخاطباته إيَّاهم ، ثم رَأَوْا كُلَّ آية من آياته بَحْرًا من أبْحُرِ العِلْم بما تتضمَّنه من ظاهر العلم وباطنه ، وجَلِيِّه وخَفِيِّه ، وبابًا من أبواب الجنة ، باعتبار ما تنبِّه إليه ، أو تدعو إليه من العمل .. وكذلك كلام رسول الله (ﷺ) الذى لا ينطق عن الْهَوَى ، إن هو إلا وَحْيٌ يُوحَى ، يتعيَّن الاستماع إليه ، وكان أهم ما عندهم الاستعداد للاستماع ، ورأوا في حُسْن الاستماع قَرْعًا لباب الملَكُوت ، واستنْزَالاً لبركة الرَّغَبُوت والرَّهَبُوت [2] ، ورأوا في الوساوس أَدْخنَة .. ثائرة من نار النفس الأمَّارة بالسوء ، وأنَّ الحظوظ العَاجلَة ، والأقسام الدنيويَّة التي هي مناط الْهَوَى ، ومثار الرَّدَى بمثابة الْحَطَب الذي تَزْدَادُ به النار تأجُّجًا ، ويزداد به القَلْبُ تحرُّجًا ، فرفضوا الدنيا ، وزهدوا فيها ، فلمَّا انقطعت عن نار النفس أحطابُها ، ووقودُها ، فترت نيرانُها ، وقلَّ دُخَانُها ، فشهدت بواطنُهم ، وقلوبُهم

[1] سورة الأنفال آية ٢٣ .

[2] الرغبوت : الضراعة والمسألة ، والرهبوت : الخوف .

مصادر العلوم ، فلما شَهِدُوا سَمِعُوا : (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)[1] ..

ولكن ماذا يسمع ؟! .. إنه يسمع كلام الله .. وكلام رسول الله (ﷺ) الذي هو أيضًا من الله .. فالخطاب والرسالة من الله إليك .. وكلام الله كله كلمة من حيث ذات التوحيد ، والكلمة الواحدة من القرآن كلام الله كله من حيث سعة العلم الأزَلِيِّ .. فالقرآن كله كلمة واحدة لأن قائلها هو الواحد ، فهو لن يقول ثم ينتظر ليقول ، فهو عندما يتكلَّم لا يحتاج لأن يقول كلمة ثم كلمة ثم جملة وإلا كان يتربَّص بالزمان ، وكان عليه تبارك وتعالى أن يُرَتِّب أفكارًا ، وهو سبحانه لا يشغله شأن عن شأن ، فكلامه كلمة من حيث ذات التوحيد ، وكل كلمة مثل (بسم الله) هي كلامه كله من حيث سعة العِلْم الأَزَلِيِّ .. وبعد أن عرفنا ماذا يسمع ، بقى أن نعرف : كيف يسمع ..

- **كيفية الاستماع :**

يقول الحق تبارك وتعالى : (وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)[2] .. فإذا بدأت الاستماع بآداب الاستماع أسمعك الله ، وإذا بدأت التعلُّم بآداب التعلُّم أفهمك الله ، والحق تبارك وتعالى يقول : (إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ)[3].. (إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ)[4].. (وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ)[5]..

---

(1) سورة ق آية ٣٧ . (2) سورة الأعراف آية ٢٠٤ . (3) سورة فاطر آية ٢٢ .
(4) سورة النمل آية ٨٠ . (5) سورة الأنفال آية ٢٣ .

ولكي نعرف آداب الاستماع ، علينا أن نبدأ بمعرفة كيف أدَّب الله تبارك وتعالى حبيبه المصطفى (ﷺ) .. فهو أوَّل من استْمَع ، إذ قال له الله تبارك وتعالى : (وَٱسْتَمِعْ)[1] .. فنبدأ بمعرفة : كيف استمع سيدنا رسول الله .. يقول الله تعالى : (لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ)[2].. (فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ)[3] أى فاستمع قرآنه مُتَتَبِّعًا له .. (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ)[4] فإذا أحسنت الاستماع رُزقت البيان .. (وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا)[5] ..

وقد تناول السادة الصوفية هذه الآداب بالتفسير فأشاروا بما يلي :

أولا : طرد الوساوس والهواجس من القلب ، والتخلص منها : إذ إن سيطرتها عليه تَمْنَع الاستماع فهي دُخَان النفس الذي يَحْجُبُ لَمَعَان مرآة القلب ، فيحجُب السَّمع ، والنفس أمَّارة بالسوء إلا ما رَحِمَ الله : (إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ)[6] .. فتكون البداية انتظار هذه الرحمة للتخلُّص من النفس الأمَّارة بالسوء التي يشعل نارها حبُّ الدنيا ، والله تعالى يقول : (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ

---

[1] سورة ق آية ٤١ . [2] سورة القيامة آية ١٦ . [3] سورة القيامة آية ١٨ .
[4] سورة القيامة آية ١٩ . [5] سورة طه آية ١١٤ . [6] سورة يوسف آية ٥٣ .

عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ)[1] .. فشهوات النفس عند تحرُّكها تتأجَّج فيتحرج القلب في استماعه ، ويضيق فلا يدخله علم : (فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ)[2] .. فالبداية إذن هي التنبُّه إلى قبح الدنيا فنرفضها ، ونتنبَّه لِحُسْنِ الآخرة فنطلبها ، ويشير الحق إلى ذلك قائلا : (قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٍ مِّن ذَٰلِكُمۡۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٌ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضۡوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِۗ)[3] ..

ثانيا : الإنصاتُ بالكُلِّيَّة ، وعدم الاعتراض أو الالتفات مع عقد النية على العمل بِمَا تسمع : فإذا جلست بين يدي شيخ فلا تلتفت عنه يَمْنة أو يَسْرَة ، ولا تعترض ، وإذا سألك فلا تجب حتى يكرِّر سؤاله ثلاث مرات ، وذلك تأسِّيًا بفعل الصحابة مع سيدنا رسول الله (ﷺ) فقد يكون السؤال لمجرَّد لفت نظرك وشَدّ انْتباهِك .. وإذا استعرضت القرآن وجدت به كثيرًا من الأسئلة ، وكلها خطاب للنبي (ﷺ) : (أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ)[4] .. (أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ)[5] .. (أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ)[6] .. فعليك أن تُلْقِي بِكُلِّ سَمْعِك ، وتُنْصت ، ولا تقاطع مُعَلِّمك مُطْلَقًا ..

---

(1) سورة آل عمران آية ١٤ . (2) سورة الأنعام آية ١٢٥ . (3) سورة آل عمران آية ١٥ .
(4) سورة الفيل آية ١ . (5) سورة البقرة آية ١٠٧ . (6) سورة الزمر آية ٣٦ .

ثالثا : عليك ألاَّ تَطْلُبَ فوق ما تُعْطَى : فلا تفرض على العالِم ما يعلِّمك من علوم ، بل استمع وخُذْ منه العِلْمَ قطرةً قطرةً فسيمنَحُكَ من العلم بقدر استيعابك .. فإذا سمعت بآداب الاستماع أسمعك الله ، وعلَّمَك الله ، فإذا عملت بِمُقْتَضَى ما تعلم وَرِثْتَ علم ما لم تعلم : (عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ)[1] .. (وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ)[2] ..

ويأتي بعد معرفة كيفيَّة الاستماع : وجوب الاستقامة ..

• الاسْتِقَامَــــة :

أفضل الْخَلْقِ رسول الله (ﷺ) ، ومع ذلك خُوطِب بقول الله تبارك وتعالى : (فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ)[3] .. وبالتالي فإن كل علماء الصُّوفِيَّة ، والزاهدين ، والذين طلبوا الطريق إلى الله تبارك وتعالى مُطَالَبون بالاستقامة ، وهي أمر غاية في الخطورة ، والصعوبة ، وقد رأى أحدهم النبي (ﷺ) في المنام وقال له : لقد رُوِيَ عنك أنَّكَ قُلْتَ : **شَيَّبَتْنِي هُودٌ وأخَوَاتُهَا** .. قال : (**نَعَمْ**) .. فقال : **يا رسول الله ، ما الَّذِي شَيَّبَكَ منْهَا ، قَصَصُ الأَنْبِيَاءِ وهَلاَكُ الأُمَمِ السَّابِقَة ؟!** .. قال : (**لا ، ولَكِنْ شَيَّبَنِي قَوْلُ الله تبارك وتعالى فيها : فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ**)[4]..

والاستقامة تعني : أن تكون عَالِمًا بِعِلْمٍ تحصل عليه من الاستماع ، وهذا هو : « عِلْمُ الدِّارَسة » الذي إذا عملت به قادك إلى : « عِلْم الوراثة » ..

---

[1] سورة العلق آية ٥ . [2] سورة البقرة آية ١٥١ . [3] سورة هود آية ١١٢ .
[4] تفسير القرطبي .

وقد أشاروا إلى قول الرسول (ﷺ) : (**مَا أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ آيَةً إلاَّ لَهَا ظَهْرٌ وبَطْنٌ ، ولِكُلِّ حَرْفٍ حَدٌّ ، ولِكُلِّ حَدٍّ مَطْلَعٌ**)[1] .. كما أشاروا إلى أن حُسْن الاستماع يورث الفهم ، والفهم يتفاوت بحسب السماع ، وبحسب معرفة العبد المستمع بقَدْر الكلام ، والمعرفة بقَدْر الكلام تتفاوت بحسب المعرفة بِقَدْر المتكلِّم ، ومعرفة قَدْرِ المتكلِّم تتفاوت بحسب قدر الفَهْم ، ووجوه الفَهْم لا تنحصر ، لأن وجوه الكلام لا تنحصر .. قال الله تعالى : (قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا)[2] .. ولكن كيف يتأتَّى الطريق إلى الفَهْم ؟ .. إنه يأتي من قول الله تبارك وتعالى : (ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)[3] ..

والاستجابة للرسول تكون بالظواهر ، في مثل : الصلاة ، والصيام ، والأكل ، والشرب ، والحركة ، والقيام ، والنوم ، والجلوس اتباعًا لقول الله تعالى : (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ)[4] .. **والاستجابة لله تكون بالبواطن** ، وحياة القلوب بمشاهدة الغُيوب ، ومشاهدة الغيوب هي الحياء من الله تبارك وتعالى برؤية التقصير ، وذلك بأن ترى نَفْسَك مقصِّرًا ، فإذا ما داومْت الذكر بقولك مثلاً : **الله نَاظِرٌ إِلَيَّ ، الله مُطَّلِعٌ عَلَيَّ ، الله شَاهِدٌ عَلَيَّ ، الله مَعِي** .. رأيت كم أنت مُقَصِّر ، وأورَثَتْك رؤية التقصير حياءً من الله ..

---

[1] رواه أبو عبيد في فضائله . [2] سورة الكهف آية ١٠٩ . [3] سورة الأنفال آية ٢٤ .
[4] سورة آل عمران آية ٣١ .

وكما أن الناس في الاستماع مختلفون ، فهم في العِلْم مختلفون ، وفي الفَهْم مختلفون ، وأيضًا في هذه الاستجابة مختلفون ..

والاستجابة على أربعة وجوه :

أولا : استجابة التوحيد .

ثانيا : استجابة التحقيق .

ثالثا : استجابة التسليم .

رابعا : استجابة التقريب .

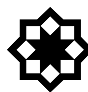
وكما أن النبي (ﷺ) طُولِبَ بحقائق الاستقامة ، فقد رأى علماء الآخرة الزاهدون أن الاستقامة أفضل مطلوب ، وأشرف مأمول ..

ولذا يقول الشيخ لمريده : **كُنْ طَالِبًا للاستقامة ، ولا تكن طَالِبًا للكَرَامَة ، فإن نَفْسَكَ مُتحرِّكة في طلب الكرامة ، وربُّكَ يطلب منْكَ الاستقامة** .. والله سبحانه وتعالى قد يفتح على بعض المجتهدين الصادقين من ذلك بابًا حتى يزداد يقينًا بما يرى من خوارق العادات ، وآثار القدرة فيقوى عزمه على الزهد في الدنيا ، والخروج من دواعي الهوى ، وقد يكاشف بعض عباده بِصِرْف اليقين ، ويرفع عن قلبه الحجاب ، ومَنْ كوشف بِصِرْف اليقين استغنى بذلك عن رؤية خوراق العادات ، ذلك أن المراد منها هو حصول اليقين ، وقد تم له بالفعل ..

وعليه فسبيل المريد الصادق هو مطالبة النفس بالاستقامة ، فهي كل الكرامة ، فإذا أُكْرِم بالقيام بواجب حق الاستقامة رُزِقَ سائر العلوم كعلم الحال ، والقيام ،

والخواطر ، واليقين ، والهوى ، والضرورة ، والتوبة ، والمراقبة ، والمحاسبة ... إلخ .. وعلوم هؤلاء القوم لا تحصل مع محبة الدنيا ، ولا تنكشف إلا بمجانبة الهوى ، ولا تدرس إلا في مدرسة التَّقْوى ، والله تعالى يقول : (وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ)[1] .. فجعل هذا العلم ميراث التقوى ، « فعِلْم الدراسة » كاللبن الخالص السائغ للشاربين .. و« عِلْم الوراثة » كالزُّبْد المستخرج منه .. فلو لم يكن لَبَنٌ لم يكن زُبْدٌ .. والإشارة هنا إلى العلم بالله تعالى ، وقوة اليقين ..

هذا .. وقد تفرَّد الصوفية الأوائل بأعمال صالحة ، وأحوال سَنِية ، وصدق في العزيمة ، وقُوَّة في الدِّين ، وزهدوا في الدنيا ، ومحبتها ، واغتنموا العُزْلَة ، والوحدة ، واتخذوا لأنفسهم زوايا يجتمعون فيها تارة ، وينفردون أخرى أُسْوَةً بأهل الصُّفَّة ، تاركين للأسباب ، مُتَبَتِّلِين إلى رب الأَرْبَاب ، فأثمر لهم صالح الأعمال سَنِيَّ الأحوال ، وتَهَيَّأ لهم صفاء الفُهُوم لقبول العُلُوم ..



---

[1] سورة البقرة آية ٢٨٢ .

العلم نوعان : علم فَرِيضَة ، وعلم فَضِيلَة ..

والفريضة : هي ما لا يتحقَّقُ الإسلام إلا بِهَا ، أو ما يوجبها حُكْم الإسلام ، وهي المأمورات والمنهيات .. **أما الفضيلة** : فهي ما زاد على ذلك مما يُكْسِب فضيلة في النفس تتَّفق مع الكتاب والسُّنَّة .. كقيام الليل ، وصيام النفل ، وصدقة السر ، وصنائع المعروف .. إلخ ..

وعلم الفريضة : قسمان ..

القسم الأول : وهو لازم ملازم للمُسْلم يتوجَّه إليه فيه الأمر والنهي ، ويجب عليه العلم به للقيام بحق واجب الإسلام ، والعمل به بحكم إسلامه .. **والأَمْر** : هو ما تُثَاب على فعله ، وتُعَاقَبُ على تَرْكِهِ .. **أما النَّهْي** : فهو ما تُعَاقَبُ على فِعْلِهِ ، وتُثَاب على تَرْكِهِ .. ومن أبواب علم الفريضة أركان الإسلام الخمسة ، فهي مفروضة على كل مسلم بالغ عاقل ، بشروط معينة ، وتفاصيل محدَّدة ..

والقسم الثاني : هو ما يَجِبُ العِلْمُ به حين تنشأ الحاجة إليه فلا يكون لازِمًا إلا بنشوء تلك الحاجة .. أي إن الأمر والنهي يتوجَّهان فيه عند وجود الظروف الموجبة ، وهنا يُصْبِحُ العلم به فرضًا لا يَسَعُ المسلمُ على الإطلاق أن يجهله ، وإنما عليه أن يسأل العلماء ليبيِّنوه له مثل أحكام الطلاق ، والرجعة ، والمواريث ، والبيوع ... إلخ ..

واختلف الصوفية في العِلْم الذي هو فريضة :

- فقال بعضهم : هو طلب علم الإخلاص ، ومعرفة آفات النفوس ، وما يُفْسِدُ الأعمال .. ذلك أن الإخلاص مأمور به ، كما أن العمل مأمور به .. قال تعالى : (وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ)[1] .. ولكن خِدَع النفس ، وغرورها ، ودسائسها ، وشهواتــها الْخَفِيَّة تخرب معاني الإخلاص المأمور به ، فصار عِلْمُ ذلك فرضًا حيث كان الإخلاص فرضًا ، وما لا يصل العبد إلى الفرض إلا به يصير فرضًا ..
- كذلك قال بعضهم : إن معرفة الخواطر ، وتفصيلها فريضة ، لأن الخواطر هي أصل الفعل ومبدؤه ومنشؤه ، ولا يصح الفعل إلا بِصحَّتها ، فأصبح عِلْمُ ذلك فَرْضًا حتى يصِحَّ الفعل من العبد ..
- وقال بعضهم : هو طلب علم الوقْتِ ، وطلب عِلْمِ الْحَالِ ، وطَلَبُ عِلْمِ الْحَلاَلِ ، وطلب عِلْمِ الباطن (وهو ما يزداد العبد به يقينًا) ، وهذا العلم يُكْتَسَبُ بالصُّحْبَة ، ومجالسة الصالحين ..
- كما قال بعضهم : هو طلب عِلْمِ التوحيد ، وطريقه النظر والاستدلال ، أو طريقه النقل والتقليد ..
- وقال بعض منهم : هو علم الفرائض الخمس التي بُنِيَ عليها الإسلام ..

وعلم السادة الصوفية هو : « علم الوراثة » ، ولكن منشأه : « علم الدراسة » ،

---

[1] سورة البينة آية ٥ .

« فعلم الدراسة » هو اللَّبَنُ الصافي السائغ شرابه – كما سبق أن ذكرنا – و« علم الوراثة » هو الزُّبْد المستخرج من هذا اللَّبن ، فإن لم يكن لبن لن يكون زبد ، لذلك فإن ما يقصد بِهَذه الآية : (وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ)[1] .. ليس هو « علم الدراسة » ، وإنما « علم الوراثة » الذي هو ميراث التقوى .. والتقوى أنواع ..

أولاً : تقوى الشرك :

وهذه يلزمها « علم دِرَاسَة » وهو علم : التوحيد ، والعلم بذات الله ، وبحقها ، والعِلْمُ بصفات الله ، وبأفعال الله ..

ثانيا : تَقْوَى المعَاصِي :

ويكون ذلك باتِّقاء ما يغضب الله ، وهو ما يستوجب معرفة الأمر والنهي ، وهو علم دراسة تتطلب دراسته أيضًا معرفة علم الخواطر ، وبه يفرق بين لَمَّة الْمَلَك ، ولَمَّة الشيطان : (إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ)[2] .. ويقول المصطفى (ﷺ) : (**إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً بِابْنِ آدَمَ ، وَلِلْمَلَك لَمَّةً .. فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ : فَإِيعَادٌ بِالشَّرِّ ، وَتَكْذِيبٌ بِالْحَقِّ .. وَأَمَّا لَمَّةُ الْمَلَكِ : فَإِيعَادٌ بِالْخَيْرِ ، وَتَصْدِيقٌ بِالْحَقِّ .. فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ [3] فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ ، فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ .. وَمَنْ وَجَدَ الأُخْرَى [4] فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**)[5] ..

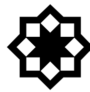
(1) سورة البقرة آية ٢٨٢ . (2) سورة الأعراف آية ٢٠١ . (3) أي لَمَّة الملك .
(4) أي لَمَّة الشيطان . (5) رواه الترمذي كتاب تفسير القرآن .

ثالثا : تقوى الأغْيَار :

وهى تَقْوَى أن يكون فى قلبك أغْيَارٌ ، فلا يكونُ فى قلبك إلاَّ الوَاحِدُ القَهَّار ، وهذه التقْوى يلزمها عِلْم اليقين ، وعلم المشاهدة ..

وهكذا نجد أن كل عِلْمٍ يلزمه عِلْمٌ .. وعلى سبيل المثال : فإن عِلْمَ « التَّوْحِيد » يلزمه عِلْمُ « الإخلاص » ، وعلم « الإخلاص » يتطلب علمًا آخر هو علم « الخالصة » ، فيصبح للإخلاص خالصة ، فالحق تبارك وتعالى يقول : (إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ)[1] .. فلكل إخلاص خالصة .. وإذا رُزِقْت خالصة الإخلاص صِرْت : مُخْلَصًا .. وشتَّان بين الْمُخلِص والْمُخْلَص ، ولتكون مُخْلَصًا لله يجب ألا ترى غير الله في عملك ، ولا تبتغي غير الله في كل ما تأتي وتَذَر ..

وإليك بيان الإخلاص ..



(1) سورة ص آية ٤٦ .

هو : فناء العبد عن رسومه ، برؤية قيامه بقيُّومه .. أو هو : أن تغْفَلَ عن رؤية الْخَلْق ، بدوام النظر إلى الْحَقِّ .. ومَنْ أخفى عَمَله عن الخلائق متعمِّدًا فقد رآهم ، وما غفل عنهم ..

فإذا رأى المخلص إخلاصه احْتَاج إخلاصُه إلى إخلاص ، لأن العبد إن رأى إخلاصه فقد أثبت نَفْسَه حيث وجب عليه أن يَفْنَى عن رسومه برؤية قيامه بقيُّومه ، فيكون نقصانُ إخلاص المرء برؤيتهِ إخلاصه .. فإذا أراد الله أن يخلِّص إخلاصَ امرىءٍ ، أسقط عنه رؤيَتَهُ لإخلاصه ، فكان مُخْلَصًا ..

فإذا لم تر إلا الله غفلت عمَّن سواه ، وإلا كان الإخلاص معلُولاً ، لذلك فقد قالوا : **إن رِيَاء العارفين أفضلُ من إخْلاصِ المريدين** [1] .. لأن إخلاص المريدين معلُول برؤية الإخلاص .. والحقيقة أن العارف مُنَزَّه عن الرياء الذي يبطل العمل ، فهو يكون مُتَجَرِّدًا ومتبرِّئًا من هذه الآفة ، وإنما قد يُظهر بعض عَمله .. وقد يكون إظهاره هذا العمل لجذب مريد ، أو إدخال الاطمئنان على قلب تابع .. والإخلاص فرع للصدق ، فالصدق أصل والإخلاص فرع ، وهو تابع ولا يكون إلا بعد الدخول في العمل ..

والإخلاص لا يكون للنفس فيه حَظٌّ بحال ، وهذا هو إخلاص العوام ، أما إخلاص الخواص فيتمثَّل في قيامهم بالطاعات وهم عنها بمعزل ، فلا يقع لهم

[1] حلية الأولياء لأبي نعيم .

عليها رؤية ولا يَعْتَدُّون بِهَا ، ولا يُعَوِّلُون عليها ..

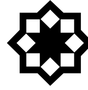
والمتحقِّق بالإخلاص يستوحش من ظهور أعماله ، وأحواله ، كما يستوحش العاصي من ظهور معصيته .. ويرقى في الإخلاص حتى يصل إلى أن يغيب فى إخلاصه عن إخلاصه ..

وللإخلاص علامات من بينها :

١- استواءِ المدح والذم من العامة .

٢- الفَنَاءُ عن رؤية الأعمال في الأعمال ، فلا يَغْتَرّ بعمله ولا يثق في قبوله .

٣- ترك اقتضاء ثواب العمل في الآخرة ، أي عدم التفكير في الثواب أو انتظاره ، فالعبادة واجبة ولو لم يكن هناك ثواب أو عقاب .



الذِّكْرُ عند الصُّوفِيَّة

يكون الذِّكْرُ على أربعة وجوه : ذكر اللسان ، ذكر القَلْبِ ، ذكر السِّرِّ ، ذكر الرُّوح ..

أولا : ذِكْرُ اللِّسان :

وهو ذكر العَادَة ، فقد يواظب اللسان على الذكر مع عدم مواطأة القلب للسان ..

ثانيا : ذِكْرُ القلب :

وهو ذِكْر الآلاء والنَّعْمَاء ، وذكر آثار الصفات (أي صفات الله عز وجل) ، فالقَلْب يمتلئ بذكر النعمة التي هى أثر الصِّفَة ..

ثالثا : ذِكْرُ السِّرِّ :

وهو ذِكْرُ الصفات ، وذكر الْهَيْبَةِ ، فإذا ذكرت صفة (الرَّحْمَة) رأيت هذه الصفة مجرَّدَة ، وهنا تحدث الهيبة من الله لأنك بدأت تذكر بِسِرِّكَ صفاته ، فإذا ارْتَقَى العبد في الذكر ، انتقل إلى ذكر الرُّوح ..

رابعا : ذِكْرُ الرُّوح :

وهو ذكر الذَّات العَلِيَّةِ نَفْسها ، وذكر المشاهدة ، ولا تعني المشاهدة أنك سوف ترى الله ، فهو لا تُدْرِكه الأبصار ، وإنما قد تعني الإحساس بوجوده عز وجل في كل آن وحين ..

طَوائِفُ الصُّوفِيَّة

● **الطائفة الأولى :**

طائفة يقولون بالْحُلُول : وهم طائفة لبسوا لباس الصوفِيَّة ، وتَزَيَّوا بزيِّهم ، وزعموا أن الله تبارك وتعالى يحل في أجساد يصطفيها .. وهم بذلك قد خرجوا على الشريعة الغرَّاء ، وقلَّدوا النَّصَارى فى قولهم باللاهوت والناسوت ، وادّعائهم أن الله تبارك وتعالى قد حَلَّ فى بعض الأجساد .. ومن هذه الطائفة الحلولية جماعة مشهورة كان يتزعمها رجل يقدم إليه أتباعه كل عام ما يعادل وزنه من الذهب والجواهر ، إذ كانوا يعتقدون أن الله قد حل فيه - والعياذ بالله - وهؤلاء قد انْخَلَعُوا عن الدِّين ، وما هم من الصوفِيَّة .. إذ يقول علماء التصوف : إن المصطفى (صلوات الله وسلامه وعليه) قد أتانا بشريعة بيضاء نَقِيَّة ، وعلَّمنا ما يجوز على الله تبارك وتعالى ، وما لا يجوز عليه ، وأنه سبحانه مُنَزَّه الذات ، لا يحل في سواه ، وليس فى ذاته سواه ..

● **الطائفة الثانية :**

وهؤلاء قد خلعوا عن أعناقهم ربقة التكاليف ، فخامر بواطنهم الزيغ والتحريف ، لأن كل عقيدة ردَّتْها الشريعة فهى (زَنْدَقَةٌ) ، ذلك أن الشريعة هي حق العبودية ، والحقيقة هي حقيقة العبودية : فمَنْ صار من أهل الحقيقة لابد أن يتقيَّد بحقوق العبوديَّة ، فيتحقَّق بالشريعة ، ويزيد عليها بما وصل به إلى الحقيقة ، بزيادات في الأعمال ، والمجاهدات تفوق ما وصل إليه العبد بالقيام بحق الشريعة ، فكيف يرفع

عنه التكليف ؟! .. وهؤلاء يدَّعون أن العبادات ما هي إلا رسوم لِمَنْ هم في بداية الطريق ، أما الواصلون فقد رُفِعَ عنهم التكليف .. أيُّ منطق هذا ؟! .. والنبى (ﷺ) - وقد غُفْرَ له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر - كان يقوم الليل حتى تتورَّم قدماه ، وحين سُئِل عن ذلك أجاب : (**أَفَلاَ أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا**)[1] ..

وأساتذة التصوُّف الذين أنشأوا هذا العِلْمَ يَصِفُون هؤلاء بالدَّجَل .. وسيدنا « عمر بن الخطاب » (رضي الله عنه) يقول للناس فى خلافته : (**إِنَّ أُنَاسًا كَانُوا يُؤْخَذُونَ بِالْوَحْيِ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّه** (ﷺ) ، **وَإِنَّ الْوَحْيَ قَد انْقَطَعَ ، وَإِنَّمَا نَأْخُذُكُمُ الآنَ بِمَا ظَهَرَ لَنَا مِنْ أَعْمَالِكُمْ ، فَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا خَيْرًا أَمَّنَّاهُ وَقَرَّبْنَاهُ ، وَلَيْسَ إِلَيْنَا مِنْ سَرِيرَته شَيْءٌ .. اللَّهُ يُحَاسِبُهُ فِي سَرِيرَتِهِ .. وَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا سُوءًا لَمْ نَأْمَنْهُ ، وَلَمْ نُصَدِّقْهُ ، وَإِنْ قَالَ إِنَّ سَرِيرَتَهُ حَسَنَةٌ**)[2] .. كما قال (رضي الله عنه) : (**مَنْ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِلتُّهْمَةِ ، فَلاَ يَلُومَنَّ مَنْ أَسَاءَ بِهِ الظَّنَّ**)[3] ..

● **الطائفة الثالثة :**

وهى طائفة لها مسميات عديدة : وهؤلاء لم يُظْهِروا خيرًا ، ولم يُضْمِرُوا شرًّا ، فقد تخلَّصوا من الغِلِّ والْحِقْدِ والْحَسَدِ والضَّغِينَة ، ولم يُضْمِرُوا فى قلوبهم ونفُوسهم شرًّا مطلقًا ، بل قاموا بالمجاهَدَاتِ ، وبالعبادات ، ولم يُظْهِرُوها لأَحَدٍ سَتْرًا لحالهم ، وغَيْرَة على عَزيز مَقَامِهم ، وهم - في طريقهم إلى الله وحُبِّهم لله - قد

---

[1] رواه البخاري كتاب الجمعة .
[2] رواه البخارى كتاب الشهادات .
[3] رواه ابن أبي الدنيا في الصمت .

ضنُّوا أن يَرَى حُبَّهُم أو وَجْدَهم أحَدٌ .. فستَرُوا أحوالهم ، وأعمالهم عن الخلائق ، وإذا ظهر بعضها – على الرغم منهم – استوحشوا منها كما يستوحش العاصي إذا ظهرت معصيته حتى إنه ليقال بشأنِهم : **إِنَّ الوَلِيَّ مِنْهُمْ يَسْتَحْيِي مِنْ كَرَامَتِه كَمَا تَسْتَحْيِي الْمَرْأَةُ مِنْ دَمِ حَيْضَتِها** .. وهم في سعيهم بجهدهم لطلب المزيد يجتهدون فيما يقرِّب العبد من رَبِّه ..

- **الطائفة الرابعة :**

طائفة ساحوا في طيبة قلوبهم : وهم لم يجتهدوا في الأعمال ، ولم يبذلوا المزيد ، وإنما اكتفوا بالفرائض ، وأخذوا بالرُّخَص دون العزائم ، وبالمقابل امتنعوا عن الدنيا ، ولذَّاتها .. بل عافوها ، ورفضوها ، فرضوا بالقليل من الْمُبَاح ، وليس عندهم تطلُّع إلى طلب مزيدٍ فوقَ ما هم عليه من طيبة القلوب ، وهم لا يبالون بما يُعْرَف من حالهم ، ولا يتقيَّدُون بِهَيْئة ، ولا يَنْعطفون إلا على طيبة قلوبِهم التي هي رأس مالهم ، أي إنَّهم راضون بما هم فيه من حال سواءً أكان حال دنيا ، أم حال أخرى .. وهذا الصنف على خير ، وينسب إلى الصوفية ، ولكن لا يصلح للمشيخة في نظرهم ..

- **الطائفة الخامسة :**

فئة الصوفية : فعلى الرغم من أن السادة الصوفية يُقرُّون بالطائفتين الأخيرتين إلا أنَّهم لا يرون فيهما المقام المأمول ، والذي يتمثَّل في الصُّوفِيّ الحقيقي ، وهو ذلك الذي يَسْتُر ما ينبغي أن يُسْتَر ، ويُظْهِرُ ما ينبغي أن يَظْهَر ، فهو في صَحْوٍ

دائم ، يتَّصف بكمال التوحيد ، وصفاء المعرفة ، وقُوَّة اليقين ، يتصرَّف بعِلْم ، ويدبِّر أحواله وأعماله بعِلْم ، وهو يأتي بالأمُور في مواضعها بحضور عَقْل ، وصحَّة توحيد ، وكمال معرفة ، ورعاية صدق وإخلاص .. وهو الذي سَلَكَ طريق القوم ، ومجاهداتِهم ، وتقلَّب في أحوالهم ، ومقاماتِهم ، حتى أوْرَثه صلاحُ الأعمال صفاءَ الأحوال ، وأصبح لديه صفاء الفهوم لتلقِّي أسرار العُلُوم ، يضع الخَلْقَ مقامهم ، ويضع الحَقَّ مقامه ، فإن كان فقيرًا فلن يَسْعَى إلى الغِنَى ، وإن كان غَنِيًّا فلن يَسْعَى إلى الفَقْر ، لأنه استوى لديه الذَّهَبُ والْمَدَرُ ، فإذا زهد فليس زهده أن يتخلَّص من الأشياء ، وإنما زُهْدُه ألاَّ تتملكَهُ الأشياء ، لا يختار لنفسه ، وإنما يستسلم لاختيار الله ، فلا يقوم بنفسه ، وإنما قيامه وقوامه بالله ..

- **الطائفة السادسة :**

يقول بعضهم : أنا كالباب لا أتحرَّكُ إلاَّ إذا حُرِّكْتُ ، أُفْتَحُ ، وأُغْلَقُ بِمَنْ يَفْتَحُنِي ، ومَنْ يُغْلِقُنِي ..

ولما سُئِل « سَهْل التَّسْتُرِي » – وهو من كبار الصوفية – عن ذلك أجاب : إن هذا القول قد يقوله صِدِّيقٌ ، وقد يقوله زِنْدِيق : وإنما العِبْرَةُ بالنِّيَّة ، والطَّوِيَّة .. فإن كان القول لإسقاط اللائمة عن نَفْسِهِ ، فقد انْخَلَعَ عن الدِّين ، ورَسْمِهِ ، فهو زِنْدِيقٌ ، وذلك كقول الكفَّار كما حكى عنهم القرآن : ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا ﴾(١) .. وهو قول حق ولكن لأن الله تعالى أعلم بنيَّتِهم فهو يقول :

---

(١) سورة الأنعام آية ١٤٨ .

﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾[1] .. وتكذيب هؤلاء هو في محاولتهم إسقاط اللاَّئِمَة عن أنفُسِهم ، وتحميلها لله جل وعلا ..

كذلك هم يرتكبون المعاصي ، والمحظورات ، تحت دعوى أن الحق تبارك وتعالى قد كتب عليهم هذا ، محاولةً منهم أيضًا لإسقاط اللَّوم عن أنفسهم .. أما الصِّدِّيق فهو يُرْجِع الأمر كلَّه لله ، فقوام الأشياء عنده بالقيُّوم ، ومردُّ الأمور إلى الله : ﴿ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ ﴾[2] .. ﴿ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ ﴾[3] .. فَمِنْهُ ، وإِلَيْهِ ، وهو الفعَّال لِمَا يُرِيدُ ، ولا يقع في مُلْكِه إلاَّ ما يُرِيدُ ، فهو إذن يعترف أنه ما من حَرَكَةٍ ، وما من سُكُون إلا من الله لكنه مُقرٌّ بذنبِه ، معترِفٌ بتقصِيرِه ، فما أصابه من خير فمن الله ، وبفضل الله ، وما أصابه من شَرٍّ فمن نَفْسِهِ ، وبعَدْلِ الله ، وهو متقلِّب بين الفضل والعَدْل .. وكلٌّ من عند الله ، فالمعصية كتبها الله ، وأرادها .. والطاعة كتبها الله ، وأرادها .. فإن كانت طاعة فهي محض فضل من الله ، وإن كانت معصية فهي بسوء طويَّة العَبْدِ ، وهي بعَدْل الله وإرادته : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾[4] .. فإن أخْطَأَ استغْفَرَ ، وتَابَ ، وأَنَاب .. وإن أصَابَ نَسَبَ الفضل إلى الله فشكره ، وحمده .. والإمام « الشافعي » (رحمه الله) يقول :

---

(1) سورة الأنعام آية ١٤٨ . (2) سورة هود آية ١٢٣ . (3) سورة السجدة آية ٥ .
(4) سورة فصلت آية ٤٦ .

مَــا شِئْتَ كَــانَ وإِنْ لَمْ أَشَــأْ　　وَمَا شِئْتُ إِنْ لَمْ تَشَــأْ لَمْ يَكُنْ
خَلَقْتَ العِبَــادَ عَلَى مَــا عَلِمْتَ　　فَفِي العِلْمِ يَجْرِي الفَتَى والْمُسِنّ
عَلَى ذَا مَنَنْتَ ، وهَــذَا خَذَلْتَ　　وذَاكَ أَعَنْــتَ ، وذَا لَــمْ تُعِــنْ
فَمِنْهُمْ شَقِــيٌّ ، ومِنْهُم سَعِيــدٌ　　ومِنْهُمْ قَبِيــحٌ ، ومِنْهُمْ حَسَــن

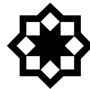
ويقول أيضًا :

تَمُوتُ الأُسْدُ فِي الغَابَات جُوعًا　　ولَحْمُ الضَّــأْن تَأْكُلُهُ الْكِــلاَبُ
وذُو عَبْـــدٍ مَفَارِشُــهُ حَرِيــرٌ　　وذُو نَسَــبٍ مَفَارِشُــهُ التُّــرَابُ
وذُو جَهْــلٍ يُؤَانِسُــــهُ غَــزَالٌ　　وذُو عِلْــمٍ يُؤَانِسُــــهُ الغُــرَابُ
حُظُــوظٌ قُسِمَــتْ أَزَلاً ، فَسَلِّمْ　　ولاَ تَجْحَدْ ، بِذَا نَطَقَ الكِتَــابُ

فالحق تبارك وتعالى يقول : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ ﴾[1] ..

فالأمر أمر الله ، ولذلك يقول بعضهم :

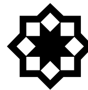
لاَ الأَمْرُ أَمْرِي ولاَ التَّدْبِيرُ تَدْبِيرِي　　ولاَ الأُمُورُ الَّتِي تَجْرِي بِتَقْدِيرِي
لِي خَالِقٌ رَازِقٌ مَــا شَاءَ يَفْعَلُ بِي　　أَحَاطَ بِي عِلْمُهُ مِنْ قَبْلِ تَصْوِيرِي



(1) سورة الزخرف آية ٣٢ .

الكَشْفُ عند الصُّوفِيَّة

حين تكلَّموا عن العلوم قالوا : إنَّ الظَّاهِرَ هو « عِلْمُ الدِّرَاسَة » .. والباطن هو « علم الوِرَاثَة » الذي يُسمى بالكَشْف ، وهو فراسة المؤمن الذي ينظر بنور الله ، ومَنْ رُزِق الكشف يستحيل أن يُظْهِرَه ، كما يستحيل أن يعامل الناس بكشفه لأنه لو فعل ذلك لأظهر سِرَّ الله الذي هو بينه وبين رَبِّه .. وتتلخَّص فائدة الكشف بأنه حين ينطبق الكشف مع ظاهر الناس يطمئِنُّ صاحب الكشف لحاله ، كما أن هذا الكشف يفيد مُرِيديه ، فالشيخ مع مريده كالأب مع الولد يراعيه ويربيه ومن كل عائبة ينقيه .. فمن رُزِقَ الكشف من السادة الشيوخ يتعرَّف أحوالَ المريد : فينقيه ، ويداويه ، ويرقِّيه ، مِن دون أن يشعر المريد ، والشيخ هنا كالطبيب عندما يكشف على المرضى ، فمنهم مَنْ يتحمَّلُ أن يُصارَح بمرضه وبعلاجه ، ومنهم مَنْ لا يتحمَّل ، فإذا كان المريض قويًّا ، وعنده رغبة في الشفاء تحمَّل ، وإن كان ضَعِيفًا فقد يطغي عليه الوَهْمُ ، ولا يُقْصَدُ بالكشف مطلقًا الفَضْحُ ، فالشيخ مُؤْتَمَنٌ على مُرِيدِه وسِرِّه ..



تَقْسِيمُ النَّاس فى الطَّرِيق الصُّوفِي

ينقسم الناس في الطريق إلى أربعة أقسام :

١- **المجذوب المجرَّد** : وهو من كشف الله تبارك وتعالى له بعض الحِجَاب ، ورَزَقَهُ شيئًا من نور اليقين ، فَجُذِبَ إلى الله تبارك وتعالى فأحبَّه ، ولكنه لم يسلك إلى الله بالمكَابَدَة ، أو المجاهَدَة ، أو المعاناة ، وإنما اكتفى بذلك النور الذي مُنِح له ، وأقام على الفَرائِض فقط ، ومثله كمثل الفئة التي ساحت في طيبة قُلُوبِها ، فهو لا يصل إلى رُتْبَةِ المشيخة .

٢- **السالك المجرَّد** : وهو الذي جَاهَد ، وسَلَكَ الطريقَ إلى الله تبارك وتعالى ، ولكن لم يُكْشَف له شَيْءٌ ، فهو ما زال في دائرة الأعمال ، و لم يدخل في دائرة الأحوال ، فهو عابد ، وقد يغار على أعماله فيحاول أن يُخْفِيها .. وهو بسلوكه وجهاده يصل إلى رضاء الله تبارك وتعالى ، ولكن لا يُكْشَف له شَيْءٌ ، ولا يُكْشَف له حِجَابٌ ، ولا يُمْنَح من أنوار اليقين .. وهو أيضًا لا يصل إلى رُتْبَةِ المشيخة .

٣- **السالك المجذوب** : وهو السالك الذي تُدُورِك بالجذبة ، وهو يسلك طريق المجَاهَدة ، والمكابَدَة ، والعَنَاء ، ولكنه مُصِرٌّ ، وصَادِقٌ ، ومُخْلِصٌ ، ومُحِبٌّ .. مُتتلمِذٌ آخذ من الشيوخ ، مُوَاظِبٌ على صُحْبَتهم ، مُقْتَدٍ بهم ، فإنه ينطبق عليهم قول الحق : (أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ) [1] والذين جاء

---

[1] سورة الأنعام آية ٩٠ .

فيهم خبر عن رسول الله (ﷺ) : (**إِنَّ أَحَبَّ عِباد اللَّه إِلَى اللَّه : الَّذِينَ يُحَبِّبُونَ اللَّهَ إِلى عِبَادِه ، ويُحَبِّبُونَ عِبادَ اللَّه إِلَى اللَّه ، ويَمشُونَ فِي الأَرْضِ بالنَّصِيحَة**)[1] ..

والطريق إلى حُبِّ الله هو اتِّبَاع سيدنا رسول الله (ﷺ) لقول الله عز وجل : (قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ)[2] .. وبالتالي تصبح وظيفة الشيخ مع المريد أن يحبِّبه في الله بأن يضعه على الطريق السليم ، ويقوده إلى اتِّباع رسول الله (ﷺ) والاقْتِدَاء به ، فيصل بذلك إلى حُبِّ الله تبارك وتعالى ..

والمريد الذي أراد الطريق إلى الله تبارك وتعالى يجاهد ، ويُعَاني ، ويكابد بِصِدْقٍ ، وإخْلاَصٍ ، وتَوَكُّلٍ ، ويَقِين ، وباقْتِدَاءٍ كامل بالشيخ وانجذاب كامل إليه .. لا إرادَة له مع شيخه ، ذلك أن خروجه عن اختياره مع شيخه يمهِّد لخروجه عن اختياره مع الله ، فلا إرادة له مع إرادة شيخه ، ولا رأي له مع رأيه ، ولا يبدأه بالخطاب ، ولا يعترض عليه ، ولا يقترح عليه ، بل يستسلم له تمامًا .. وبِهَذا الأسلوب يصل المريد السالك إلى أن يُجْذَب : أي يمنحه الله تبارك وتعالى الصَّفَاءَ ، والْحُبَّ ، واليقِينَ ، فإن حدث هذا أصبح مهَيَّأً لأن يكون شيخًا بشرط أن يأذن له شيخه بذلك بعد فطامه ..

مما تقدَّم يتبين أن الشيخ لابد أن يكون سالكًا ، مُرِيدًا ، مُحبًّا حتى يَصِلَ إلى رُتْبَة الْمَشْيَخَة ، ولا يُعَطِّلُه إلا شيء واحد : أن يكون مَحْكُومًا بالْحَالِ ، أي أن

---

[1] رواه أبو الشيخ عن الحسن .
[2] سورة آل عمران آية ٣١ .

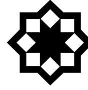
يكون حالُهُ مُتَحَكّمًا فيه ، فلا يستطيع أن يخرج من ربقة الحال ، ولا يَصِل إلى كمال النوال .

٤- **الْمُرادُ الْمَحْبُوبُ أو الْمَجْذُوبُ السَّالِكُ** : وهو من اصْطَفَاه الله منذ البداية ، فهو تعالى يَجْتَبِي إليه مَنْ يشاء ، فالبداية تكون حُبُّ الله له ، واصطفاؤه ، واجتباؤه ، فيكشف له الحجاب ، وينوِّر قلبه بنور اليقين ، فيصل إلى مرتبة عالية قبل أن يعمل أي شيء ، وبلا كسْب منه ، وبلا عمل ، وبلا مُجَاهدة ، أو مُكَابَدَة ..

وهذا المجذوب السالك إذا وصل إلى رتبة المشيخة ، كان هو الشيخ المطلق ، والعالِم المحقِّق ، والمحبوب الْمُعْتَق ، وهو لا يتحكَّم فيه الحال ، وإنما هو متحكِّمٌ في الحال ، ويقوم بالله لا بِنَفْسِه ، فقد أُطْلِقَ من رِقِّ الأحْوَال ، ومن رِقِّ النَّفْس ، ومن رِقِّ القَلْب ، فهو قائم بِقَيُّومِهِ سبحانه وتعالى ، وفَانٍ عن سلوكه ، ورسومه .. فإذا تصرَّف تصرَّف بالله ، وإذا نطق نطق بالله ، وإذا سكت سكت بالله ، وإذا أعْطَى أعْطَى بالله ، وإذا مَنَعَ مَنَعَ بالله ، فليس لِمُرَادِهِ شَيْءٌ ، وإنما هو بمراد الله ، والله تعالى يُعَرِّفه بِمُرَاده ، فإذا أراد الله له أن يقوم مقامًا محمودًا في عمل ما ، قام فيه ، لا لأنه محمود ، ولكن لأنه مراد لله .. وهذا هو أكبر مقام للصُّوفِيَّة ، وأعلى رُتَبِ الْمَشْيَخَة ..

ولكن لَمَّا كان الظاهر لابد أن يوافق الباطن ، ولَمَّا كانت الناس تُؤخذ بظواهرها ، كان لابد أن يُرَدَّ إلى دائرة الأعمال ، والمثال على ذلك نبيُّنا (ﷺ) فقد اصْطُفِيَ أوَّلاً ، وأُخِذَ ، وجُذِب ، ثم رُدَّ إلى عالَم الأعْمَال .. فقيل له في البداية :

(ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ)[1] .. ولَمَّا رُدَّ إلى دائرة الأعمال قيل له : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢)[2] .. ثم قيل له : (قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلاً)[3] .. (وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلاً)[4].. (فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ)[5].. وهو (ﷺ) لَمَّا رُدَّ إلى دائرة الأعمال لم يفعل ذلك بمكابَدَة ، وعَنَاء ، وإنما بالْتذَاذ ، وهَنَاء ، فكان يقول : (**وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاَةِ**)[6] فكان يُصَلِّي بلذَّة ، في حين كان البعض يصلُّون بمكابدَة ، وعَنَاء ، ذلك أن السالك المجذوب يكابد ، ويجاهد ، أما المجذوب السالك فهو يُقْبِلُ على الأعمال بلذَّة ، لا بمشقَّة ..



---

(1) سورة العلق آية ١ . (2) سورة المدثر الآيتان ١ ، ٢ . (3) سورة المزمل آية ٢ .

(4) سورة المزمل آية ٨ . (5) سورة النصر آية ٣ . (6) رواه النسائي كتاب عِشْرة النساء .

رُتْبَةُ الْمَشْيَخَة

تُعَدُّ «رُتْبَةُ الْمَشْيَخَة» من أعالي الرُّتَب في طريق الصوفية ، ونيابة عن النبوَّة في الدعاء إلى الله .. ووظيفة الشيخ أن يَسْلُكَ بالمريد طريق الاقتداء برسول الله (ﷺ) ، فالشيخ من جنود الله ، يُرْشِدُ به المريدين ، ويَهْدي به الطالبين ، وبه يتأدَّب المريدون ظاهرًا وباطنًا ، ذلك أن المشايخ لَمَّا اهتدوا أُهِّلُوا للاقتداءِ بِهِم ، وجُعِلوا أئمة للمتقين ..

والسالك إلى رُتْبَةِ الْمَشْيَخَة ، مأمور بسياسة النَّفْس ، مُبْتَلى بصفاتِهَا ، فلا يزال يسلك بصدق المعاملة حتى تطمئن نَفْسُهُ ، وتفيء إلى أمر الله ، وتقوم نفوس الطالبين ، والمريدين ، والصادقين عنده مقام نَفْسِه لوجود التَّشَابُه بين النفوس من ناحية ، ولوجود التآلف بين الشيخ والمريد من ناحية أخرى بالتأليف الإلهي ، فيقوم الشيخ بسياسة نفوس المريدين كما كان يسوس نَفْسَه من قبل ..

ومَنْ يصلح للمشيخة فهو :

إما المريد السالك الذي كانت بدايته المجاهَدَة ، والمكابَدَة ، والمعاملة بالإخلاص ، والوفاء بالشروط ، ثم أُخْرِجَ من وهج المكابَدَة إلى رُوح الحال ، فوجد العسل بعد العَلْقَم ، وتروَّح نَسَمَات الفَضْل ، وبَرَزَ من مضيق المكابَدَة إلى مُتَّسَعِ المساهَلَة ، وأُونِسَ بنَفَحَاتِ القُرْبِ ، وفُتِحَ له بابُ الْمُشَاهَدَة ، فوُجِدَ دَواؤُه ، وفاض وِعَاؤُه ، وصدرت منه كلمات الحِكْمَة ، ومَالَتْ إليه القلوب ، وتوالت عليه فتوح الغَيْب ، وصار ظاهِرُه مسدَّدًا ، وباطنه مشاهدًا ، وصلح للجَلْوَة ، وصار له في جَلْوته

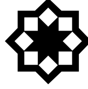
خلوة ، فيَغْلِب ولا يُغْلَب ، ويَفتَرِس ولا يُفتَرَس ، ويكثر أتباعه ، وينتقل إليهم منه عُلومه ، ويظهر بطريقه بركة ، ولكن قد يكون محبوسًا في حاله ، فلا يطلق من وثاق الحال ، ولا يبلغ كمال النوال ..

وإما المحبوب المراد أو المجذوب المتدارك بالسلوك الذي يبادِئُهُ الحق بالكشوف ، وأنوار اليقين ، ويرفع عن قلبه الْحُجُب ، ويستنير بأنوار المشاهدة ، وينشرح وينفسِحُ قَلْبُه ، ويتجافى عن دار الغُرُور ، ويُنِيب إلى دار الْخُلُود ، ويرتوي من بحرِ الحال ، ويتخلَّص من الأغلال ، والأعلال ، ثم يفيض من باطنه على ظاهره ، وتجري عليه صورة المجاهدة ، والمعاملة من غير مكابدة ، ويصير قالبه بصفة قلبه ، لامتلاء قلبه بِحُبِّ رَبِّه ، ويلين جِلْدُه كما لاَنَ قَلْبُه ، وعلامة ذلك أن تكون إجَابَة قالبه للعمل كإجابة قَلْبِه ، ويزيده الله إرادة ، ويرزقه مَحبَّة خاصة ، وعند ذلك يُطْلَقُ من وثاق الحال ، فيصير حُرًّا من كل وجه ، فهو حُرٌّ من رِقِّ النفس ، والقَلْب ، فصار لرَبِّه لا لنَفْسِه ، ولا لقَلْبِه ، ولموَقّته ، لا لوقْته ، فعَبَدَ الله حقًّا ، وآمن به صِدْقًا ، يسجد لله سوادُه ، وخيالُه ، ويُؤمِنُ به فُؤَادُه ، ويُقِرُّ بِهِ لسانُه ، وتَصِيرُ عبادته مشاكِلَةً لعبادة الملائكة ..

ومَنْ صح في هذا المقام الأخير الذي وصفناه فهو الشيخ الْمُطْلَق ، والعارف المحقِّق ، والمحبوبُ الْمُعْتَقُ ، نظره دَوَاء ، وكلامه شِفَاء ، بالله ينطق ، وبالله يصمت .. بالله يعطي ، وبالله يمنع ..

وأما المريد فهو مُبَشَّر بقول رسول الله (ﷺ) : (**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ الْمَلائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا**

لِطَالِبِ الْعِلْمِ ، وَإِنَّ طَالِبَ الْعِلْمِ يَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ حَتَّى الْحِيتَانِ فِي الْمَاءِ ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ .. إِنَّ الْعُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ .. إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا ، إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ)[1] ..



(1) رواه ابن ماجه في المقدمة .

للسَّادَة الصُّوفِيَّة عِلْمُ تَشْرِيحٍ للباطن ، فهم يرون أن الإنسان له رُوح ، وله قَلْبٌ ، وله نَفْسٌ .. أما الرُّوح فهي من نَفْخِ المولى عز وجل : (فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا)[1] .. وأما النَّفْس فهي من الأرض ، وهي محل الْهَوَى .. وأما القَلْبُ فهو محل العِلْم والفِقْه .. وأما العَقْلُ فهو لسان الرُّوح ، وترجمانـــها ، فلا ينطق ، ولا يترجم إلا بما يُعطيه الروح ما يُتَرْجِمُ عنه ، وليس كل ما يُتَرْجَمُ عنه يُنْقَل إلى اللسان ..

وحين خلق الله تبارك وتعالى « آدم » (عليه السلام) خلقه من تراب الأرض ، وعلَّمه الأسماء كُلَّها ، ونَفَخَ فيه من رُوحه ، فأصبح مزاجًا من قَلْب وقالب ، وأصبح موطِنًا للعِلْم كُلِّه إلى أن تقوم الساعة ، فأصبح العِلْمُ في رُوح « آدم » ، ولكون الإنسان من الأرض فإن فيه الْهَوَى ، وفيه النَّفْس ، وفيه الطبع ، وفيه النسيان ، وفيه المعصية .. وقلب الإنسان يَعْلُوهُ الرُّوح ، وبأسْفَله النَّفْس ، والقلب مفتوحٌ من أعلى ، ومن أسفل ، وله بابان ، فإذا فُتِح الباب العُلْوِي تلقَّى القلب من أعلى .. والعكس بالعكس ، وتكون العِبْرة بأيهما يُسْبَق فَتْحُه ، فإذا فُتِح البابُ السُّفْلِيُّ أوَّلاً أخذ القلب من النَّفْسِ : (إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ)[2] .. فالنَّفْس موطن الطَّبْع ، وموطن الجبلة .. موطن الْهَوَى ، وموطن الشهوة .. موطن النسيان ، وموطن السهو .. موطن المعصية ، وموطن السوء ..

---

[1] سورة التحريم آية ١٢ .

[2] سورة يوسف آية ٥٣ .

وإذا فُتح البابُ العُلْوِيُّ فُتح على الرُّوح ، وهي موطن النور : (قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّى)[1] .. ولأن الرُّوح نَفْخَةٌ من رُوح الله تبارك وتعالى ، وهي التي تشاهد الْمَلكُوت ، وهي التي تستَنْزِلُ بركات الرَّغَبُوت والرَّهَبُوت [2] ، ولأنَّ الرُّوح هي مَوئِل النعم ، وموطن المواهب ، فإنه إذا فُتِح الباب السُّفْلِيّ – وهو يُفْتَحُ لأَعْلَى – طلعت من النفس أبخرة تملأ القلب ، وتُظْلِمه ، وتضغط على الباب العُلْوِيّ وهو يفتح لأسفل ، وبالتالي ينفصل القلب عن الروح فلا يأخذ منها .. ولتقريب ذلك نتذكَّر قول الرسول (ﷺ) : (**إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ** [3] ، **فَإِذَا هُوَ نَزَعَ** [4] **وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ** [5] **قَلْبُهُ ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ** : (كَلَّا ۖ بَلۡ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ)[6])[7] .. ونلاحظ أنه قد تلا ذلك مباشرة قوله تعالى : (كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٍ لَّمَحۡجُوبُونَ)[8] .. إذن فهذا الاسوداد يَحْرِم القلبَ اليقين ، ويَحْرِمُه لذة المشاهدة .. فما العمل إذن ؟! .. فإذا ما تحرَّكت نَفْسُ العَبْدِ ، وأذنب نُكِتَ في قلبه نكتة سوداء ، ولكنها تُمْحَى باسْتِغْفَاره ، وكذلك فالحسنات يُذْهِبْنَ السيئات ، والوضوء يسقط الذنوب ، والصلاة تسقط الذنوب ، ومن رمضان إلى رمضان

---

(1) سورة الإسراء آية ٨٥ .

(2) الرغبوت : الضراعة والمسألة ، والرهبوت : الخوف .

(3) أي جُعِل في قَلْبِه أثر قليل كالنُّقْطَة شَبَهُ الْوَسَخِ فِي الْمِرْآةِ وَالسَّيْفِ ونحوهما .

(4) انتهى عن ارتكاب المعاصي .

(5) السقل : الصقل ، والمعنى : نَظَّفَ وَصَفَّى مِرْآةَ قَلْبِهِ .

(6) سورة المطففين آية ١٤ .

(7) رواه الترمذي كتاب تفسير القرآن .

(8) سورة المطففين آية ١٥ .

كفَّارة لمَا بينهما ، والحج والعمرة ينفيان الذنوب ، ويقول (ﷺ) : (**تَابِعُوا بَيْنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ ، فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ**)[1] ..

وبالتالي كان على العَبْدِ أن يُجَاهِدَ ، ويُكَابِدَ ، ومع استمراره في ذلك ، تتحوَّل النفس من نَفْسٍ أمَّارة بالسوء إلى نَفْسٍ لوَّامة تخطئ وتندم ، فإذا انتصر على نَفْسِه ، ولقَّنه شيخه ، وعلمه الاتِّباع ، والاقْتِدَاء .. فبمواظبته مع الشيخ يُعْرَفُ دواؤه ، ويفيض وعاؤه ، فتصبح النفس بعد ذلك نَفْسًا مطمئنَّةً .. ولنفهم كيف يكون ذلك : علينا أن نتذكَّر أن القلب إذا خَلاَ من الأبْخِرَةِ بالمجاهدة يُغْلق بابَ النَّفْس ، وبالإسراع بإزالة ما قد يتسرَّب إلى القلب يحدث فراغ فيه .. هذا الفراغ يسمح للباب العُلْوِيّ بالانفتاح – على رغم منه – فَيَنْزِل من الرُّوح نُورٌ ، وبتوالي ذلك يأتي حين لا ينفتح فيه الباب السفلي قَطُّ ، وينفتح الباب العلوي تمامًا فتَنْزِل الأنوار الإلهية ، والفتوحات الربَّانية على القلب فتملؤه وتنوِّره مصداقًا لقول الله تعالى : (إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)[2] .. وقوله : (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)[3] .. فتبدأ المشاهدات ، ويمتلئ القلب بالنُّور ، ويحدث به ضغط شديد لابُدَّ له من منفذ ينفث فيه هذا الضغط ، فيفتح الباب السفلي – على رغم منه – ولكنه يفتح لأسفل هذه المرة ، فَيَنْزِل هذا النُّور على النَّفْس فيغْسلُها ، ويطهِّرُها ، وينظِّفها ، ويَقْلِبُها من نَفْسٍ أمَّارَةٍ بالسُّوءِ إلى نَفْسٍ مُطْمَئِنَّة .. وهنا يكون قد أصبح شيخًا ، ويكون قد انتقل من مرحلة المجاهدة والعناء ، إلى لذَّة الأحوال ، ويصبح صاحب حَالٍ ، وصاحب نُورٍ ، وصاحب

---

[1] رواه النسائي كتاب مناسك الحج . [2] سورة الشعراء آية ٨٩ . [3] سورة ق آية ٣٧ .

يَقين ، وصاحب كَشْف ، ويصبح ظاهرُه باطنَه ، وباطنُه ظاهرَه ، وأوَّلُه آخرَه ، وآخِرُه أوَّلَه ، وقُدْرَتُه حِكْمَتَه ، وحِكْمَتُه قُدْرَتَه ، وتنفتح الأولى على الآخرة ، والآخرة على الأولى .. وهذه هي الطريقة التي يصل بِهَا السالك المريد المحب إلى رتبة المشيخة ..

أما بالنسبة إلى المراد الْمَحْبُوب أصلاً فيستند بعض الصوفية إلى قول سَيِّد الخلق (ﷺ) : (**أَتَانِي رَجُلاَنِ عَلَيْهِمَا ثِيَابٌ بَيَاضٌ ، مَعَهُمَا طَسْتٌ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءَة ثَلْجًا ، فَأَضْجَعَانِي ، فَشَقَّا بَطْنِي ، ثُمْ اسْتَخْرَجَا قَلْبِي فَشَقَّاهُ ، فَأَخْرَجَا مِنْهُ عَلَقَةً سَوْدَاء ، فَأَلْقَيَاهَا ، ثُمَّ غَسَلاَ قَلْبِي وبَطْنِي بِذَاكَ الثَّلْج ، حَتَّى إِذَا أَنْقَيَاهُ ، رَدَّاهُ كَمَا كَانَ**)[1] .. ويعلِّلون ذلك بقولهم : إنه حين أتى الشيطان لغواية البشر سأل الله تبارك وتعالى أن يُدْخلَه قلبَ ابن آدم فمنعه وقال له : ما وسعَتْنِي أرْضِي ولا سَمَائِي ، ووَسِعَنِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمن .. **وقولهم هذا ليس له أصل لا في كتاب الله ، ولا في السنة الصحيحة** .. فمَنْفَذ الشيطان إلى الإنسان هو مجاري العُرُوق ، إذ يقول رسول الله (ﷺ) : (**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ**)[2].. ولَمَّا ضاقت عليه العُرُوق ، عَرَقَ من ضيق الْمَسْلَك فاختلط عَرَقُه بالدَّم ، فوصل إلى القلب عن هذا الطريق ..

أما بالنسبة إلى الشيخ فإنه في بدايته محبوب مُرَاد اصطفاه الله واجْتَبَاه ، وأعطاه من كشف الْحُجُبِ ، ومن نور اليقين ، فامتلأت رُوحه بالمشاهدات ، وتَنَزَّلَ كل ما في هذه الروح على القلب ، فَسَدَّ مسلك الشيطان ، ودخل في

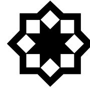
---

[1] رواه ابن اسحاق في سيرته .

[2] متفق عليه .

الْحِرْزِ ، والأمان مصداقًا لقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾[1] .. فأضاء القلب بنور اليقين ، فنَزَل على النفس فاطمأنَّتْ ، فَلاَنَ قَلْبُه ، ولاَنَ جلْدُه ، كما جاء في قول الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ ﴾[2] ..

وهذا العبد لا يجاهد ، ولا يُعاني ..



---

(1) سورة الحجر آية ٤٢ .

(2) سورة الزمر آية ٢٣ .

على المريد الذي يَسْلُكُ هذا الطريق أن يخرج من الإرادة والاختيار ، ويُحَكِّم الشيخ ، والتحكيم سائغ في الشرع لمصالح دنيوية ، فما بالنا إذا كانت المصالح دينية ؟! فالشيخ يرشده ويَهْدِيه ، والله تبارك وتعالى يقول : (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا)[1] .. والآية تشترط التسليم ، وهو الانقياد ظاهرًا ، وكذلك تشترط نفي الْحَرَج ، وهو الانقياد باطنًا ..

وعلى المريد أن يطيع الشيخ طَاعَةً مُطْلَقَة ، ويثق به ثِقَةً مُطْلَقَة ، وينقاد له ظاهرًا ، وباطنًا ، ولا يكذب على شيخه أبدًا ، وإلا غضَّ الشيخ الطرف عنه ، ووضع حجابًا بينه وبين المريد ، فلا يصل إليه الْمَدَدُ ، ولا البركة .. فقد سُئِلَ رسول الله (ﷺ) : **يا نبي الله ، هل يزني المؤمن ؟!** قال : **قد يكون ذلك** .. قِيلَ : **يا رسول الله ، هل يسرق المؤمن ؟!** قال : **قد يكون ذلك** .. قيل : **يا نبي الله ، هل يكذب المؤمن ؟!** قال : **لا** .. ثم أتبعها (ﷺ) بقول الله تعالى : (إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ)[2] .. [3]

وهناك خَطَرٌ بالغ على المريد وهو ما يُطْلَق عليه : « سُمُّ المريدين » ، ولا ينفثه إلا الشيطان ، وهو أن يعترض المريد على شيخه ، لذلك فقد قالوا : **مَنْ**

---

[1] سورة النساء آية ٦٥ . [2] سورة النحل آية ١٠٥ . [3] رواه الخرائطيّ كتاب مساوئ الأخلاق .

يَعْتَرِض يَنْطَرِد .. لن يطرده الشيخ ، وإنما هو بنفسه سوف ينسحب تلقائيًّا ، ذلك أن طريق هؤلاء القوم ينفي الْخَبَثَ كما تنفي النارُ خَبَثَ الحديد ، وتصاريف الشيوخ – وإن ظهرت لك مخالفة ، أو أشكلت عليك – فاعلم أن لدى الشيخ فيها بيانٌ ، وبُرْهانٌ للصحة ، وأن عنده سندًا ودليلاً ، وما يقوم به الشيخ من تصرُّفٍ قد لا يكون لك أنت حق فيه ، لذلك فأوَّل ما ينْصَحُ به الشيخ مُرِيدَه هو : ألا ينظر إليه محاولاً أن يعرف مقامه ، ومراقبًا لتصرُّفاته ، بل ينظر إلى نَفْسِه ليرى أين كان ، وأين هو الآن .. فالمريد يأتي ليتعلَّم ، وليأخُذ ، والشيخ يَأْخُذُ بِيَدِ مُرِيدِه لأنه أمانة الله عنده ، وهو يؤدي حقّ هذه الأمانة ، كما يجب أن يؤدِّيَهُ كل صالح وكل تَقِيٍّ ، ويزعم الصوفية أن : الشيخ له دائمًا باب مفتوح من المكالمة ، والمحادثة في النوم واليقظة ، وهو لا يتصرَّف في المريد بِهَوَاه ، بل يستغيث إلى الله بحوائج هذا المريد ، كما يستغيث بحوائج نَفْسِه ، ويفسرون قوله تعالى : (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ)[1] بقولهم : إن إرْسَالَ الرَّسُولِ يختصُّ بالأنبياء ، والوحي كذلك ، أما الكلام من وراء حجاب فهو بالإلْهَام ، والهواتف ، والمنام .. وكل ذلك للشيوخ الرَّاسِخِين في العلم ، ولذا فإن الشيخ يرشد المريد ، ويهديه ويُعَرِّفُه طريق المواجيد ، ويُبَصِّره بآفات النفوس ، ومفسدات الأعمال ، ومداخل العَدُوِّ ، فيسلم المريد نفسه إليه ، ويستسلم لرأيه

[1] سورة الشورى آية ٥١ .

في جميع تصرفاته ، ويُعَبَّر عن هذا التسليم والتفويض بالمبايعة ، التي قد يصحبها لُبْسُ الْخِرْقَة ، إن وُجِدَت .. وسيأتي الكلام عليها .. ويزعم الصوفية أن الدخول في حكم الشيخ دخول في حكم الله وحكم رسول الله (ﷺ) ، وإحياء لسُنَّة مبايعة رسول الله (ﷺ) كما ورد في حديث الصحابة : (**بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّه (ﷺ) عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ، فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ ، وَالْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ ، وَعَلَى أَثَرَةٍ عَلَيْنَا ، وَعَلَى أَنْ لاَ نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ ، وَعَلَى أَنْ نَقُولَ بِالْحَقِّ أَيْنَمَا كُنَّا ، لاَ نَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لاَئِمٍ**)[1] ..

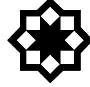
وأما عن الخِرْقَة عند الصوفِيَّة فهم يقولون :

إن الخرقة خِرْقَتَان .. « خرقة التَّبَرُّك » ، و« خرقة الإرَادَة » .. والخرقة التي يطلبها المشايخ للمريدين هي « خرقة الإرادة » ، أما « خرقة التبرك » فللمتشبِّه ، ومَنْ تشبَّه بقوم فهو منهم ، وإذا لبس المريد الحقيقي خرقة الإرادة ، صار كالولد الصغير مع والدِه .. يُرَبِّيه الشيخ ويعلِّمه من عِلْمِه المستمد من الله تبارك وتعالى بصدق الافتقار إليه ، وحُسْنِ الاستقامة .. وبنفاذ بصيرة الشيخ وإشرافه على باطن المريد الذي قد يكون مِمَّنْ يَصْلُحُ له دَوَامُ الذِّكْر ، أو التَّنَفُّل بكثرة الصَّلاَة ، أو بكثرة الصِّيام ، أو الْخِدْمَة .. وفقًا لاستعداده ، فيأمُرُه بما يصلح له .. وبتنوع الاستعدادات تتنوع مراتب الدعوة كما جاء في قول الله تعالى : (ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ)[2] ..

(١) رواه مسلم كتاب الإمارة .

(٢) سورة النحل آية ١٢٥ .

وبصدق افتقار الشيخ إلى الله ، وحسن استقامته ، وبدوام صحبة المريد للشيخ ، وحبه له ، وثقته فيه ، واقتدائه به ، يجعله الشيخ بعد ذلك يقتدي بسيدنا رسول الله (ﷺ) حتى إنه قد يراه (ﷺ) في المنام في صورة شيخه ، فإذا ما حدث هذا كان ذلك فضلاً للمريد ، وتثبيتًا له ، كما أنه أيضًا فضل للشيخ ، ودليل على أنه على قَدَمِ رسول الله (ﷺ) ، وسائر على سُنَّتِهِ ، ويكون هو باب المريد الذي يَصِلُ منه إلى سيدنا رسول الله (ﷺ) ، وعندئذ يتأكَّد باليقين الراسخ أنه على الطريق وينطبق عليه قول الحق تبارك وتعالى : (قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ)[1] ..



[1] سورة يوسف آية ١٠٨ .

شَرَطَ السَّادَة الصوفية للطريق بداية وهم يرون أنه : من لم يَرَ مُفْلِحًا فلن يُفْلح ، ذلك أن النبي (ﷺ) حين التحق به أصحابه ، وبايعوه ، وهاجروا معه ، وصاحبوه ، علَّمهم ، وأدَّبهم ، وعالج سرائرهم ، وبواطنهم ، حتى إنّه قيل لسيدنا « سَلْمَان الفَارِسِيّ » (رضي الله عنه) : **قَدْ عَلَّمَكُمْ نَبِيُّكُمْ (ﷺ) كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الْخِرَاءَةَ !!** [1] .. وقد حدثت لهم البركة بالإضافة إلى العِلْم ، وقد كان (ﷺ) يقول : (**طُوبَى لِمَنْ رَآنِي ، وطُوبَى لِمَنْ رَأَى مَنْ رَآنِي ، وطُوبَى لِمَنْ رَأَى مَنْ رَأَى مَنْ رَآنِي**) [2] .. ثم بعد ذلك انتقل العلم من الأصحاب إلى التابعين ، ثم تابعي التابعين ، وهكذا حتى وصل إلى الشيوخ ..

وبذلك تكون البداية : الذهاب إلى الشيخ ، ومَنْ يذهب إليه ، فهو إما مريد صادق ، وإما طالب للبَرَكَة ، والشيخ لا يرفض أيًّا منهما ، ولكنه يمنح خرقة التبرُّك لكلِّ طالب ، وخرقة الإرادة تُمْنَع إلا من الصادق الراغب ..

ولكن ما هي خرقة التبرك ؟! .. وما هي خرقة الإرادة ؟! .. وما سندهم في ذلك ؟!

الْخِرْقَة : قميص أو جلباب ، وقد تكون طاقية عند بعض السادة الشيوخ ،

---

[1] رواه مسلم كتاب الطهارة .. والخراءة : قضاء الحَاجَة .

[2] رواه البخاري في التاريخ الكبير .. وفي رواية لأحمد : (طُوبَى لِمَنْ رَآنِي وَآمَنَ بِي ، ثُمَّ طُوبَى ثُمَّ طُوبَى ثُمَّ طُوبَى لِمَنْ آمَنَ بِي وَلَمْ يَرَنِي) .

وعندما يأتي المريد يُلْبِسُه الشيخ هذه الخرقة ، ويمد هو يده إلى الشيخ مبايعًا له ، وسندهم في ذلك :

أولا : ما رُوِيَ عن النبي (ﷺ) من أنه كَسَى « أمَّ خَالِد » بيده خَمِيصة [1] سوداء وقال لها : (**أَبْلِي ، وَأَخْلِقِي** [2]) مرتين [3].. ومن هنا جاء إِلْبَاسُ الخرقة .

ثانيًا : أنَّهم يرون أن الخرقة تعمل في المريد عمل قميص « يُوسُف » ، الذي بعث به إلى « يَعْقُوب » فارتدَّ بصيرًا ، وهم يقولون : إنَّ قميص سيدنا « يُوسُف » لم يكن قميصًا عاديًّا ، وإنما كان مُتَوَارَثًا ، فحين أَلْقَى الكفار سيدنا « إبراهيم » في النار – وهو عارٍ – نزل إليه سيدنا « جبريل » بِقَمِيصٍ من الْجَنَّة فأَلْبَسَه إيَّاه ، وانتقل القميصُ بعد ذلك إلى سيِّدنا « إسحاق » ثم إلى سيِّدنا « يعقوب » الذي جعله تعويذة ، وعلَّقها في عنق « يُوسُف » ، ولما أُلْقِيَ « بيُوسُف » في البئر جاءه « جبريل » يُؤْنِسه ، ورفع هذه التعويذة عن عُنُقِه فعادت قميصًا ، وهو الذي أرسله « يُوسُف » إلى أبيه مع أخوته وأشار إليه القرآن في قوله : (ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا)[4] .. حكاية عن « يُوسُف » ، ولَمَّا فَصَلَت العِيرُ ، قال سيدنا « يعقوب » لِمَنْ حَوْلَه : (إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ)[5] .. ولا يمكن لامرئ وهو موجود بأرض الشام أن يشم رائحة قميص على حدود مصر ، ولكن القميص قميص غير عاديّ ، ومَنْ وجد

---

[1] الخميصة : ثوب مخطط من حرير أو صوف . [2] المراد الدعاء بطول الحياة حتى يبلى ثوبُها ويقطع .
[3] رواه البخارى كتاب اللباس . [4] سورة يوسف آية ٩٣ .
[5] سورة يوسف آية ٩٤ .

ريح « يُوسُف » إنسانٌ غير عاديّ ..

فإذا كان المريد طالبًا للبَرَكَة ، فإنه يلبس خرقة البركة ، ويُؤْمَرُ بمجالسة الصالحين ، ومَنْ جَالَسَ جَانَسَ ، وله أن يحضر مجلس الشيخ ولكن لا تُشْتَرَطُ عليه شروط الصحبة ، وإنما يُؤْمَرُ بالمعروف ، ويُنْهَى عن المنكر ، ويُوصَى بسلوك السبيل إلى الله تبارك وتعالى .. ومَنْ تَشَبَّه بالقوم فهو منهم ، ومَنْ أحبَّ قومًا حُشِرَ معهم .. وهذا المريد يكون على خير بإذن الله ، وقد يأتي عليه وقت يصبح فيه مريدًا صادقًا ، وعندئذ يلبس خرقة الإرادة ، أو تكون له بيعة .. ومن تَصَرُّفِ الشيخ مع المريد يتضح موقفه : أهو طَالِبٌ للبركة ، أم طَالِبٌ للسلوك .. ويكون له حينئذ أوان ارْتِضَاع ، وأوان فِطَام .. ويكون الفطام بأمرٍ من الشيخ .. وهو لا يأمر بذلك إلاَّ إذا استطاع المريدُ أن يستقلَّ بنَفْسِه ، وأن يفهم عن الله كما كان يفهم عن الشيخ ، وأن يترك الاختيار مع الله كما كان يترك الاختيار مع الشيخ ، فهنا يَأْذَن له الشيخ بالاستقلال .. ولكن إذا انفصل المريد عن الشيخ قبل أوان الفِطَام اعْتَلَّ ، ومَرِضَ ، وعاد كما بدأ إن لم يكن أسوأ ، وسندهم في ذلك قول الله تبارك وتعالى : (إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ) [1] .. وهذا في أمور الدنيا ، فهل هناك أمر أهم من الدين

---

[1] سورة النور آية ٦٢ .

والهداية إلى الطريق ؟! ..

ومن ناحية أخرى ، فهناك فئة تأخذ بالبيعة فقط ، وسندهم في ذلك مبايعة الصحابة سيِّدَنا رسول الله (ﷺ) .. وهم يرون أن بيعة المريد للشيخ هي إحياء لسُنَّة رسول الله (ﷺ) في مبايعة الأصحاب له ..

كما أن هناك فئة ثالثة تسلك بالمريد بغير بيعة ، وبغير خِرْقَة ، وهم يقولون بأن السلف الصالح لم يعرف الخرقة ، ولم يأخذ البيعة ، وليس هذا من جانبهم اعتراضًا ، فهم يرون أن مَنْ أَلْبَس الخرقة ، هو على أمر صحيح ، ومَنْ لم يُلْبِسْها هو على أمر صحيح ، وكلُّ تصرفات الشيوخ لها سند من الصِّحة ولا تخلو من حُسْن النِّيَّة ..

هذا .. ولابد للشيخ أن يحبَّ مريده ، وهم يقولون : **مَنْ أَحْبَبْنَاهُ أَرَدْنَاهُ ، ومَنْ أَرَدْنَاهُ أَحْبَبْنَاهُ** .. ولا يمكن للشيخ أن يُعَلِّمَ مُرِيدَه إلا إذا أحبَّه ، وقديمًا كانوا يقولون : **قلوب الشيوخ بأيديهم** .. فالله تبارك وتعالى يمنحهم المقدرة على حبِّ المريد الذي يختارونه تَوًّا ، ومما يؤكِّد ذلك – في نظرهم – حديث سيدنا رسول الله (ﷺ) الذي يقول فيه « عمر بن الخطاب » (رضي الله عنه) : **وَاللَّهِ لأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلاَّ نَفْسِي** ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) : (**لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ عِنْدَهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِه**) .. قَالَ « عُمَرُ » : **فَلأَنْتَ الآنَ وَاللَّهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي** .. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) : (**الآنَ يَا عُمَرُ**) [1] ..

---

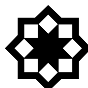
(1) رواه أحمد مسند الشاميين .

أي إنه حدث تَوًّا ما طلبه الرسول (ﷺ) ، فالشيخ يحبُّ مريده فورًا ولو كان فاسقًا أو عَاصِيًا ، ويصاحبه – وهذه سِمَةُ الشيوخ – حتى يأخذه من الضلال إلى الهدى ، ومن النار إلى الجنة .. ذلك أن حبَّ الشيخ للمريد يجعله يُنْزِلُ بالله حوائج المريد ، كما يُنْزِلُ حوائجه ، ويستمد من الله الإلهام ، والهواتف ، والعلوم ، والفهوم ، وينقلها إلى المريد ، وذلك بصدق الاستقامة ، والافتقار إلى الله تبارك وتعالى ، فَيُعَلِّم المريد ، ويأخذ بيده .. ويكون ذلك بالصُّحْبَة ، وسماع المقال ، ولا يكون إلا لمريد حصر نفسه مع الشيخ ، وأطاع الشيخ طاعة عمياء ، وانقاد له انقيادًا ظاهرًا وباطنًا ، وحَكَّم الشيخ في جميع تصرفاته ، وخرج من الاختيار والإرادة إلى اختيار الشيخ وإرادته .. والشيخ في إصلاحه لباطن المريد مثل الصائغ فهو يعرف المعدن الذي يعالجه ، وكيف يمكن معالجته .. فمِنَ المريدين من يُدَلَّل حتى لا ينكسر ، ومنهم من يُعَنَّف .. والرسول (ﷺ) على سبيل المثال لم يُعَنِّف « عبد الله بن أُبَيّ ابن سَلُول » وهو شيخ المنافقين ، بل إنه حين مات خلع قميصه لِيُكَفَّن فيه ، وكان له من « مُعَاذ بن جَبَل » – وهو إمام العلماء – موقف آخر : فقد عنَّفَه الرسول (ﷺ) أمام الناس قائلاً : (**يَا مُعَاذُ أَفَتَّانٌ أَنْتَ ؟!**)[1] ذلك أنه كان يصلِّي بالناس بسورة البقرة ، فيَتَضَرَّرُ المأمومون من التطويل .. وكان يُدَلِّل « أبا سُفْيَان » أيضًا إذ قال (ﷺ) له فور إسلامه : (**مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ**)[2].. ويرجع ذلك إلى اختلاف معدن كل مُرِيد ،

---

[1] رواه البخاري كتاب الأذان . [2] رواه أبو داود كتاب الخراج والإمارة .

فإن كان ذَهَبًا وجب أن يُدْخَلَ النَّار ، وإن كان صفيحًا احتاج إلى مطرقة من خشب فهي تكفيه ، أما إن كان من حديد ، فلا يناسبه إلا مطرقة من الصلب .. وهكذا ..



اهتم السادة الصوفية بثلاثة أمور ، هي : **تَرْكُ التَّكَلُّف .. الإنْفَاقُ من غير إقْتَار مع ترك الادِّخار .. القناعة باليَسِير من الدُّنْيَا ..**

- **الأمر الأول : وهو ترك التكلف :**

التكلُّف في نظرهم تخلُّفٌ عن شَأْوِ الصادقين ، والصالحين ، وهو التصنُّع ، والتعَمُّل ، والتحايُل على النَّفْسِ من أَجْلِ الناس ، ويسوقون حديثًا في ذلك : (**اللَّهُمَّ أَلْحِقْ بِي السَّابِقِينَ الأَوَّلِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ والأَنْصَارِ ، والتَّابعِينَ بِإحْسَان ، الَّذِينَ يَدْعُونَ لِي ، ولأَمْوَاتِ أُمَّتِي ، ولا يَتَكَلَّفُونَ .. أَلاَ وأَنَا بَرِيءٌ مِنَ التَّكَلُّفِ وصَالِحُ أُمَّتِي**)[1] ..

وقد يكون التكلُّف في الكلام بأن تَمْدَح الناس بما ليس فيهم ، فيصبح **تملُّقًا** ، وقد يكون في الْمَأْكَلِ بأن يكلِّف الإنسان نَفْسَه ما لا يُطِيقُ مُظْهِرًا بذلك الكرم ، وقد روي عَنْ « أَنَسٍ » (رضي الله عنه) أنه قَالَ : **أَقَامَ النَّبِيُّ** (صلى الله عليه وسلم) **بَيْنَ خَيْبَرَ وَالْمَدِينَة ثَلاَثًا يُبْنَى عَلَيْه بِصَفِيَّةَ بِنْتِ حُيَيٍّ ، فَدَعَوْتُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى وَلِيمَته**[2] ، **فَمَا كَانَ فِيهَا مِنْ خُبْزٍ وَلا لَحْمٍ ، أَمَرَ بِالأَنْطَاعِ**[3] **فَأُلْقِيَ فِيهَا مِنَ التَّمْرِ وَالأَقِطِ**[4] **وَالسَّمْنِ فَكَانَتْ وَلِيمَتَهُ**[5] .. وقد يكون التكلُّف في الْمَلْبَس ، وذلك إذا ما كان بغير نِيَّة ، فالْمَلْبَسُ يجب أن يكون بِنِيَّةِ سَتْرِ العَوْرَة ، وإظْهَار نِعْمَة الله على

---

[1] رواه ابن عساكر وأورده ابن الجوزي في الموضوعات (من الأحاديث الموضوعة) . [2] الوليمة : طعام العرس .
[3] النطع : بساط من الجلد . [4] الأقط : لبن مُجَفَّف يابس يُطبخ به . [5] رواه البخارى كتاب النكاح .

الإنسان ، وليس من أَجْلِ الناس ..

ويقولون إن رسول الله (ﷺ) قال : (**إِنَّ عِيسَى ابن مَرْيَم قَامَ فِي قَوْمِه فقال : يَا بَنِي إِسْرَائِيل إِنَّمَا الأَمْر ثَلاثَة : أَمْرٌ بُيِّنٌ رُشْدُهُ فَاتَّبِعُوهُ ، وأَمْرٌ بُيِّنٌ غَيُّهُ فَاجْتَنِبُوهُ ، وأَمْرٌ اخْتُلِفَ فِيهِ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ عَزَّ وجَلَّ**)[١] .. وهو ما يعني أن التكلُّف في البحث لا دَاعِي له ..

- **الأمر الثاني : وهو الإنفاق من غير إقْتَار مع ترك الادِّخار :**

فهم يقولون : إنَّ الصُّوفِيَّ في الدُّنْيَا في دار غُرْبَةٍ ليس له فيها ادِّخار ، وليس له منها استِكْثار ، وهم يَثِقُون بما عند الله أكثر من ثِقَتِهم بما في أيديهم ، ويقولون : إنَّ الرسول (ﷺ) يقول : (**مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلاَّ مَلَكَان يَنْزِلاَنِ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا : اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا ، وَيَقُولُ الآخَرُ : اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا**)[٢].. ويقول (ﷺ) : (**مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ ، مُعَافًى فِي جَسَدِه ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِه ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا**)[٣].. ويقول (ﷺ) : (**لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ : تَغْدُو خِمَاصًا ، وَتَرُوحُ بِطَانًا**)[٤]..

ويقولون : قد كان سيدنا « عمر » (رضي الله عنه) يُوصِي أصحابه قائلاً : **كُونُوا أَوْعِيَةَ الكِتَابِ ويَنَابِيعَ الْعِلْمِ ، وعُدُّوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ الْمَوْتَى ، واسْأَلُوا اللهَ رِزْقَ**

---

[١] رواه ابن عساكر ، والحاكم . [٢] رواه البخارى كتاب الزكاة . [٣] رواه الترمذي كتاب الزهد .

[٤] رواه ابن ماجه كتاب الزهد .

يَوْمٍ بِيَوْمٍ ، ولاَ يَضُرُّكُمْ إِنْ يَكْثُر لَكُمْ [١] ..

والصوفية يكرهون الادِّخار ، وليس من أخلاقهم ، وإنما من أخلاقهم الإنفاق من غير إقْتَار ، ويروون عن النبي (ﷺ) أنه قال « لأسماء بنت أبي بكر » (رضي الله عنهما) : (**تَصَدَّقِي وَلاَ تُوعِي فَيُوعَى عَلَيْكِ** [٢]) [٣] ..

وقد بشَّر الله تبارك وتعالى الْمُنْفِقِين ، وجعل الإنفاق طريقًا للفلاح بقوله : (ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾) [٤] ..

- **الأمر الثالث : وهو القناعة باليسير من الدنيا :**

وهم يقولون : (**الْحُرُّ عَبْدٌ ما طَمِع ، والْعَبْدُ حُرٌّ مَا قَنَع**) [٥] .. فالإنسان عبد ما احتاج إليه ، والغَنِيُّ هو مَن اسْتَغْنَى عن الأشْيَاء ، لذلك فالله تبارك وتعالى هو الغَنِيُّ الْمُطْلَق ..

ومَنْ قنع استراح مع إخوانه ، واستطال على أقْرَانِهِ ، ويقولون : (**القَنَاعَةُ سَيْفٌ لا يَنْبُو** [٦]) [٧] .. والقناعة مَالٌ لا يَنْفَدُ ، والقناعة باليسير من الدنيا أوْصَى

---

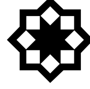
[١] رواه سفيان بن عيينة في جامعه ، وأحمد بن حنبل في الزهد .

[٢] أي : لا تجمعي في الوعاءِ وتبخلي بالنفقة فتجازي بمثل ذلك .

[٣] رواه البخارى كتاب الهبة . [٤] سورة البقرة الآيات من ٣ : ٥ . [٥] حلية الأولياء لأبي نعيم .

[٦] لا ينبو : لا يخطيء . [٧] نثر الدر للآبي .

بِهَا النبي (ﷺ) في قوله : (**مَا قَلَّ وَكَفَى خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَأَلْهَى**) [1] .. وكان يدعو قائلاً : (**اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا** [2]) [3] ..



---

(1) رواه أحمد وأبو نعيم والطبراني .

(2) القوت : حاجة اليوم من الطعام وغيره .

(3) رواه مسلم كتاب الزكاة .

١- أول حالهم رعاية الأقْوال ، وَهِيَ أقوال المصطفى (ﷺ) ، ذلك أنه مَنْ يُطِعِ رَسُولَ اللهِ فَقَدْ أَطَاع الله ..

٢- الاقتداء بأعماله (ﷺ) ..

٣- التحقُّق بالأخلاق التى أَرْسَى (ﷺ) قواعدها ..

وقد اهتم السادة الصوفية بالأخلاق لاقتداء كثير من المسلمين بالأعمال ، وجموحهم عن الأخلاق .. ذلك أن الإجابة إلى الأعمال أكثر سهولة من الإجابة إلى الأخلاق ، مع أن الأخلاق هي الهدف ، وهي الغاية .. ويقال إن النبي (ﷺ) سُئِلَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ فَقَالَ : (**تَقْوَى اللَّهِ ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ**) ، وَسُئِلَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ فَقَالَ : (**الْفَمُ ، وَالْفَرْجُ**)[1] .. كما قال (ﷺ) : (**إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ**)[2] .. وقال : (**مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ**)[3] ..

والسادة الصوفية بعد أن يقوموا بتعليم المريد الفِقْه ، وعِلْمَ الفريضة ، وعِلْمَ الدراسة يعلِّمونه : أن مَنْ زاد عليه بالْخُلُق زاد عليه في التصوُّف ، وبالتالي فإن درجة التصوف تكون وفقًا لدرجة الْخُلُق ..

وللأخلاق عندهم مصدران :

[1] رواه الترمذى كتاب البر والصلة . [2] رواه البيهقي في سننه . [3] رواه الترمذى كتاب البر والصلة .

المصدر الأول : هو خُلُقُ رسول الله (ﷺ) ..

المصدر الثاني : هو صفات الله تبارك وتعالى ، التي تُسْتَمَدُّ من أسمائه الحسنى ..

أما بالنسبة إلى المصدر الأول : فقد اعتمدوا على حديثٍ لسيدنا رسول الله (ﷺ) يتضمن وصيَّة جامعة أوْصَى بهَا « مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ » (رضي الله عنه) فقال : (**يَا مُعَاذُ ، أُوصِيكَ بِتَقْوَى الله ، وصِدْقِ الْحَدِيث ، ووَفَاءِ بالْعَهْد ، وأَدَاءِ الأَمَانَة ، وتَرْكِ الْخيَانَة ، ورَحْمَةِ الْيَتِيمِ ، وحِفْظِ الْجَارِ ، وكَظْمِ الْغَيْظِ ، وخَفْضِ الْجَنَاحِ ، وبَذْلِ السَّلاَمِ ، ولِينِ الْكَلاَمِ ، ولُزُومِ الإِيمَانِ ، والتَّفَقُّه فِي الْقُرْآنِ ، وحُبِّ الآخِرَةِ ، والْجَزَعِ منَ الْحسَابِ ، وقِصَرِ الأَمَلِ ، وحُسْنِ الْعَمَلِ .. وأَنْهَاكَ أَنْ تَشْتُمَ مُسْلمًا ، أَوْ تُكَذِّبَ صَادقًا ، أَوْ تُصَدِّقَ كَاذبًا ، أَوْ تَعْصِي إِمَامًا عَادلاً .. يَا مُعَاذُ ، اذْكُرِ اللهَ عنْدَ كُلِّ حَجَرٍ وشَجَرٍ ، وأَحْدِثْ مَعَ كُلِّ ذَنْبٍ تَوْبَةً ، السِّر بالسِّر ، والْعَلاَنِيَة بِالْعَلاَنِيَة**)[1] .. ويستندون أيضًا إلى حديث آخر .. عن السيدة « عائشة » (رضي الله عنها) قالت : كان نبي الله (ﷺ) يقول في مَكَارِمِ الأَخْلاَق : (**عَشَرَةٌ تَكُونُ فِي الرَّجُلِ ولاَ تَكُونُ فِي ابْنِه .. وتَكُونُ فِي الابْنِ ولاَ تَكُونُ فِي أَبِيهِ .. وتَكُونُ فِي الْعَبْدِ ولاَ تَكُونُ فِي سَيِّده .. يَقْسِمُهَا اللهُ لِمَنْ أَرَادَ بِهِ السَّعَادَة : صِدْقُ الْحَدِيث ، وصِدْقُ النَّاسِ : وَهُوَ أَنْ لاَ يَشْبَعَ وجَارُهُ وصَاحِبُهُ جَائِعَان ، وإِعْطَاءُ السَّائِل ، والْمُكَافَأَةُ بالصَّنَائِعِ ، وحِفْظُ الأَمَانَةِ ، وصِلَةُ الرَّحِمِ ، والتَّذَمُّمُ [2] لِلْجَارِ ، والتَّذَمُّمُ لِلصَّاحِبِ ،**

---

[1] رواه أبو نعيم فى حلية الأولياء .

[2] التذمم : التذلل .

وإِقْرَاءُ الضَّيْفِ ، ورَأْسُهُنَّ الْحَيَاءُ)[1] ..

هذا .. وقد أوردوا كل أحاديث الرسول (ﷺ) فى الأخلاقِيَّات ، فهم أكثر الناس تَمَسُّكًا بالأخلاق ، وهم يرون أن مجامع الأخلاق تتلخَّص في أربع :

١- السَّخَاء . ٢- الأُلْفَة . ٣- النَّصِيحَة . ٤- الشَّفَقَة .

وهم يستندون في ذلك إلى حديث رسول الله (ﷺ) : (**إِنَّ من أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ ، وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ : أَحَاسِنَكُمْ أَخْلاَقًا .. وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ ، وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ : الثَّرْثَارُونَ** [2] ، **وَالْمُتَشَدِّقُونَ** [3] ، **وَالْمُتَفَيْهِقُونَ .. قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارُونَ ، وَالْمُتَشَدِّقُونَ ، فَمَا الْمُتَفَيْهِقُونَ ؟ قَالَ : الْمُتَكَبِّرُونَ)**[4] .. وهم يشيرون كذلك إلى قول الله تعالى لرسوله الكريم : (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ)[5] .. والْخُلُقُ هو الدِّين ، والدِّين هو العمل الصَّالح ، ثم هم يشيرون إلى حديث السيدة « عائشة » (رضي الله عنها) حين سُئِلَت عن خلق رسول الله (ﷺ) فقالت : (**كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ)**[6] .. وفي ذلك إشارة إلى أنه (ﷺ) كان متخلِّقًا بأخلاق الله عز وجل ..

وحين تكلَّمُوا عن الرُّوح ، والقَلْبِ ، والنَّفْسِ أشاروا إلى أن الرُّوح أعلى القَلْب ، والنَّفْسَ أسفله ، وأسفل هذه النَّفْس يوجد الطَّبْعُ وهو من الطِّين ، وقد أبى الله على الشيطان أن يَدْخُل قلب ابن آدم ، ولم يسمح له إلا بمجاري الدَّمِ

---

(١) رواه البيهقي فى شعب الإيمان .
(٢) الثرثارون : هم الذين يكثرون الكلام تكلُّفًا .
(٣) المتشدقون : هم الذين يتطاولون على الناس بالكلام .
(٤) رواه الترمذى كتاب البر والصلة .
(٥) سورة القلم آية ٤ .
(٦) رواه أحمد باقى مسند الأنصار .

من العُرُوق ، ولكن حين يمشي بِهَا تضيق عليه فيعرق ، ولما كانت عروق النفس مُتَّصِلَة بعروق القَلْب في مكان ما ، وهذا المكان ترشح منه روحانية القلب ، فإن عرقه يختلطُ برشح ماء القَلْبِ ، ويدخل القلب عن هذا الطريق .. ولكن بالنسبة إلى الرسول (ﷺ) فقد جاءه الملكان عند السيدة « حَلِيمَة السَّعْدِيَّة » فأضجعاه ، وشقَّا صَدْرَه ، وأخْرَجَا من قلبه عَلَقَةً هي حَظُّ الشيطان ، بحيث إنه حتى لو دخل في العروق لم يَصِلِ إلى القلب ..

هذا .. والنَّفْسُ الأمَّارَةُ تأخذ من الطَّبْعِ وتُعْطِي القَلْبَ فتسد باب الروح ، ولكن بضغط الْمُرِيد على النَّفْس ، تضغط على الطبع ، وتخالفه فيبدأ نور الرُّوح في التَّنَزُّل على القلب ، الذي يقذف بنوره على النفس ، فتنقلب إلى نَفْسٍ لَوَّامَةٍ ، ثم إلى نَفْسٍ مُطْمَئِنَّة ..

والنفس النبويَّة زَكِيَّة ، نورانية ، ولكن بِهَا الطبع ، فإذا حدثت صفة نَفْسِيَّة ، تَنَزَّلت آية رَبَّانِيَّة ، فتصبغ الصِّفَةَ النَّفْسِيَّة بالصبغة الإلهيَّة ، فتتخلق بِخُلُق الله عز وجل ..

وعلى سبيل المثال هم يشيرون إلى أنه عندما انْهَزَم المسلمون من حول رسول الله (ﷺ) في غزوة أُحُد وفاجَأه سَهْمٌ فَانْغَرَسَتْ حَلْقَتَان من حَلْقَات الْمِغْفَر في وجْنَته الشريفة ، وكُسِرَتْ رَبَاعِيَّته ، ظهرت صفة النَّفْسِ فقال (ﷺ) : (**كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ خَضَّبُوا وَجْهَ نَبِيِّهِمْ بِالدَّمِ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ ؟**)[1] .. فنَزَل سيدنا « جِبْرِيل » على الفور قائلاً عن رب العزة : (لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ

[1] رواه ابن ماجه كتاب الفتن .

شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ)[١] .. وعلى الفور عادت الصِّفة إلى الْخُلُق المطلوب ، فقال (ﷺ) : (**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ**)[٢] ..

وكذلك الصحابة تخَلَّقُوا بأخلاق القرآن ، ولم تَنْفَصِل قُلُوبُهُم عن قَوَالبهم ، وإنما كان القَالبُ مُسْتَرْسِلاً في الأعمال ، والقلب غير غافل عن الأحوال ، والصُّوفِيُّ قَلْبُه قَالِبُه ، وقَالِبُه قَلْبُه .. سِرُّه عَلاَنِيَتُه ، وعَلاَنِيَتُهُ سِرُّه .. انصَلَحَ ظَاهِرُه وبَاطِنهُ ، يتخلَّقُ بالقرآن آيةً آيةً كما فعل الصحابة من قَبْل ..

وأما بالنسبة إلى المصدر الثاني وهو : صفات الله تبارك وتعالى بما يتلاءَمُ مع البشر .. ولا تُؤْخَذُ مطلقًا بمعنى الْحُلُولِ أو الاتِّحَادِ — فقد أبرز الله تبارك وتعالى صفاته لِخَلْقِهِ حتى يتخلَّقوا بِهَا ، وينالوا حظَّهم منها .. ولولا ذلك ما أبرزها لهم ، فما أبرزها إلا لِيَدْعُوَهم إليها ، وللعَبْد أن يأخُذَ من كل صِفَةٍ حَظَّهُ منها ، فيتخلَّق بالقَدْرِ الذي يسمح به القُصُور في البَشَرِيَّة .. وعلى سبيل المثال فإن الله تبارك وتعالى « رَحِيم » ، ومن ثَمَّ يكون حظُّهم من هذا الاسم : (**الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ .. ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ**)[٣] ..

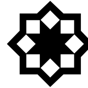
وبالنسبة لصفة « الغَفُور » فالحق تبارك وتعالى يقول : (وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ)[٤] .. وكانت هذه الآية قد نزلت في

---

[١] سورة آل عمران آية ١٢٨ .
[٢] رواه البخارى كتاب أحاديث الأنبياء .
[٣] رواه الترمذى كتاب البر والصلة .
[٤] سورة النور آية ٢٢ .

سيدنا « أَبِي بَكْر » (رضي الله عنه) حين أمسك ما كان يُنْفِق على « مِسْطَح بن أُثَاثَة » لترديده حديث « الإِفْك » ، ولما تلاها عليه النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : (**بَلَى وَاللَّهِ إِنِّي لأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي**)[1] .. وصفح وأعاد النفقة إلى « مِسْطَح » ..

ويزعم الصوفية أن هذه الأخلاق إذا ما تحقَّقت لشخص ما في مكان ما ، دفع الله به البلاء عن العباد ، وعن البلاد ، ورزق الحيَّ الذي هو فيه من أجْلِه .. وسوف نتناول الأخلاق هنا بحسب ترتيبهم لها ، ذلك أنه ليس من الممكن التخلُّق بأخلاق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كُلِّها دفعة واحدة ، وإنما نجد الشيخ يعالج الْمُرِيد ، ويعلمه الْخُلُقَ بعد أن يعرِّفه إيَّاه ، ويخلِّقه به ويختبره ، ويراقبه ظاهرًا ، وبَاطِنًا ، ثم ينتقل إلى خُلُقٍ غيره ، وهكذا ، وفي مواجهة كل خُلُقٍ يعلِّمه له خلق آخر يحذِّره منه ، فالأخلاق عبارة عن طرفين أحدهما مذموم والآخر محمود ..



(1) رواه البخارى كتاب الشهادات .

عن « أنس بن مالك » (رضي الله عنه) قال : قال لي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (**يَا بُنَيَّ إِنْ قَدَرْتَ أَنْ تُصْبِحَ وَتُمْسِيَ لَيْسَ فِي قَلْبِكَ غِشٌّ لأَحَد فَافْعَلْ**) ، ثُمَّ قَالَ : (**يَا بُنَيَّ وَذَلِكَ مِنْ سُنَّتِي ، وَمَنْ أَحْيَا سُنَّتِي فَقَدْ أَحَبَّنِي ، وَمَنْ أَحَبَّنِي كَانَ مَعِي فِي الْجَنَّة**)[1] ..

يتمسك أهل التصوف بِهَذا الحديث ، ويزعمون أن الصوفية أَحْيَوْا سُنَّة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لأَنَّهم وُفِّقُوا في بدايتهم لرعاية أقواله ، واقْتَدَوا في وسط حالهم بأعماله ، فأثمر ذلك أن تَخَلَّقُوا في نِهَايَاتِهم بأخلاقه .. وتَحْسِينُ الأخلاق لا يتأَتَّى إلا بعد تَزْكِيَة النفس بالإذعان لسياسة الشرع ، وقد عرف السادة الصوفية أن آفة الغلِّ ، والغشِّ في النفوس ، وأن ذلك ثمرة حبِّ الدنيا ، والتنافس عليها ، فتركوا الدنيا ، وانطبعت في مرآة قلوبِهم الصافية هيئة الأشياء ، وماهيتها ، فرأوا الدنيا وحقارتــها فرفضوها ، وظهرت لهم الآخرة ، فطلبوها ، وقد كان رفضهم للدنيا أساسًا استندوا فيه إلى قول الله تبارك وتعالى : (وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ)[2] .. وقوله : (وَجَـٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ)[3] .. واعتبروا أن ما تشير إليه الآيات هو جهاد النَّفْس ، ويذكرون في ذلك حديثًا عن جابر (رضي الله عنه) قال : قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) قَوْمٌ غُزَاةٌ ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : (**قَدِمْتُمْ خَيْرَ مَقْدَمٍ مِنَ الْجِهَاد الأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الأَكْبَرِ**) .. قالوا : **ومَا الْجِهَادُ الأَكْبَرُ** ؟ .. قال : (**مُجَاهَدَةُ**

[1] رواه الترمذى كتاب العلم . [2] سورة العنكبوت آية ٦٩ . [3] سورة الحج آية ٧٨ .

الْعَبْدِ هَوَاهُ)[1] ..

كذلك هم يُشيرون إلى قول الله تعالى : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ)[2] .. فرأوا ضرورة الصبر على الدنيا ، والبعد عنها ، والمصابرة على الطاعات ، وتناولوا الرباط بشيء من التفصيل .. فقالوا :

• الرِّبَـــاط :

أصل كلمة رباط هو : المكان الذي تُرْبَطُ فيه الخيلُ ، وهو ما لم يكن موجودًا في عهد رسول الله (ﷺ) ، مما يشير إلى ضرورة أن يكون المقصود بالرباط شيء آخر ، فرجعوا إلى حديث رسول الله (ﷺ) : (**أَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا ، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَات ؟**) .. قَالُوا : **بَلَى يَا رَسُولَ اللَّه** .. قَالَ : (**إِسْبَاغُ** [3] **الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ** [4] ، **وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ ، وَانْتِظَارُ الصَّلاَةِ بَعْدَ الصَّلاَةِ ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ**)[5] ..

وقد حدَّدوا الرباط على الوجه التالي :

١- تَرْكُ الاكْتِسَابِ ، والاكْتِفاءُ بِكَفَالَةِ مُسَبِّبِ الأَسْبَاب .

٢- قَفْلُ بَابِ مُعَامَلَةِ الْخَلْقِ ، وفَتْحُ بَابِ مُعَامَلَةِ الْحَقِّ .

٣- وَصْلُ اللَّيْلِ بِالنَّهارِ فِي الْعِبَادَةِ ، والْخُرُوجُ من كُلِّ عَادَةٍ .

٤- نَزْعُ الغِلِّ مِنَ الْقَلْبِ .

---

(1) رواه البيهقي في الزهد . (2) سورة آل عمران آية ٢٠٠ . (3) إسباغ : إتمام وإحسان .
(4) المكاره : المشقة مثل البرد الشديد وغيره . (5) رواه مسلم كتاب الطهارة .

٥- الْبُعْدُ عَنِ الْمُخَالَطَاتِ ، واجْتِنَابُ التَّبِعَاتِ ، وهِيَ حُقُوقُ الْخلاَئِقِ .

ومن هنا أنشئت الخلوات ، والزوايا ، وسموها : الرِّبَاط ..

واجتماع أهل الرباط على الوجه الموضوع له الرباط ، وتحقُّقهم بِحُسْنِ المعاملة ، ورعاية الأوقات ، وتوقِّي ما يُفْسِدُ الأعمال ، واعتماد ما يصحِّح الأحوال يعود بالبركة على البلاد والعباد ، فهم يرون أنه إذا انصلح حَالُهُمْ ، هَابَهُمْ عدوُّهم ، ونصرَهم الله عليه بغير قتال !! ..

هذا .. والمرابطة في نظرهم نوعان :

النوع الأول : وهو سَهَرُ الْمَرْءِ دفاعًا عَمَّنْ وراءه ليحرسه .

النوع الثاني : المرابطة في الله في الرباط وهو الزَّوَايَا ، والْخَلَوَات فهي مرابطة على طاعة الله وذكره بالعبادة ، والسجود ، والدعاء .

ونبينا (ﷺ) يقول : (**مَهْلاً عَنِ اللَّهِ مَهْلاً .. فَإِنَّهُ لَوْلاَ شَبَابٌ خُشَّعٌ ، وَبَهَائِمُ رُتَّعٌ ، وَشُيُوخٌ رُكَّعٌ ، وَأَطْفَالٌ رُضَّعٌ ، لَصُبَّ عَلَيْكُمُ الْعَذَابُ صَبًّا**)[1] .. ويقول : (**إِنَّ اللهَ لَيَدْفَعُ بِالْمُسْلِمِ الصَّالِحِ عَنْ مِائَةِ أَهْلِ بَيْتٍ مِنْ جِيرَانِه الْبَلاَءَ**)[2] .. ويقول : (**إِنَّ اللَّهَ لَيُصْلِحُ بِصَلاحِ الْعَبْدِ وَلَدَهُ ، وَوَلَدَ وَلَدِه ، وَأَهْلَ دُوَيْرَتِهِ ، وَأَهْلَ الدُّوَيْرَاتِ حَوْلَهُ ، فَمَا يَزَالُونَ فِي حِفْظٍ مِنَ اللَّهِ مَا دَامَ بَيْنَهُمْ**)[3] ..

والرِّبَاطُ به : شباب مريدون ، وشيوخ ، وأرباب خلوة ، وخدم .. أما

---

[1] رواه البيهقى كتاب صلاة الاستسقاء .
[2] رواه الطبراني في المعجم الأوسط .
[3] رواه ابن أبي شيبة فى مصنفه .

الشيوخ ، فلهم خلواتُهم ، وأما الشباب ، فهم المبتدئون المريدون السائرون على الطريق ، وأما الخدم ، فهم الداخلون في الطريق ، وبداية الطريق الخدمة ، والكل مهتم بحفظ الأوقات ، وضبط الأنفاس ، وحراسة الحواس ، والمبتدئ الذي كُلِّفَ بالخدمة ، إذا خدم أهل الله المشتغلين بطاعته ، يشاركهم في الثواب ، وإذ لم يُؤَهَّل لأحوالهم السنية ، فإنه يخدم أهلها ، فيتعلَّم الأدب والتواضع ، ويُؤَهَّل لسلوك الطريق ..

وباجتماع الصوفية في الرباط تجتمع بواطنهم ، وتصفَى نفوسُهم وقلوبُهم ، فيصبحون إخوانًا ، ولذلك فقد شرطوا استواء السر والعلن ، والظاهر والباطن ..

والسادة الصوفية يرون أن قول الله تعالى : (فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ)[1] يُقْصد به المساجد ، أو بيوت المدينة ، أو بيوت النبي (ﷺ) ، وقد يُقْصد بالقول أيضًا بقاع الأرض كلها ، فقد جُعِلَتِ الأَرْضُ مسجدًا وطَهُورًا ، وعلى ذلك تكون العبرة بالرجال الذاكرين لا بالمكان ، وهم يستشهدون بقول « أنس بن مالك » (رضي الله عنه) : **(مَا مِنْ صَبَاحٍ ولاَ رَوَاحٍ ، إِلاَّ تُنَادِي بِقَاعُ الأَرْضِ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ : يَا جَارَةُ ، هَلْ مَرَّ بِكِ الْيَوْمَ عَبْدٌ يُصَلِّي عَلَيْكِ لله ؟ أو ذَكَرَ اللهَ عَلَيْكِ ؟ فَمِن قَائِلَةٍ : لاَ ، ومن قَائِلَةٍ : نَعَمْ ، فإذا قالت : نَعَمْ ، رَأَتْ لَهَا عَلَيْهَا بِذَلِكَ فَضْلاً)**[2] .. كما يستشهدون بقول « عطاء » : **(مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْجُدُ سَجْدَةً فِي بُقْعَةٍ مِنْ بِقَاعِ**

---

[1] سورة النور آية ٣٦ . [2] رواه ابن المبارك في الزهد عن أنس بن مالك موقوفًا .

الأَرْضِ ، إِلاَّ شَهِدَتْ لَهُ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وبَكَتْ عَلَيْهِ يَوْمَ يَمُوتُ)[1] .. مُؤَكِّدِين ذلك بقول الله تعالى عن آلِ فِرْعَوْن : (فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ)[2] ..

• وَصْفُ أَهْلِ الرِّبَاط :

يَسُوق الصوفية حديثًا للرسول (ﷺ) يقول فيه : (**مَنِ انْقَطَعَ إِلَى اللهِ كَفَاهُ اللهُ مُؤْنَتَهُ ، ورزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ ، ومَنِ انْقَطَعَ إِلَى الدُّنْيَا وَكَلَهُ اللهُ إِلَيْهَا**)[3].. ويزعمون أن وصفهم قد جاء في قول الله تبارك وتعالى : (رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ)[4].. وذاك عندهم هو ترك الاكتساب ، والاكتفاء بكفالة مُسَبِّب الأسباب ، ومن هؤلاء : أهل الصُّفَّة ، والذين نزل فيهم قول الله تعالى : (وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ)[5] .. وأيضًا نزل فيهم قوله سبحانه : (وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا)[6] .. وعند نزولها قال النبي (ﷺ) لأهل الصُّفَّة مُتَبَسِّمًا : (**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ أُمِرْتُ أَنْ أَصْبِرَ نَفْسِي مَعَهُمْ**)[7] ..

---

(1) رواه ابن المبارك في الزهد عن عطاء الخرساني موقوفًا . (2) سورة الدخان آية ٢٩ .
(3) رواه البيهقي في شعب الإيمان . (4) سورة النور آية ٣٧ . (5) سورة الأنعام آية ٥٢ .
(6) سورة الكهف آية ٢٨ . (7) رواه أبو داود كتاب العلم .

وهناك من العباد ، والزُّهَّاد من طلبوا الانفراد لدخول الآفات عليهم بالاجتماع ، فرأوا السلامة في الوحدة ، فخافوا من المخالطات التي قد تجعل نفوسهم تقوى عليهم ، أما الصوفية المحققون ، فهم لِقُوَّة عملهم ، وصحَّة حالهم ، لا يخشون الاختلاط بالناس فهم لا خلوة لهم ، لأنَّهم دائمًا في خلوة ، فالجسد مع الأجساد ، والقلب مع الله ، وهؤلاء تكون خلوتُهم في جلوتِهم ، وهم يَغْلِبون ولا يُغْلَبون ، وتكون سجادة كل واحد زاويته ، وهَمُّ كل واحد مُهِمُّه ، ولا يتجاوز هَمُّه سجادته ، وقد كان لهم في اتخاذ هذه السجادة وجه من السُّنَّة كما يزعمون ، فعن السيدة « عائشة » (رضي الله عنها) قالت : (**كُنْتُ أَجْعَلُ لِرَسُولِ اللهِ (ﷺ) حَصِيرًا يُصَلِّي عَلَيْهِ مِنَ اللَّيْل**)[1] ، وعن السيدة « ميمونة » (رضي الله عنها) زوج النبي (ﷺ) قالت : (**كَانَ النَّبِيُّ (ﷺ) يُصَلِّي عَلَى الْخُمْرَةِ** [2])[3] ..

وهؤلاءِ الذين اختلطوا بالناس هم الدعاة ، والمتمكِّنون من أنفسهم ، والذين لا يؤثِّر فيهم الاختلاط بالناس ، وهم الذين أُمِرُوا بالظهور إلى الخلق ، وهدايتهم ، ودعوتِهم ، وهم العلماء ، وورثة الأنبياء ، وهم مَنْ سخَّرهم الله عز وجل لزمن اليوم ، وهم لا شك أقرب إلى الصواب من أولئك الذين آثروا الانفراد ، وخافوا من المخالطات ..

---

[1] تفسير الطبري . [2] الْخُمْرَة : حصيرة صغيرة ، سُميت بذلك لأنَّها تستر الوجه من الأرض .

[3] رواه البخارى كتاب الصلاة .

وهناك طائفة سوَّاحة ، وهم يسيحون في البلاد ، لأنَّهم كلما بقوا في مكان اشتهروا ، وعُرِفوا ، وظهرت كراماتُهم ، ولكي لا يتملَّكهم الغرور ، فهم ينتقلون إلى بلد آخر ، وقيل : إن منهم « إبراهيم الخواص » أحد كبار الصوفية ، فما كان يمكث في بلد أكثر من أربعين يومًا ، ثم يرحل ، ويدعو إلى الله حيثما كان ، ويمشي بين الناس بالنصيحة ليكون من العباد الذين يحبِّبُون الله إلى العباد ، ويحبِّبُون العبادَ إلى الله .. وهذه الفئة تعتقد أن مَنْ مات بعيدًا عن بلده ، قِيست له المسافة بين مكان ميلاده وبين قَبْره لتكون في الجنة أثرًا له وزيادة ..

وقد كانت كل فئة من هؤلاء تُكِنُّ الاحترام لسائر الطوائف ، وكان بينهم تفاهم تام ، ومودة ، ومحبَّة ..

هذا .. وللسَّادة الصوفية تقاليد منها : أنَّهم يقومون بتقبيل أيدي السادة الشيوخ ، أما الأخوة فيحتضن بعضهم بعضًا ، وبالنسبة إلى السادة المشايخ ، فمنهم من يقدِّم يده لكل الناس على سبيل التبرُّك ، ومنهم مَنْ لا يقدِّمها إلا لِمَنْ يعلم أنَّهم من ذوي الإرادة فقط ، فهم الذين يستحقون هذا ، أما غيرهم فليسوا أهلاً له .. وهم يرون لذلك أصلاً في السُّنَّة مستندين إلى أمرين :

الأول : حديث « عبد الله بن عمر » (رضي الله عنهما) الذي يقول فيه : كُنْتُ فِي سَرِيَّةٍ مِنْ سَرَايَا رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) فَحَاصَ النَّاسُ حَيْصَةً [1] ، وَكُنْتُ فِيمَنْ حَاصَ ، فَقُلْنَا : **كَيْفَ نَصْنَعُ وَقَدْ فَرَرْنَا مِنَ الزَّحْفِ ، وَبُؤْنَا بِالْغَضَبِ** [2] ؟! .. ثُمَّ

---

(1) أى جالوا جولة يطلبون الفرار .
(2) أى رجعنا بغضب من الله .

قُلْنَا : **لَوْ دَخَلْنَا الْمَدِينَةَ فَبِتْنَا** .. ثُمَّ قُلْنَا : **لَوْ عَرَضْنَا أَنْفُسَنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ** (ﷺ) ، **فَإِنْ كَانَتْ لَنَا تَوْبَةٌ أَقَمْنَا ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلكَ ذَهَبْنَا** .. فَأَتَيْنَاهُ قَبْلَ صَلاَةِ الْغَدَاةِ [1] ، فَخَرَجَ ، فَقَالَ : (**مَنِ الْقَوْمُ ؟**) .. فَقُلْنَا : **نَحْنُ الْفَرَّارُونَ** .. قَالَ : (**لاَ بَلْ أَنْتُمُ الْعَكَّارُونَ** [2] ، **أَنَا فِئَتُكُمْ** [3] ، **وَأَنَا فِئَةُ الْمُسْلِمِينَ**) .. فَأَتَيْنَاهُ حَتَّى قَبَّلْنَا يَدَهُ .. [4]

الثاني : يروون عن « أَبِي عُبَيْدَة بن الْجَرَّاح » (رضي الله عنه) **أنه قَبَّل يَدَ عمر بن الخطاب** (رضي الله عنه) [5] .. ومن هنا قالوا : **إن تقبيل اليَدِ وَارِدٌ في السُّنَّة** ..

ومن تقاليدهم أيضًا : أنه إذا أخطأ المريد في حق أخ له ، فعليه تنفيذ ثلاثة أمور :

١- الاستغفار .

٢- طلب العفو مِمَّنْ أخطأ في حقِّه .

٣- الغرامة ، أو الإنفاق في سبيل الله .

وقد أخذوا مسألة الإنفاق في سبيل الله من توبة « كَعْب بن مَالِك » إذ قال : **يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ ، وَإِلَى رَسُولِهِ** (ﷺ) .. فقَالَ (ﷺ) : (**أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ**)[6] .. وهي

---

[1] صلاة الغداة : صلاة الفجر .   [2] أى أنتم العائدون إلى القتال والعاطفون عليه .

[3] الفئة : الجماعة من الناس والطائفة التي تقوم وراء الجيش ، فإن كان عليهم خوف أو هزيمة التجئوا إليها .

[4] رواه أحمد وأبو داود .   [5] ديوان المعاني لأبي هلال العسكري .   [6] رواه البخارى كتاب الوصايا .

التي نزل فيها قول الله تبارك وتعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ ﴾[1] ..

هذا .. وقد اهتم السادة الصوفية بشرح الأخلاق التي يجب أن يتخلَّق بِهَا المريد في سلوكه الطريقَ إلى الله على النحو التالي :

• التَّوَاضُع :

وهو : رعاية الاعتدال بين الكِبْر ، والضِّعَة .. وهو قسمان :

١- التواضع لأمر الله ونَهْيِه : وذلك بالسمع والطاعة ..

٢- التواضع لِعَظَمَةِ الله : وهو ما يَصْعُب وَصْفُه إلا من خلال خُلُق الرسول (ﷺ) ، وعباداته ..

أما « الكِبْر » : فهو أن يَظُنَّ الإنسان فى نَفْسِهِ أنه أَكْبَرُ من غيره .. و« التَّكَبُّر » : هو أن يُظْهِرَ ذلك .. وأما « الضّعة » : فهى قريبة من الْمَذَلَّة ، وهى أن يُذِلَّ الإنسان نَفْسَه لِمَطْلَبٍ دُنْيَوِيٍّ ، مما يؤدِّى به إلى تضييع حَقِّه .. والشيوخ ، والراسخون في العلم يستطيعون أن يضعوا أنفسهم فى موضعها على صراط العِزَّة المنصوب على مَتْن نَارِ الكِبْر .. إذ إن « العزَّة » تشبه الكِبْر من حيث الصورة وتَخْتَلِف عنه مضْمُونًا ، فالعِزَّةُ محمودة ، وهي معرفة الإنسان بحقيقة نفسه فلا يُعَرِّضها للمهانة ، وأما الكِبْرُ فهو مَذْمُومٌ ، فالله تبارك وتعالى

---

[1] سورة التوبة آية ١٠٣ .

يقول : (إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ)[1] .. ويقول : (أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ)[2] .. بينما يقول : (وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ)[3] .. ويقول المصطفى (ﷺ) : (**يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ**[4] **فِي صُوَرِ الرِّجَالِ ، يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ**)[5] .. والكِبْرُ محله الصَّدْر ، وتتشعَّب من الكِبْرِ شُعَبٌ بعضها أكْثَف من بعض : كالتِّيه ، والزَّهْو .. ومن تكبَّر فقد أخبر عن نَذَالَةِ نَفْسِه ، ومن تواضَع فقد أظهر كَرَمَ طَبْعه .. ولقد كان الحظُّ الأوْفرُ من التواضع لنبيِّنا (ﷺ) ..

• الْمُدَارَاةُ واحْتِمَالُ الأَذَى :

يعتبر السادة الصوفِيَّةُ المداراة من الأخلاق المطلوبة ، ويقولون : (**دَارِهِم ، ما دُمْتَ فِى دَارِهِمْ .. وأَرْضِهِمْ ، مَا دُمْتَ فِى أَرْضِهِمْ**) .. على ألا يخرج ذلك عن حد الأمْرِ ، والنَّهْى .. ويضربون للمُدَارَاة مثالاً مما رواه « أبو هريرة » (رضي الله عنه) قال : (**مَا عَابَ النَّبِيُّ** (رضي الله عنه) **طَعَامًا قَطُّ ، إِنِ اشْتَهَاهُ أَكَلَهُ ، وَإِنْ كَرِهَهُ تَرَكَهُ**)[6] ، وذلك مداراة منه لِمَنْ أعدَّ الطعام ، ويُرْوَى عن « أنس بن مالك » (رضي الله عنه) أنه قال : **خَدَمْتُ النَّبِيَّ** (ﷺ) **عَشْرَ سِنِينَ ، فَوَاللَّه مَا قَالَ لِي لِشَيْءٍ صَنَعْتُهُ : (لِمَ صَنَعْتَ هَذَا هَكَذَا ؟) ، وَلاَ لِشَيْءٍ لَمْ أَصْنَعْهُ : (لِمَ لَمْ تَصْنَعْ هَذَا**

---

[1] سورة النحل آية ٢٣ . [2] سورة الزمر آية ٦٠ . [3] سورة المنافقون آية ٨ .
[4] أمثال الذر : أى فى الصغر والحقارة .. و« الذّرّ » : النمل الأحمر الصغير .
[5] رواه الترمذى كتاب صفة القيامة . [6] رواه البخارى كتاب الأطعمة .

هَكَذَا ؟)[١] .. وكان دائمًا يقول : (**قَدَّرَ اللَّهُ ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ**)[٢] ..

ولقد كان لرسول الله (ﷺ) وصايا فى الْمُدَارَاة ، واحتمال الأذى ، منها قوله : **(مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ ، دَعَاهُ اللَّهُ عَلَى رُءُوسِ الْخَلاَئِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ فِي أَيِّ الْحُورِ شَاءَ)**[٣] ، وقوله (ﷺ) : **(الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ ، وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ ، أَعْظَمُ أَجْرًا مِنَ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لاَ يُخَالِطُ النَّاسَ ، وَلاَ يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ)**[٤] ، وقوله (ﷺ) : **(مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الْخَيْرِ ، وَمَنْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ فَقَدْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ الْخَيْرِ)**[٥] ، وقوله (ﷺ) : **(حُرِّمَ عَلَى النَّارِ كُلُّ هَيِّنٍ لَيِّنٍ ، سَهْلٍ قَرِيبٍ مِنَ النَّاسِ)**[٦] ..

وباحتمال الأذى يظهر جوهر النفس ..

• الإِيثَــــارُ :

وهو خُلُقٌ يَحْمِلهم عليه فرط الشَّفقة ، والرحمة ، وقُوَّة اليقين .. و« الإيثار » هو : أن تفرِّق المجمُوع ، وأن تُؤْثِر بالموجود ، وألا تطلُبَ المفقود .. والقرآن يُشير إليه فى قول الله تعالى : (وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ

---

[١] رواه البخارى كتابي الأدب والديات .
[٢] رواه مسلم وابن ماجه .
[٣] رواه ابن ماجه كتاب الزهد .
[٤] رواه ابن ماجه كتاب الفتن .
[٥] رواه الترمذى كتاب البر والصلة .
[٦] رواه أحمد مسند المكثرين من الصحابة .

كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٌ)[1] .. وللإيثار سَنَد من السُّنَّة ، فعن « أبي هريرة » (رضي الله عنه) قال : أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّه ، أَصَابَنِي الْجَهْدُ [2] .. فَبَعَثَ إِلَى نسَائه فَقُلْنَ مَا مَعَنَا إِلاَّ الْمَاءُ .. فَقَالَ رَسُولُ اللَّه (صلى الله عليه وسلم) : (**أَلاَ رَجُلٌ يُضَيِّفُهُ هَذِه اللَّيْلَةَ يَرْحَمُهُ اللَّهُ ؟**) .. فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ : **أَنَا يَا رَسُولَ اللَّه** .. فَانْطَلَقَ بِه إِلَى امْرَأَتِه ، فَقَالَ : **أَكْرِمِي ضَيْفَ رَسُولِ اللَّه** (صلى الله عليه وسلم) ، فَقَالَتْ : **مَا عِنْدَنَا إِلاَّ قُوتُ صِبْيَانِي** .. فَقَالَ : **هَيِّئِي طَعَامَك ، وَأَصْبِحِي سِرَاجَك** [3] ، **وَنَوِّمِي صِبْيَانَك إِذَا أَرَادُوا عَشَاءً** .. فَهَيَّأَتْ طَعَامَهَا ، وَأَصْبَحَتْ سِرَاجَهَا ، وَنَوَّمَتْ صِبْيَانَهَا ، ثُمَّ قَامَتْ كَأَنَّهَا تُصْلِحُ سِرَاجَهَا فَأَطْفَأَتْهُ ، فَجَعَلاَ يُرِيَانِه أَنَّهُمَا يَأْكُلاَنِ ، فَبَاتَا طَاوِيَيْنِ [4] .. فَلَمَّا أَصْبَحَ الرجل غَدَا إِلَى رَسُولِ اللَّه (صلى الله عليه وسلم) فَقَالَ : (**لَقَدْ عَجِبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ – أَوْ ضَحِكَ – مِنْ فُلانٍ وَفُلانَةَ**) .. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : (وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ)[5] .. [6]

كما قيل إن الآية الكريمة السابق ذكرها نزلت لَمَّا دعا النبى (صلى الله عليه وسلم) الأنصار بعد غزوة « بَنِى النَّضِير » وشكرهم فيما صنعوا مع المهاجرين في إنزالهم إياهم في منازلهم ، وإشراكهم في أموالهم ، ثم قال : (**إِنْ أَحْبَبْتُمْ قَسَمْتُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيَّ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ ، وَكَانَ الْمُهَاجِرُونَ عَلَى مَا هُمْ**

---

[1] سورة الحشر آية ٩ . [2] الجهد : الشدة والمشقة . [3] أصبحى سراجك : أى أوقديه .
[4] طاويين : أى بغير عشاء . [5] سورة الحشر آية ٩ .
[6] رواه البخارى كتابى المناقب ، وتفسير القرآن .

عَلَيْهِ مِنْ السُّكْنَى فِي مَسَاكِنِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ .. وَإِنْ أَحْبَبْتُمْ أَعْطَيْتُهِمْ ، وَخَرَجُوا مِنْ دُورِكُمْ) .. فَتَكَلَّمَ « سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ » و« سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ » فَقَالاَ : **يَا رَسُولَ اللهِ بَلْ تَقْسِمُهُ لِلْمُهَاجِرِينَ وَيَكُونُونَ فِي دُورِنَا كَمَا كَانُوا** .. وَنَادَتْ الأَنْصَارُ : **رَضِينَا وَسَلَّمْنَا يَا رَسُولَ اللهِ** .. فقَالَ رَسُولُ اللهِ (ﷺ) : (**اللَّهُمَّ ارْحَمْ الأَنْصَارَ ، وَأَبْنَاءَ الأَنْصَارِ**) ، وقَسَمَ مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْهِ ، وَأَعْطَى الْمُهَاجِرِينَ ، وَلَمْ يُعْطِ أَحَدًا مِنْ الأَنْصَارِ مِنْ ذَلِكَ الْفَيْءِ شَيْئًا ، إلاَّ رَجُلَيْنِ كَانَا مُحْتَاجَيْنِ : « سَهْلَ بْنَ حُنَيْف » ، و« أَبَا دُجَانَةَ » ، وَأَعْطَى « سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ » سَيْفَ ابْنِ أَبِي الْحُقَيْقِ ، وَكَانَ سَيْفًا لَهُ ذِكْرٌ عِنْدَهُمْ .. [1]

وهذا هو الإيثار ، وهناك مَنْ يقول إن السَّخَاء ، والإيثار فى السادة الصوفية موجود بِهِم طبعًا ، إلى جانب وجود اليقين عندهم شَرْعًا ، وهو يقين وثقة بأن ما فى يد الله أكثر مما فى أيديهم ، وأضمن ..

ومن الإيثار : أن تقدِّم حقوق الْخَلْق أجمع على حَقِّك ، لا تميز فى ذلك بين أخ ، وصاحب ، وغريب .. ومَنْ صحب الصوفية فليصحبهم بلا نَفْسٍ ، ولا مِلْك ، فمَنْ نظر إلى شيء من أسبابه قطعه ذلك عن بلوغ مقصده ..

أما السَّخاء فهو غريزة ، وهِبَة من الله لا تُكْتَسَبُ ، ولذلك فإن كل سَخِيٍّ جواد ، وليس كل جواد سَخِيًّا ، والجواد أقل من السَّخِيِّ ، ذلك أنه ينفق ابتغاء العوض الدنيوي ، أو الأخروي ، أما السَّخِي فهو الذى يُنفق بغير انتظار للعوض

---

[1] تفسير القرطبي ، والحديث ذكره الواقدي في المغازي .

لا دُنْيا ، ولا أُخْرَى .. إذ يرى أن ما عنده ليس مِلْكه ، وأن الخلق أحقّ منه .. والسخاء أتم وأكمل من الجود .. ذلك أنه لا يتطرَّق إليه رياء ، لأنه ينبع من النَّفْس الزَّكِيَّة المرتفعة عن أعواض الدنيا والآخرة مصداقًا لقول الله تعالى : (إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا)[1] ..

والْخُلُقُ الذى يقابل السَّخاء ، وينهون عنه هو « الشُّحُّ » .. والله تعالى يقول : (وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ)[2] .. وهو ما يعنى أن الشُّحَّ مرض من أمراض النَّفْس ، متأصِّل فى كل الناس بالغريزة ، وهو أخطر وأعمُّ من البُخْل ، فالشحيح قد يَبْخَل حتى بالنصيحة ..

• الإِحْسَــانُ :

يسوق الصوفية قول « الشعبي » : كان « عيسى ابن مريم » (عليه السلام) يقول : **(إنَّ الإِحْسَانَ لَيسَ أَنْ تُحْسِنَ إِلَى مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْكَ ، إِنَّمَا تِلْكَ مُكَافَأَةٌ بِالْمَعْرُوف ، ولَكِنَّ الإحْسَانَ أَنْ تُحْسِنَ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ)**[3] .. ويقول النبى (ﷺ) : **(أَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَكْرَمِ أَخْلاَقِ الدُّنْيَا والآخِرَة ؟ أَنْ تَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ ، وتَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ ، وتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ)**[4] .. ويقول (ﷺ) : **(لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِئِ ، وَلَكِنِ الْوَاصِلُ الَّذي إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا)**[5] .. ويقول (ﷺ) :

---

(1) سورة الإنسان آية ٩ .
(2) سورة التغابن آية ١٦ .
(3) رواه أحمد بن حنبل في الزهد عن الشعبي موقوفًا .
(4) رواه البيهقي فى شُعَب الإيمان .
(5) رواه البخاري كتاب الأدب .

(**لاَ تَكُونُوا إِمَّعَةً ، تَقُولُونَ : إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا ، وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا ، وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ : إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا ، وَإِنْ أَسَاءُوا فَلاَ تَظْلِمُوا**)[1] .. ويقول (ﷺ) : (**وَإِنْ سَبَّكَ رَجُلٌ بِشَيْءٍ يَعْلَمُهُ فِيكَ ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ فِيهِ نَحْوَهُ ، فَلاَ تَسُبَّهُ ، فَيَكُونَ أَجْرُهُ لَكَ ، وَوِزْرُهُ عَلَيْهِ**)[2] .. ويقول (ﷺ) : (**ثَلاثٌ كُلُّهُنَّ حَقٌّ : لَيْسَ عَبْدٌ يُظْلَمُ بِمَظْلَمَةٍ فَيُغْضِي**[3] **ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ ، إِلاَّ أَعَزَّهُ اللهُ بِهَا نُصْرَةً .. وَلَيْسَ عَبْدٌ يَفْتَحُ بَابَ عَطِيَّةٍ ، يَبْتَغِي وَجْهَ اللهِ ، أَوْ صِلَةً إِلاَّ زَادَهُ اللهُ بِهَا كَثْرَةً .. وَلَيْسَ عَبْدٌ يَفْتَحُ بَابَ مَسْأَلَةٍ يَبْتَغِي بِهَا كَثْرَةً ، إِلاَّ زَادَهُ اللهُ بِهَا قِلَّةً**)[4] ..

والإحسان أن تعمَّ ولا تخصَّ ، كالشمس ، والرِّيح ، والغَيْث .. وقد قال أحد الصحابة : **يَا رَسُولَ اللَّهِ ، رَجُلٌ نَزَلْتُ بِهِ فَلَمْ يَقْرِنِي**[5] ، **وَلَمْ يُكْرِمْنِي ، ثُمَّ نَزَلَ بِي .. أَقْرِيهِ ، أَوْ أَجْزِيهِ بِمَا صَنَعَ ؟!** .. قَالَ : (**بَلِ اقْرِهِ**)[6] ..

والله تبارك وتعالى يقول : (وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)[7] ..

---

[1] رواه الترمذي كتاب البر والصلة .
[2] رواه أحمد مسند المكيين .
[3] يغضي : يتجاوز عن الأمر .
[4] رواه الطبراني في المعجم الأوسط .
[5] القِرَى : الضيافة وحسن الوفادة .
[6] رواه أحمد مسند المكيين .
[7] سورة فصلت الآيتان ٣٤ ، ٣٥ .

• البَشَاشَةُ والنُّزولُ إلى أَخْلاَقِ النَّاسِ :

يقول المصطفى (ﷺ) : (**كُلُّ مَعْرُوف صَدَقَةٌ ، وَإِنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهِ طَلْقٍ ، وَأَنْ تُفْرِغَ مِنْ دَلْوِكَ فِي إِنَاءِ أَخِيكَ**)[1] .. ويقول : (**تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ**)[2] .. ويقول : (**لَنْ تَسَعُوا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ ، فَلْيَسَعهُمْ مِنكُمْ بَسْطُ وَجْه ، وَحُسْنُ خُلُقٍ**)[3] .. والله تبارك وتعالى يقول : (سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ)[4] .. وكما تظهر السِّيما على الوجه – من أثر السجود – يظهر البِشْرُ على الوَجْهِ من نُورِ القَلْبِ ، فهذه الطلاقة مع الناس دليل على نور القَلْبِ ، وعلى اليَقِين ، وعلى أن هذا القَلْب مُتَّصِلٍ بالْمَلَكُوت الأعلى .. أما العبوس فليس من أخلاقهم ، ولا يكون بكاء الصوفي إلا في خلوته لقول النبى (ﷺ) : (**وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ**)[5] .. وهم يهتمون جدًّا بالبِشْرِ فى الوجه لقول الحق تبارك وتعالى : (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ)[6] ..

وحين سُئِلَتْ السيدة « عائشة » (رضي الله عنها) عن رسول الله (ﷺ) : كيف هو إذا خَلاَ مَعَ نِسَائِه ؟ .. قالت : (**كَانَ أَكْرَمَ النَّاسِ ، وأَلْيَنَ النَّاسِ ، وأَحْسَنَهُمْ خُلُقًا ، وكَانَ رَجُلاً مِنْ رِجَالِكُمْ ، وكَانَ بَسَّامًا ضَحَّاكًا**)[7] ..

---

(1) رواه الترمذي كتاب البر والصلة .
(2) رواه الترمذي كتاب البر والصلة .
(3) رواه ابن أبي شيبة كتاب الأدب .
(4) سورة الفتح آية ٥٩ .
(5) رواه البخاري كتاب الأذان .
(6) سورة عبس الآيتان ٣٨ ، ٣٩ .
(7) رواه هنَّاد بن السِّري في الزهد .

وكان (ﷺ) يُمَازِحُ ، ولا يقول إلا حقًّا ، فعن « أَبِي هُرَيْرَةَ » (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال : (**إِنِّي لاَ أَقُولُ إِلاَّ حَقًّا**) .. فقَالَ بَعْضُ أَصْحَابِهِ : (**فَإِنَّكَ تُدَاعِبُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ !!**) .. فَقَالَ : (**إِنِّي لاَ أَقُولُ إِلاَّ حَقًّا**)[1] .. وحين رأى (ﷺ) أصحابه يتضاحكون بصوت مرتفع وبإفراط قال لهم : (**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً ، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا**)[2] ..

والضَّحِكُ من سِمات الإنسان التى تميزه عن الحيوان ، والله أضحك وأبكى .. وقد كان (ﷺ) يَضْحَكُ حتى تَبْدُو نَوَاجُذُهُ [3] .. والمزاح مطلوب ، ولكن دون إفراط ، وإلا أذهب البهاء ، وجرَّأ السُّفَهاء ، وكان مَقْطَعَةً للإِخَاء ، ودون تفريط حتى لا يغيظ الْمُؤْنِسِينَ ، أو يُوحِشَ الْمُخَالِطين .. وبالتالى فلابد من رعاية الاعْتِدَال .. وهم يطالبون بالعَفْو ، والتَّجاوز ، والنُّزُول إلى أخلاق الناس وفقًا لطباعهم ، وذلك لنظرهم إلى سِعَةِ رَحْمَة الله عز وجل ..

ولقد اتَّصف أصحاب رسول الله (ﷺ) أيضًا بالبِشْرِ والطَّلاَقَة ، والنُّزُول إلى أخلاق الناس ، ولقد كان التابعيّ « ابن سيرين » يَجْلِسُ المجلس فيكون صَبِيًّا مع الصِّبْيَة ، وكَهْلاً مع الكُهُول .. والسادة الصوفية إذا كانوا مع الناس مازَحُوهم ، وإذا خَلَوْا إلى أَنْفُسِهِم اكْتَسَوْا بملابس الأحْوالِ ، والأَعْمَال ، وكانوا دائمًا يراعون الاعتدال .. ويزعمون أن الاعتدال فى هذا الشأن لا يقوى عليه إلا الصُّوفِي الذى قَهَرَ نَفْسَه ، وعَلِمَ أخلاقها ، وطباعها فيسوسها بِعِلْمٍ حتى يصل إلى

[1] رواه أحمد باقي مسند المكثرين .   [2] رواه البخارى فى الأدب المفرد .   [3] نواجذه : ضروسه .

صِرَاطِ الاعتدال ، بين الإِفْرَاط والتفريط ، أما المريدون فلا يَصح لهم الإِكْثَارُ من الْمُمَازحة لِقلَّة عِلْمهم ومعرفتهم بالنَّفْس ، ولتعدِّيهم حَدَّ الاعتدال ، فَلِلنَّفْس فى هذه المَوَاطِن وَثَبَاتٌ تجرُّ إلى الفساد ، وتَجْنَحُ نحو العِنَادِ .. والنُّزُول إلى طباع الناس يَحْسُنُ لدى مَنْ صَعِدَ عنهم وترقَّي بعُلُوِّ حالِه ومقامه فيَنْزِل إليهم ، وإلى طباعهم بعلم وبقصد التَّرْويح لِعِلْمِهِ بحاجة القَلْبِ إلى ذلك ..

• تَرْكُ الْغَضَبِ والْمُجَادَلَة والْمِرَاءِ إلاَّ بِحَقٍّ :

يُرْوَى عَنْ « جَارِيَةَ بْنِ قُدَامَةَ السَّعْديّ » أَنَّهُ سَأَلَ رَسُولَ اللَّه (ﷺ) فَقَالَ : **يَا رَسُولَ اللَّه ، قُلْ لِي قَوْلاً يَنْفَعُنِي ، وَأَقْلِلْ عَلَيَّ لَعَلِّي أَعيه** .. فَقَالَ رَسُولُ اللَّه (ﷺ) : (**لاَ تَغْضَبْ**) .. فَأَعَادَ عَلَيْه مِرَارًا ، كُلُّ ذَلكَ يَقُولُ : (**لاَ تَغْضَبْ**)[1] .. وقد بيّن النبى (ﷺ) علاج الغضب بقوله : (**إِنَّ الْغَضَبَ جَمْرَةٌ فِى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ .. أَلَمْ تَرَوْا إِلى انْتِفَاخِ أَوْدَاجِهِ ، وحُمْرَةِ عَيْنَيْه ؟ فَمَنْ أَحَسَّ مِنْ ذَلكَ شيئًا : فَإِنْ كَانَ قَائمًا فليقعد ، وَإِن كَانَ قَاعدًا فَلْيَضْطَجِعْ**)[2] .. وبقوله : (**إِنَّ الْغَضَبَ مِنَ الشَّيْطَان ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ خُلِقَ مِنَ النَّارِ ، وَإِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ بِالْمَاءِ ، فَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ**)[3] ..

والغضب لا يخرج عن أحد الاحتمالات الآتية :

١- أن تَغْضَبَ على مَنْ هو أقوى منك : فلا تَقْوَى على إنفاذ غضبك فيه

---

[1] رواه أحمد مسند البصريين . [2] رواه البيهقى فى شُعَب الإيمان . [3] رواه أبو داود كتاب الأدب .

فيورثك هذا الهمَّ ، والحزن ، والكَمَدَ ..

٢- أن تَغْضَبَ على مَنْ هو دونك : فتبطش ، وتَظْلم ، وتتجاوز الْحَدَّ ..

٣- أن تَغْضَبَ على مَنْ هو مُشَاكِلٌ لك : فيتردَّد القلب بين الكَمَدِ ، والغَضَبِ ..

والصوفي بريء من كل ذلك لأنه يرجع الأمر كُلَّه إلى الله فهو الفعَّال لِمَا يريد ، فإن أصابه ضُرٌّ على يَد مَنْ هو أَقْوى منه ، لم يغضب عليه ، لأن الضار هو الله .. وإن كان مِمَّن هو دونه أخذ بقول الله تعالى : (ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ)[1] ، وقوله تعالى : (وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡ)[2] ..

والْجِدَال قد يكون بحق وقد يكون بالباطل أو بغير علم : فأما إن كان بالحق فيجب أن يكون بالْحُسْنَى لقول الله سبحانه وتعالى : (وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنًا)[3].. (وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُ)[4] .. (وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُ)[5] .. أما إن كان الجدال عن غير علم ، أو جَدَلاً بالباطل ، فذاك ليس هدفه إظهار الحق ، وإنما هدفه التفاخر والتباهى والانتصار على الخصم .. والدافع لذلك هو الكِبْر المهلك لصاحبه .. والنبي (ﷺ) يقول : (**مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلاَّ أُوتُوا الْجَدَلَ**)[6] .. ويقول : (**مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ**

---

[1] سورة فصلت آية ٣٤ . [2] سورة النور آية ٢٢ . [3] سورة البقرة آية ٨٣ .

[4] سورة العَنْكَبوت آية ٤٦ . [5] سورة النَّحْل آية ١٢٥ . [6] رواه الترمذى كتاب تفسير القرآن .

لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ ، أَوْ لِيُبَاهِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ ، أَوْ لِيَصْرِفَ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ فَهُوَ فِي النَّارِ)[1] ..

والصوفى الحقيقى بُغْيَتُهُ الحقُّ ، كما أن الْحِكْمَة هى ضالَّة كل مؤمن ، أينما وجدها فهو أَوْلَى بهَا ، والرسول (ﷺ) يقول : (**أَنَا زَعِيمٌ** [2] **بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ** [3] **لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا ، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا ، وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ)**[4] ..

ولا يُنْزَع الْمِرَاء إلا من نفوس زَكيَّة انْتُزِع منها الغِلّ ، وهو مراء البَاطِن ، ويقول أحد الحكماء : كَيْفَ يَبْقَى الغِلُّ فِى قُلُوبٍ ائْتَلَفَتْ بِاللهِ ، واتَّفَقَتْ عَلَى مَحَبَّتِهِ ، واجْتَمَعَتْ عَلَى مَوَدَّتِهِ ، وأَنِسَتْ بِذِكْرِهِ .. فالناس رجلان : رجل طلب ما عند الله تعالى ، ويدعو إلى ما عند الله نَفْسَهُ وغَيْرَه .. وليس للمحقِّق الصوفي مع هذا الرجل منافسة ، ولا مِرَاء ، ولا غِلّ .. ذلك أنَّهما معًا على طريق واحد .. ورجل مُفْتَتَن بشيء من محبَّة الْجَاه ، والمال ، والرياسة ، ونظر الخلق ، وللصُّوفي مع هذا الرجل نظرة رَحْمَةٍ ، وشَفَقَةٍ ، إذ يراه محجوبًا مُفْتَتَنًا فلا يحمل له غِلاًّ ..

وعن « أَنَسٍ » (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال : (**ثَلاَثٌ مُهْلِكَاتٌ : شُحٌّ مُطَاعٌ ، وَهَوىً مُتَّبَعٌ ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ .. وثَلاَثٌ مُنْجِيَات : خَشْيَةُ اللهِ**

---

[1] رواه ابن ماجه فى المقدمة .
[2] زعيم : ضامن وكفيل .
[3] رَبَض الجَنَّة : المراد ما حول الجنة وفى أطرافها .
[4] رواه أبو داود كتاب الأدب .

فِى السِّرِّ والْعَلاَنِيَة ، والْقَصْدُ فِي الْغِنَى والْفَقْرِ ، وكَلِمَةُ الْحَقِّ فِي الرِّضَا والْغَضَبِ)[1] ..

• التَّوَدُّد ، والتَّآلُفُ ، وتَرْكُ الْمُخَالَفَةِ مَعَ الإِخْوَانِ :

وهم يستندون فى ذلك إلى قول الله تعالى : (وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ)[2] .. وقوله : (فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا)[3] .. وقوله : (وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ)[4] .. ثم وَصْفه تعالى لأصحاب النبى (ﷺ) : (أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ)[5] .. وهم أيضًا يأخذون بقول النبي (ﷺ) : (**مَثَلُ الْمُؤْمِنَيْنِ إِذَا الْتَقَيَا مَثَلُ الْيَدَيْنِ : تَغْسِلُ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى**)[6] .. والسادة الصوفية يقولون : **إِنَّ الْمُؤْمِنَ مِرْآةُ أَخِيه .. ولِقَاءُ الْمُؤْمِنِ بالْمُؤْمِنِ لِقَاحٌ – إذ يُلَقِّحُ كُلٌّ مِنْهُمَا بَاطِنَ الآخَرِ .. والنَّظَرُ إِلَى وُجُوهِ أَهْلِ الصَّلاَحِ فِيه صَلاَحٌ .. ومَنْ جَالَسَ جَانَسَ .. ومَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ كَتَاجِرِ الْمِسْكِ إِذَا لَمْ تَأْخُذْ مِنْهُ نَفَحَكَ ، وإِذَا لَمْ يَنْفَحْكَ لَمْ تُحْرَمِ الرِّيحَ ، ومَثَلُ الْجَلِيسِ السَّيِّئِ كَنَافِخِ الْكِيرِ ، إِذَا لَمْ تُصِبْكَ نَارُهُ أَصَابَكَ شَرَارُهُ ، وإِذَا لَمْ يُصِبْكَ شَرَارُهُ أَصَابَكَ دُخَانُه ..**

وإذا جلس العبد الصالح حفَّته الملائكة لأنه في ذِكْر دائم لله ، وفي حَضْرَةٍ مع

---

[1] رواه البيهقى فى شعب الإيمان . [2] سورة الأنفال آية ٦٣ . [3] سورة آل عمران آية ١٠٣ .
[4] سورة آل عمران آية ١٠٣ . [5] سورة الفتح آية ٢٩ . [6] رواه ابن شاهين في آداب الصحبة .

الله ، وأحاط به مجال إذا دخلتَ فيه أصابك ما فيه من حال .. وكذلك أهل الفساد ، وأهل الغضب ، وأهل الشَّرِّ .. إذا جلس أحدهم فهو في غضب ، ونزل عليه السَّخطُ ، وحَفَّته الشياطين ، وأحاط به مجال إذا دخل فيه أحد جَذَبَهُ إليه دون أن يشعر .. وللرسول (ﷺ) في ذلك قَول فَصْلٌ ، فعَنِ « ابْنِ عُمَرَ » (رضي الله عنهما) قَالَ : **لَمَّا مَرَّ النَّبِيُّ (ﷺ) بِالْحِجْرِ** [(١)] **قَالَ : (لاَ تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ إِلاَّ أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ) ثُمَّ قَنَّعَ** [(٢)] **رَأْسَهُ ، وَأَسْرَعَ السَّيْرَ حَتَّى أَجَازَ الْوَادِيَ ..** [(٣)]

ومن هنا كانت مطالبة السادة الصوفية بمجالسة الصالحين ، والتودُّد إليهم ، والتحابب ، والتآلف ، وموافقة الإخوان ، وترك المخالفة إذ يقول الله تبارك وتعالى : (وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ)[(٤)] .. فالمخالفة من الشيطان ، والموافقة من الرحمن .. وكذلك يقول النبي (ﷺ) : (**الْمُؤْمِنُ يَأْلَفُ وَيُؤْلَفُ ، وَلاَ خَيْرَ فِيمَنْ لاَ يَأْلَفُ وَلاَ يُؤْلَفُ**)[(٥)] ..

ولقد قِيل : لو تحابَّ النَّاسُ ، وتعاطوا أسباب المحبَّة لاسْتَغْنَوا بِهَا عن العَدَالَةِ .. وقيل : العَدَالَةُ خَلِيفَةُ المحبَّة ، وتستعمل حيث لا توجد المحبَّة .. وقيل : إن طاعة المحبَّة خَيْرٌ من طاعة الرَّهْبَة .. ذلك أن طاعة المحبَّة من الداخل ، وطاعة الرَّهْبَة من الخارج ..

---

(١) الحجر : ديار ثَمُود .

(٢) التقنع : تغطية الرأس وأكثر الوجه برداء أو غيره .

(٣) رواه البخارى كتاب المغازى .

(٤) سورة آل عمران آية ١٠٣ .

(٥) رواه أحمد والطبراني والدارقطني .

ولهذا المعنى كانت صُحْبَةُ الصوفية مُؤَثِّرَة من البعض في البعض لأَنَّهم لَمَّا تحابوا في الله تواصلوا بمحاسن الأخلاق ، ووقع القبول بينهم لوجود المحبَّة ، فانتفع لذلك المريد بالشيخ ، والأخ بالأخ .. ولهذا المعنى أمر الله تعالى باجتماع الناس في كل يوم خمس مرات في المساجد ، وكل أسبوع مرة في الجامع .. فالمؤمن للمؤمن كالبُنْيَان يَشُدُّ بَعْضُه بَعْضًا ..

وهم يرون أن الإنسان سُمِّي « إنسانًا » لأنه يأْنَسُ بما يراه من خير وشر .. والتآلف والتودُّد مُسْتَجلِب للمزيد .. أما العزلة والوحدة فهي تُحْمَدُ إن كانت لاجتناب أرَاذِل الناس ، وأهل الشر .. أما أهل العِلْم ، والصَّفَاء ، والوَفَاء ، والأخلاق الحميدة فالاستِئْنَاس بِهِم استئناس بالله تعالى ، كما أن محبَّتهم محبَّة لله تعالى ، والمتحابون في الله على منابر من نور يوم القيامة ، لا يفزعون إذا فزع الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس ..

• الشُّكْرُ على الإِحْسَان :

الناس في نظر الصوفية قسمان :

أحدهما : حَجَبَهُ الْحَقُّ عن الْخَلْقِ .. والآخر : حَجَبَهُ الْخَلْق عن الْحَقِّ ، والطريق الصحيح الذي يراه هؤلاء القوم ، هو : ألاَّ يَحْجُبَكَ الْحَقُّ عن الْخَلْقِ ، وألاَّ يَحْجُبَكَ الْخَلْقُ عن الْحَقِّ ..

ومن القسم الأول : مُدَّعو التصوف من أرباب الإرادة الذين يحاولون أن يُقَلِّدوا مَنْ هم أعْلَى منهم ، ولكن دون أن ينالوا حظَّهم من العِلْم ، أو من

المجاهدة فهم يَرَوْن أن كل شَيْءٍ من الْحَقِّ رأسًا ، ويَغْفُلُون عن الوسائط ، فلا يشكرون الناس ، ولا يعترفون بالجميل ..

والصوفي الحقيقي يَجِبُ عليه أن يشكر الْمُحْسِنَ على إحسانه ، وأن يَدْعُوَ له ، فالنبي (ﷺ) يقول : (**إذا حَشَرَ الله الْخَلاَئِقَ يَوْمَ الْقِيَامَة ، قَالَ لعَبْد منْ عبَاده اصْطَنَعَ إِلَيْه عَبْدٌ منْ عِبَاده مَعْرُوفًا : هَلْ شَكَرْتَهُ ؟ فَيَقُولُ : أَيْ رَبِّ عَلمْتُ أَنَّ ذَلكَ منْكَ فَشَكَرْتُكَ عَلَيْهِ ، فَيَقُولُ : لَمْ تَشْكُرْنِي ، إِذْ لَمْ تَشْكُرْ مَنْ أَجْرَيْتُ ذَلكَ عَلَى يَدَيْه**)[1] ..

أما القسم الثاني : فهم يغفلون تمامًا عن رَبِّ الناس ، وعن أن الأمور تجري بمَقَادِير ، وأن الله تبارك وتعالى هو الفَعَّال لمَا يريد ، ولا يَقَعُ في مُلْكه إلا ما يريدُ ، ويرون أن الْمَنْعَ والْمَنْحَ في الدنيا مُرَكَّزٌ كُلُّه في الناس ، فيذُمُّون أو يَمْدَحُون ، ويَرْضَوْنَ أو يَسْخَطُون ، وهم غافلون تمامًا عن ربِّ الناس ، الذي خَلَقَهُمْ وما يَعْمَلُون ..

والرسول (ﷺ) لم يَغْفَلْ عن الوسائط ، ولم تَحْجُبْه الأسباب عن المسبِّب ، فكان إذا تناول عند أحد طعامًا شَكَر له ، ودعا له فيقول : (**أَفْطَرَ عِنْدَكُمُ الصَّائِمُونَ ، وَأَكَلَ طَعَامَكُمُ الأَبْرَارُ ، وَصَلَّتْ عَلَيْكُمُ الْمَلاَئكَةُ**)[2] ..

والله تبارك وتعالى في قوله : (وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ)[3] إنما يُثْبِتُ الإيتاءَ ،

---

[1] رواه الطبراني فى المعجمين الأوسط والصغير . [2] رواه أبو داود كتاب الأطعمة . [3] سورة التوبة آية ٥٩ .

والعَطَاءَ لِنَفْسِه ، ولِرَسُوله ، أما الْحَسْبُ فله وَحْدَه ، وهو يُؤَكِّد ذلك في قوله : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ)[1] .. أى أنت والمؤمنون حَسْبُكُم الله ..

أي إن الفضل يُؤْتِيه اللهُ ورسُولُه ، فالله تبارك وتعالى هو المعطي بِيَد رَسُوله ، فالعطاء ظَاهِرًا للرسول (ﷺ) ، وبَاطِنًا لله ، والفَضْل ظاهِرًا للرسول (ﷺ) ، وأصلاً لله ، ومن هنا وَجَبَ على العَبْدِ ألا يغفل عن الأسباب ، ولا يغفل عن مسَبِّبِ الأسْبَابِ .. فقد خلق الله سبحانه وتعالى المسبَّبات والأسباب ورَبَط بينها برباط عَادِي .. فتَرْكُ الأسْبَاب : جَهْلٌ ، وتَرْكُ التَّوَكُّلِ : فِسْقٌ ..

وهم يرون أن الله تبارك وتعالى إذا أَنْعَمَ على عَبْدٍ بنَعْمَةٍ فحَمَده عليها ، عليه أن يَعْلَمَ أن الْحَمْدَ نِعْمَةٌ أَكبَرُ من النعمة التي حمد الله عليها ، وهذه النعمة تحتاج إلى شُكْرٍ ، وإلى حَمْدٍ آخَر .. فيقول : الْحَمْدُ للهِ الَّذِي وَفَّقَنِي لِحَمْدِهِ .. أو كما قيل : شُكْرُنَا مُحْتَاجٌ إلى شُكْر ..

ويقول الصوفية إن النبي (ﷺ) قال : (**أَوَّلُ مَنْ يُدْعَى إِلَى الْجَنَّةِ الْحَمَّادُونَ الَّذينَ يَحْمَدُونَ اللهَ فِي السَّرَّاءِ والضَّرَاءِ**)[2] .. وكان (ﷺ) إذَا رَأَى مَا يُحِبُّ قَالَ : (**الْحَمْدُ للَّه الَّذي بِنِعْمَته تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ**) ، وَإِذَا رَأَى مَا يَكْرَهُ قَالَ : (**الْحَمْدُ للَّه عَلَى كُلِّ حَالٍ**)[3] .. ويقول أيضًا راويًا عن رب العزة : (**لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا خَلَقْتُ الْخَيْرَ وقَدَّرْتُهُ ، فَطُوبَي لِمَنْ خَلَقْتُهُ لِلْخَيْرِ وخَلَقْتُ الْخَيْرَ لَهُ**

[1] سورة الأنفال آية ٦٤ . [2] رواه الطبراني في المعجم الكبير . [3] رواه ابن ماجه كتاب الأدب .

وأَجْرَيْتُ الْخَيْرَ عَلَى يَدَيْه .. أَنَا اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا خَلَقْتُ الشَّرَّ وقَدَّرْتُهُ ، فَوَيْلٌ لِمَنْ خَلَقْتُهُ لِلشَّرِّ وخَلَقتُ الشَّرَّ لَهُ وأَجْرَيْتُ الشَّرَّ عَلَى يَدَيْه)[1] .. فلا يجب أن يغفل العَبْدُ عمَّن أجرى الله الفَضْلَ على يَدَيْهِ ، أو أَنْ تَحْجُبَهُ النِّعْمَةُ عن رُؤْيَةِ الْمُنْعِم ..

• بَذْلُ الْجَـــاه :

لا يكون بَذْل الجاه إلا لأرباب التمْكِين ، وهم أناس تجاوزوا المقامات ، والأحوال وراعوا الأوقات ، وعَزَفَتْ نفوسُهم عن الدنيا ، وتزكَّت ، وأضاءت قلوبُهم بنور الإيمان ، واليقين ، وتلقَّوا من الله النفحات والمشاهدات ، فانعكست على مرايا قلوبِهم الأشياء بماهيتها ، وحقيقتها ، وهؤلاء يمكِّن لهم ربُّهم تبارك وتعالى في نفوس الناس ويلقي عليهم الْهَيْبَة ، والرهبة ، فإذا مكَّن لهم في الأرض أُمِرُوا بالمخالطة ، وتحرَّكوا بالإذن ، ذلك أنَّهم في الأشياء بمراد الله لا بإرادتِهم ، وهؤلاء يجب عليهم بذل الجاه لإخوانِهم المسلمين كافة ، وهم متخلِّصون من صفات النفس ، متمكِّنون من الفناء عنها وعن صفاتِها ، فهم بالله ، ويتحرَّكون في الأشياء بمراد الله فيصلحون ذات الْبَيْنِ ، ويبذلون الجاه للناس ، ولو أصبحت ملوك الأرض جميعًا في خدمتهم ما زاد ذلك في نفوسهم شيئًا ، فهم على ما هم عليه ، ومثلهم في ذلك سيدنا « يُوسُف » إذ يحكي القرآن قول الْمَلِك عنه : (ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى)[2] .. فلما كلَّمه قال : (إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ)[3] .. فلم

---

[1] رواه ابن النجار عن أبي أُمَامَة .

[2] ، [3] سورة يوسف آية ٥٤ .

يُؤَثِّر ذلك في نفس سيدنا « يُوسُف » شيئًا ، ولم يغيّرها ..

ويزعم الصوفية أن بَذْل الجاه هذا لا يصلح إلا لآحاد من الخلق ، وأفراد من الصادقين انسلخوا عن إرادتِهم ، واختيارهم ، وكاشفهم الله تبارك وتعالى بمراده منهم ، فدخلوا في الأشياء بمراده هو ، وهم على بصيرة من ربِّهم .. ولا يَكْمُلُ الرَّجل منهم ما لم يستو في قلبه : الْمَنْعُ والعَطَاءُ ، والعِزُّ والذُّلُّ ، وهنا فقط يصلح له بَذْل الجاه .. فينصر المظلوم ، ويرفع شكوى الضعفاء ، ويسعى في قضاء حاجات الخلق دون انتظار لأجر أو لشكر ، مبتغيًا بذلك كله وجه الله ..

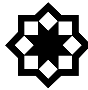
ولا يستحقُّ الرجل منهم الرِّياسة حتى تجتمع فيه ثلاث خصال :

١- أن يَصْرِف جَهْلَه عن الناس .

٢- أن يَحْتَمِل جهل الناس .

٣- أن يَتْرُك ما في أيديهم ، ويبذُل لهم ما في يده .

وهذه الرياسة ليست هي عين الرياسة التي زهد فيها ، وتَعَيَّنَ الزُّهد فيها كضرورة لِصِدْقه وسلوكه ، وإنما هي رياسة أقامها الحق لصلاح خلقه ، فهم فيها بالله ، ويقومون بواجب حقها ، وشكر نعمتها لله تبارك وتعالى ..



الأَدَبُ عِنْدَ الصُّوفِيَّة

يختلف الأدب عن الأخلاق عند السادة الصوفية .. وقد سبقت الإشارة إلى كثير من هذه الأخلاقيات : كالإيثار ، وترك المخالفة ، والكرم ، والسخاء ، والسماحة ، والبشاشة ، والنُّزُول إلى أخلاقيات الناس .. أما الأدب عندهم فينقسم إلى قسمين :

أولاً : أدب عام :

وهو الأَدَبُ مع الْخَلْقِ ، وهو تأديب الشيخ لمريده كي يصبح مُؤَدَّبًا ظاهرًا وباطنًا ، ذلك أن أدب الظاهر عنوان لأدب الباطن ..

ثانيًا : أدب خاص :

وهو الأدب مع الْحَقِّ ، وهو أيضًا أدب الْمُقَرَّبِين في الْحَضْرَة الإلــــٰـــهيَّة ..

والأدب أدبان : أدب في القول ، وأدب في العمل .. وينبع اهتمامهم بالأدب من قول الرسول (ﷺ) : (**مَا نَحلَ وَالِدٌ وَلَدًا مِنْ نَحْلٍ أَفْضَلَ مِنْ أَدَبٍ حَسَنٍ**)[1] .. والنَّبِيُّ (ﷺ) لَمْ يَكُنِ فَاحِشًا ، وَلاَ مُتَفَحِّشًا ، وَكَانَ يَقُولُ : (**إِنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنَكُمْ أَخْلاَقًا**)[2] ..

والله تبارك وتعالى يقول : (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا)[3] .. وهم يرون أن كلمة « سَوَّاهَا » تعني : أعدَّهَا لِقَبُول الصَّلاَح ، ولِقَبُول الفَسَاد ،

---

(1) رواه الترمذى كتاب البر والصلة .
(2) رواه البخارى كتاب المناقب .
(3) سورة الشمس الآيتان ٧ ، ٨ .

وهذه النفس مركوز فيها بالجِبِلَّة السَّجَايَا الحميدة ، والسَّجَايا الخبيثة ، والنفس مَجْبُولَة على سوء الأدب ، والعبد مأمور بِحُسْن الأدب ، والنفس بطبعها سائمة في الأعمال ، والعبد بجهده يَرُدُّها عن غَيِّها كما يَرُدُّ الرَّاعِي غَنَمَهُ عن مَرَاعِي السُّوء .. لذا : (قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا)[1] .. فالسجايا الطَّيبة من خَلْقِ الله تبارك وتعالى ، وهي مركوزة في النفس ، وإنما لابد من إخراجها إلى حَيِّزِ الفعل ، تمامًا كما تخرج النخلة من النَّوَاة ، وكما تُسْتَخْرَجُ النَّارُ من الزِّنَاد ، فهي أساسًا موجودة به ولكنها تحتاج إلى قَدْحِ الزِّنَاد لتخرجَ من حَيِّز القوَّة إلى حَيِّز الفعل ..

والعبد لا يمكن أن يُبَدِّل خَلْقَه ذلك لأنه : (لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ)[2] .. ولكن يمكن أن يتبدَّل خُلُقه بالممارسة ، فالْخَلْق صورة ، والْخُلُق معنى ، وبالتالي فإن وظيفة الشيخ مع المريد هي استخراج السجايا الصالحة الطَّيِّبَة المركوزة فيه إلى حَيِّزِ العمل ، فيصبح من الأبرار .. بخلاف وظيفة أهل الطغيان ، والضلال الذين يستخرجون ما فيه من فُجُور ، فَيَضِلُّ ، ويُشْرِكُ ، ويَطْغَى ، ويصبح من الفُجَّار ..

فالسَّجِيَّة فعل الحق ، ولا قدرة للبشر على تكوينها ، كخلق النار في الزناد فهو من فعل الله المحض ، ولكنها تُسْتَخْرَج بالكَسْب الآدمي .. وقد توصل السادة الصوفية بحسن الممارسة ، والرياضة إلى استخراج ما هو مركوز في النفوس بخلق الله تعالى إلى حَيِّز الفِعْل ، فصاروا مؤدّبين ، مُهَذَّبين ..

---

[1] سورة الشمس الآيتان ٩ ، ١٠ .

[2] سورة الروم آية ٣٠ .

أما عن إساءة الأدب ، فهم يقولون : إنَّ مَنْ أسَاءَ الأَدَبَ عَلَى البساط رُدَّ إلى البَابِ ، ومَنْ أَسَاء الأَدَبَ على البَابِ رُدَّ إلى سِيَاسَة الدَّوَابِّ .. ومَنْ أَسَاءَ الأَدَبَ عَلَنًا عُوقِبَ عَلَنًا .. ومَنْ أَسَاءَ الأَدَبَ سِرًّا عُوقِبَ سِرًّا ..

ويرون أن التوحيد يؤدِّي إلى الإيمان ، فمَنْ كان لا إيمان له فلأنَّه لا توحيد له .. والإيمان يؤدِّي إلى الشريعة ، فمَنْ كان لا شريعة له فلأنَّه لا إيمان له ، ولا توحيد له .. والشريعة تؤدِّي إلى الأدب ، فمَنْ كان لا أدب له فلأنَّه لا شريعة له ، ولا إيمان له ، ولا توحيد له .. وبالأدب تُرْزَقُ العِلْمَ .. وبالعلم تُرْزَقُ العَمَلَ .. وبالعمل تُرْزَقُ الْحِكْمَة .. وبالحكمة تُرْزَقُ الزُّهْد .. وبالزهد تُرْزَقُ حُبَّ الآخرة .. وبحبِّ الآخرة تُرْزَقُ القُرْبَ من الله ..

ويقول أحد كبار تابعي التابعين « أبو عبيد القاسم بن سلام » (رحمه الله) : دَخَلْتُ مَكَّةَ فَكُنْتُ رُبَّمَا أَقْعُدُ بحذَاءِ الكَعْبة ، ورُبَّمَا كُنْتُ أَسْتَلْقِي وأمدُّ رِجْلِي ، فَجَاءَتْنِي « عَائِشَةُ الْمَكِّيَّة » – وكَانَتْ مِنَ العَارِفَات – فقالت لي : **يَا أَبَا عُبَيْد ، يُقَالُ إِنَّكَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ، فَاقْبَلْ مِنِّي كَلِمَةً : لا تُجَالِسه إلاَّ بِأَدَبٍ ، وإلاَّ فَيُمْحَى اسْمُكَ من دِيوَانِ الْقُرْبِ ..** [1]

وقال « ابن عطاء » : **النَّفْسُ مَجْبُولَةٌ عَلَى سُوءِ الأَدَب ، والْعَبْدُ مَأْمُورٌ بِمُلاَزَمَةِ الأَدَب ، فالنَّفْسُ تَجْرِي بِطَبْعِها فِي مَيْدَان الْمُخَالَفَة ، والْعَبْدُ يَرُدُّهَا بِجُهْدِهِ عَنْ سُوءِ الْمُطَالَبَة ، فَمَنْ أَطْلَقَ عَنَانَهَا فَهُوَ شَرِيكُهَا مَعَهَا فِي فَسَادِها ..** [2]

والشيخ يبدأ بتعليم المريد من البداية « علم الدراسة » وينقله إلى « علم

(1) صفة الصفوة لابن الجوزي .
(2) الرسالة القشيرية للقشيري .

الأخلاق » فيُعَلِّمه خُلُقًا تِلْوَ الآخر ، ويربِّيه ويُخَلِّقه به ، وفي الوقت نفسه يعلِّمه الأدب ، وأول ما يبدأ المريد في الدخول إلى الخلوة ، والتكية ، والزاوية ، وما إلى ذلك ، يبدأون معه بالخدمة ، وذلك حتى يتخلَّص من الكِبْر ، والعَنْجَهِيَّة ، والغُرُور ..

ويرى الصوفية فرقًا بين العالِم ، والشيخ .. فالعالِم : يُدَرِّسُ العلم فقط : (**اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ ، اللَّهُمَّ فَاشْهَد**) ، وهو ليس له علاقة بالناس .. أما الشيخ : فهو يُرَبِّي .. ذلك أن هناك فرقًا بين التعليم ، وبين التربية .. وهناك مقولة مؤادها : أنَّ الْعَالِمَ بِلاَ أَتْبَاع ، كَالشَّجَرَة بِلاَ ثِمَار ، فَعِلْمُهُ مَعَهُ ، ولَكِنَّه يَفْنَى بِفَنَائه .. أَمَّا الشَّيْخ بِلاَ أَتْبَاع فَهُوَ كَالْوَرْدَة بِلاَ أَشْوَاك .. ذَلِكَ أَنَّهُ كالأَرْضِ يُطْرَحُ عَلَيْهَا كُلُّ قَبِيحٍ ولا يَخْرُجُ مِنْهَا إِلاَّ كُلُّ مَلِيحٍ ، وسِرُّ الشَّيْخِ فِي مُصَاحَبَتِهِ ، فهو يسْتَخْرِجُ ويَكْشِفُ مَعَادن النَّاس ، ويُعَامِلهم وفقًا لذلك ..

وإذا ما تعلَّم المريد الأدَبَ مع إخوانه ومع مَنْ هم أفضل منه علمًا ثم مع شيخه ، ثم مع العلماء ، ثم مع سيدنا رسول الله (ﷺ) عارفًا فضل كل هؤلاء ، فإنه يبدأ بعد ذلك في تعلُّم الأدب مع الله في الحضرة ..

• أدَبُ الْحَضْرَةِ الإِلَـٰـهِيَّة :

الأمثلة على أدب الحضرة كثيرة .. فحين سُئِل سيدنا « عِيسَى » (عليه السلام) من رب العزة : (ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ)[1] بماذا أجاب ؟

[1] سورة المائدة آية ١١٦ .

قال كما يحكي القرآن عنه : (سُبۡحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥ)[1] .. ثم استطرد قائلاً : (تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي)[2] .. وقد كان بمقدوره أن يجيب مباشرة بالنفي ، ولكنه الأدب ..

وكذلك سيدنا « أيُّوب » (عليه السلام) كما حكى القرآن عنه في قوله تعالى : (وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ)[3] .. فقد منعه الأدب أن يطلب من الله مباشرة تصريحًا ، أو تلميحًا ، فإن كان أهلاً للرحمة فليرحمه الله .. وكذلك مَنَعَهُ الأدب من أن ينسب الضُّرَّ إلى الله مع أنه تعالى هو الضار النافع ..

كذلك سيدنا « إبراهيم » (عليه السلام) في قوله : (ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ٧٨ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ)[4].. فلما كان المرض يسيء إلى الإنسان ، فقد استحيا أن ينسبه إلى الله ، فلم يقل مثلاً : وإذا أمرضني فهو يشفين .. بل أسند المرضَ إلى نفسه متغاضيًا عن ذكر المسبِّب ..

وغلام سيدنا « موسى » (عليه السلام) ، حكى القرآن قوله حين نسى الحوت : (وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ)[5] ..

ولقد تكلَّم السادة الصوفية عن أدب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في مقام : (**قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى**) وهو مقام القرب عند سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى .. فالله تبارك وتعالى

---

(1) سورة المائدة آية ١١٦ . (2) سورة المائدة آية ١١٦ . (3) سورة الأنبياء آية ٨٣ .
(4) سورة الشعراء الآيات من ٧٨ : ٨٠ . (5) سورة الكهف آية ٦٣ .

يقول : (مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ)[1] .. أي إنه كان في إعراض وإقبال ، فالإعراض هو : (مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ) ، فقد أعرض عن الأرضين السبع ، وأعرض عن الدنيا ، وهي دار البوار ، والغرور ، والزوال ، فما ندم على ما فاته منها ، فالبصر ما زاغ إلى الأرض ، أو السماء ، أو حتى الآخرة ، وإنما أعرض عن كل ما سوى الله ، (وَمَا طَغَىٰ) : وهو مقام الإقبال ، فحين أقبل على الله لم يتجاوز الحد ، و لم يفعل كما فعل سيدنا « موسى » (عليه السلام) إذ قال كما حكى القرآن : (قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ)[2] ، فلم يتجاوز البصرُ البصيرةَ ، وما تجاوز القدمُ البصرَ ، والنظرُ العلمَ ، والقدمُ الحالَ ، أي إنه ما تجاوز الحال العلم .. ولشرح ذلك ، فهم يصفون الْبُرَاق الذي رَكِبَه (صلى الله عليه وسلم) فيقولون : إنه كان يضع قدمه عند منتهى طرفه ، إذاً بصره هناك ، وقدمه عند نِهَاية بصره ، والبصر يؤدِّي إلى عِلْم ، وحين يصل يصبح هناك حالهُ ، أو مقامه ، فحين يبلغ قدم البراق مُنْتَهَى بصره ، يصبح حاله عند علمه ، فلا يتجاوز الحال العلم ، ولا يتأخر العلم عن الحال ..

بعبارة أخرى : (مَا طَغَىٰ) تعني أنه قد أصبح بصره عند قدمه ، وأصبح قالبه هو قلْبه ، وظاهره هو باطنه ، وبصره بصيرته ، فما تأخر البصرُ عن القَدَم ، وما تقدَّم القدمُ عن البصر ، وأصبح محل العلم هو محل الحال هو محل المقام ، وأصبح العلم والقدم في مكان واحد ، فالعلم هو الحال ، والحال هو العلم ، والظاهر هو الباطن ، والباطن هو الظاهر ، والقلب هو القالب ، والقالب هو القلب ، فكان

---

[1] سورة النجم آية ١٧ .
[2] سورة الأعراف آية ١٤٣ .

في أدب الحضرة ..

وفي مقام القرب تحدث إمدادات إلــــــهية ، ونفحات ربَّانيَّة موضعها من العبد في القلب ، والروح .. وحين ترد هذه النفحات والإشراقات ، والإمدادات تَسْتَرق النَّفْسُ السَّمْعَ : (إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ)[1] .. فالقلب والروح هما السماوات العُلاَ ، والنفس هي الشيطان الذي يسترق السمع ، فيتداركها العِلْمُ ، فيردَّها إلى مقامها ، فالقلب والرُّوح وعاء يَتَّسِع لتلقِّي الإشراقات من الله تبارك وتعالى ، ولا نِهَاية لمدى استيعابه واتِّساعه .. لكن النفس ليست وعاء ، وحين تسترق السمع ، وتأتيها الإمدادات ، والإشراقات فإنَّها تستمرئ ، وتصبح في حالة بسط ، فتخرج عن وعيها ، وتبحث عن الحظِّ والنَّصيب وهل من مزيد ؟ فتزيغ وتخطئ ، وقد تختلّ .. لذلك فإن العارفين في مقامهم في الحضرة يحجبون النَّفس عن : إمدادات ، وإشراقات ، ونفحات الحضرة الرَّبانية للرُّوح والقلب حتى لا تسترق السَّمع .. وقد حجب الرسول (ﷺ) نفسه تمامًا ..

تلك تأويلات الصوفية والتي لا نجد تعليقًا عليها ، إلا أنَّها تفتقر إلى السَّنَد .. والأدب مع الله واجب دائمًا ، ولابد من الالتزام به حتى في الدُّعاء ، فالأدب مطلوب : في القول ، وفي العمل .. وكما هو مطلوب مع الله فهو كذلك مطلوب مع الْخَلْقِ ، ثم هو مطلوب أيضًا مع النَّفْس ..

---

(1) سورة الحجر آية ١٨ .

• أدَبُ الْمُرِيد مع الشَّيْخ :

هناك أدبٌ للمريد مع الشيخ ، وأدبٌ للشيخ مع المريد ، وأدبٌ للصُّحْبَة ، وهم يقولون : نحنُ إلى قليلٍ من الأدَبِ أحْوَجُ مِنَّا إلى كَثِيرٍ من العِلْمِ .. وإليك البيان :

١- أوَّل ما يُطْلَبُ من المريد الصَّادق الذي ترك اختياره : أن يثق ثقة مطلقة بشيخه ، وأن يكون مُقْتَنِعًا تمام الاقتناع أنه لن ينفعه غيره ، فهو الأقدر على تربيته ، وأن يوقن أن هذا الشيخ هو المتفرد بالمشيخة ، وأنه هو الأقدر على السلوك به إلى الله ، دون جدل أو سؤال ، ويستندون في ذلك إلى قول الله تعالى عن « الخضر » مع « موسى » : (فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا)[1] ..

٢- أن يُحْسِنَ المريدُ الاستماع ، بأن يتأدَّب بالسكوت في حضرة الشيخ ، ولا يبادئه بالكلام مطلقًا حتى يبدأ هو ، لأن الله تبارك وتعالى يقول : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ)[2].. أي لا تتكلَّموا بين يدي كلامه ، ولا تسبقوه بقول أو فعل حتى يكون هو الذي يأمركم به .. ويجب أن يكون هَمُّ المريد حين يجلس مع شيخه أن يسأله عما يصلح حاله ، وفعله ، وعبادته ، وأخلاقه .. ومع ذلك ، فهذه هي الدرجة الأدنى للمريد ، أما الدرجة العالية للمريد الصَّادق ، فهي ألاَّ يُفَاتِح الشيخ حتى في هذه الأمور ، وإنما يجلس

---

(١) سورة الكهف آية ٧٠ .

(٢) سورة الحجرات آية ١ .

أمامه بصدق ، وبمحبَّة ، فيكاشفه الشيخ وتكون أسئلته كلها في قلبه ، فيقرأها الشيخ ويجيب عنها ..

٣- ألاَّ يرفع صوته فوق صوت الشيخ أبدًا ، وإنما يراعي درجة صوته ، ويَنْزِل عنها لأن الله تبارك وتعالى يقول : (لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ)[١] ..

٤- إذا كان للمريد حاجة فلا يهجم بِهَا على الشيخ ويعرضها عليه ، وإنما ينتظر حتى يرى الشيخ في حالة تسمح له بالكلام معه ، والتلقِّي منه لأنه قد يكون في خلوة ، يتلقَّى فيها من الله تعالى إشراقات وإلهامات ، وذلك حتى يكون للكلام موقعٌ من القبول ، فيعطي المريد ما ينفعه .. وسندهم في ذلك قول الله تعالى : (وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرًا لَّهُمۡ)[٢] ..

٥- يجب أن لا يَغُرّهُ حلم الشيخ ، لأن للشيخ حلمًا ، ومُدَاراة ، ولا يعني نزوله إلى مستواه أن يجترئ عليه ، فَيُكْثِر الكلام في حضرته ، أو يضحك ، أو يُبَاسِط الشيخ إلا بقدر ما يسمح له به ..

٦- إيَّاه ، وأن تحدِّثه نَفْسُه بأن تكون له مَنْزِلة يرقى بِهَا عن مَنْزِلة الشيخ ، وإنما عليه بأن يدعو له أن يرفع الله مقامه ، كما يدعو للنبي (ﷺ) بالوسيلة والفضيلة ، وللصحابة بالرضوان ، ولِمَنْ سبقونا بالإيمان .. ومَنْ لم يعرف حقَّ مَنْ أدَّبه حُرِمَ بركة الأدب ، وإذا ما أنكر المريدُ جميلَ شيخه في تَعْلِيمِه ،

---

(١) سورة الحجرات آية ٢ .
(٢) سورة الحجرات آية ٥ .

وهاجت نَفْسُه نُزِع منه كل علم علَّمه إيَّاه ، أو حُرِمَ الانتفاع به .. وقد قال النبي (ﷺ) : (**مَنْ عَلَّمَ عَبْدًا آيَةً مِنْ كِتَابِ اللهِ فَهُوَ مَوْلاَهُ** [1] ، **لا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَخْذُلَهُ ، ولا يَسْتَأْثِرَ عَلَيْهِ ، فَإِنْ هُوَ فَعَلَ فَصَمَ عُرْوَةً من عُرَى الإِسْلاَم**)[2] ..

٧- ليس للمريد أن يطلب أكثر مما يعطيه الشيخ ، ويشَبِّهُون جلسة المريد مع الشيخ بِرَجُلٍ يجلس على شاطئ البحر ينتظر ما يقذفه ، والمريد عليه أن ينتظر ما يأتي على الشيخ من واردات إلـــهيَّة ، وفتوحات رَبَّانِيَّة ، فيأخذ ما يعطيه إيَّاه دون طلب المزيد .. ولأن المريد أمانة يُسْأَلُ عنها الشيخ ، فإن فرحته بالمنصرف من عنده أشدّ من فرحته بالْمُقْبِل عليه ، لأنه كلما قَلَّت الأمانات كان ذلك أسلم له .. وقد يضطر أحيانًا إلى إبعاد بعض الناس بطريقة أو بأخرى ، ولكن مَنْ كُتِبَ في ديوانه لن يبتعد حتى وإن ضُرِبَ بالسِّيَاط ..

والشيخ حين يكون مع مُرِيديه في خَلْوَة ، أو في جَلْوَة فإنه يتوجَّه إلى الله تبارك وتعالى سائلاً إيَّاه : يَا رَبِّ ، إِنَّكَ قَدْ أَرْسَلْتَهُمْ إِلَيَّ ، وما أنا إلاَّ وَاسِطَة ، فَهَا هُوَ قَلْبِي مَفْتُوحٌ ، مُبَرَّأٌ مِنَ الْهَوَى ، ولا نَفْسَ لِي فَقَدْ مَاتَتْ ، فَأَعْطِنِي يَا رَبِّ مَا تُرِيدُنِي أَنْ أُعْطِيه إِيَّاهُم ..

والشيخ في الْجَلْوَة مع المريدين يكون أحد المستمعين يسمع كما يسمعون ، ويعلم كما يعلمون ، فما يقوله لهم إنما سمعه معهم مثل الغَطَّاس الذي يَنْتَزِع الدُّرَّ ، واللآلئ من قاع البحر ، فقد حازها بالفعل ، ولكنه لا يراها إلا حين يخرج إلى

---

[1] مولاه : أى عبده ، ومِلْك يمينه .
[2] رواه ابن عساكر ، والبيهقي فى شعب الإيمان .

الشاطئ .. فكلام الشيوخ بذور ، وقلوب المريدين أرض تُزْرَعُ فيها هذه البذور ، فَتُنْبِتُ وتُثْمِرُ ، فكلام الشيوخ عطاء ، ونظرهم شفاء ، ومصاحبتهم دواء .. والْمُرِيدُ أمانة الله عند الشيخ يرعاها ، وهو مسئول عنها أمام الله فلا ينطق إلا بالحق ، ومن الحق ، وللحق .. وإذا كان البذر فاسدًا فإنه لا يُنْبِتُ ، وكلام الشيوخ لا يُفْسِدُه إلا أحد أمرين :

(أ) محاولة اسْتِجْلاب القلوب ، وطلب الإقبال عليه من الناس .

(ب) حبُّ الشُّهْرَة ، وكثرة الأتباع .

والشيخ الصادق لا يحب هذا ، أو ذاك ، وإنما يريد أن يكون في خلوة ، وإنما يُجْبَر على الجلوة بإرادة الله تبارك وتعالى ، فإن دخل في قلبه حبُّ كثرة الأتباع فسدت البذرة ، وإذا تكلَّم حينئذ ، فلا ينبت كلامه شيئًا ، ولا يخرج كلامه من القلب ، وإنما من النفس ، أي من الهوى ، ومن اللِّسَان .. وما خَرَجَ من القَلْبِ نَفَذَ إلى القَلْبِ ، وما خَرَجَ من اللِّسَانِ لَمْ يَتَجَاوَز الآذَان ..

أما إذا أصابت الشيخ آفة حبِّ الكلام ، والفرح بِنَفْسِه فإنه يُصِيبُهُ العُجْب ، والعُجْب عندهم خيانة ، لقول الله تبارك وتعالى : (لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ)[1] .. وخيانة الشيخ للأمانة أمر يهلكه ، وهو ابتلاء له ..

أما مَنْ تكلَّم ، وهو متخلِّص من هذه الآفات ، فهو الشيخ الحقيقي ، وهو يتكلم بقلب مفتوح لإلهام الله تبارك وتعالى ، ويصبح أمينًا على هذا الإلهام كما

---

[1] سورة الأنفال آية ٢٧ .

كان سيدنا « جبريل » (عليه السلام) أمينًا على الوحي ، فَيُبْلِغُ مريده ما نزل عليه إلهامًا دون نقص ، أو مزيد ، فمن أين له بالعُجْب وما يقوله ليس منه ، ولا يخصُّه هو ، وإنما يخصُّ المريد ؟! والشيخ ما هو إلا مجرد جهاز استقبال فقط يقوم بإرسال ما يستقبله للمريد ، ومن هنا ، فالمشيخة حِمْلٌ وتَكْلِيفٌ ولَيْسَت تَشْرِيفًا ..

٨- عدم الاعتراض على الشيخ ، ومَنْ يعترض ينطرد ، فالله سبحانه وتعالى يَنْزِع منه حبَّ الشيخ نتيجة لاعتراضه هذا ، ويَنْزِع منه العرفان بالجميل ، كما يَنْزِع منه المعروف ، وأيضًا البركة التي حدثت له ، فيُصَابُ بالضَّجر والاشْمِئْزَاز فَيَنْسَحِب من تلقاء نفسه ، لذلك قالوا : لأن أُدْنَى من بعيد خير من أن أُقْصَى من قريب .. ولكي لا يصل المريد إلى هذا ، وجب على مَنْ تحدِّثه نَفْسُه بأمرٍ من أمور الشيخ ، أو يُشكل عليه حال من أحواله أن يتذكَّرَ قصَّة سيدنا « موسى » و« الخضر » ، فكل ما يبدو أنه غلط إذا شرحه الشيخ وُجِدَ صحيحًا ، ويُؤْذَنُ للمريد أن يسأل ثلاث مرات فقط ، ويُبَرِّرُ له الشيخ فيها ، أما بعد ذلك ، فيكون الفراق بينهما كما حدث بين سيدنا « موسى » و« الخضر » ..

٩- يجب أن تمتلئ نفس المريد بالهيبة من الشيخ ويمتلئ قلبه بتوقيره ، هذا بخلاف المحبة له ، والتي بدونها ما أخذ كلمة منه مهما قال ، وإذا ما امتلأ القلب بالتوقير ، وامتلأت النفس بالهيبة تعلَّم اللِّسان حُسْنَ العبارة ، والرسول (صلى الله عليه وسلم) يقول : (**لَيْسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَمْ يُجِلَّ كَبِيرَنَا ، وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا ، وَيَعْرِفْ**

لِعَالِمِنَا حَقَّهُ)[1] ..

١٠- على المريد عندما تأتيه أحوال ، أو واردات ، أو منامات ، أو إشراقات أن يحدِّث شيخه بِهَا أوَّلاً بأوَّلٍ لكي يأخذ الشيخ بيده ، ويساعده على أن يكون طلبه دائمًا : للمُكْرِم ، وليس للكَرَامَة ..

• أَدَبُ الشَّيْخِ :

لا يصل الشيخ إلى مَرْتَبَة الْمَشْيَخَة إلا بأمرين :

أولا : أن يسلك الطريق من بدايته : فلابد أن يكون أصلاً مُرِيدًا ، صَادِقًا ، تولَّتْه المشايخ ، وسلك بالأدَبِ ، والْخُلُقِ ، وعِلْم الدِّرَاسة ، وجاهد ، وتأدَّب بآداب المريدين ، وفاق أقرانه في : السُّلُوك ، والْخُلُق ، والأدَبِ ، والعِلْم حتى وصل إلى درجة تُؤَهِّلُهُ للمشيخة ..

ثانيا : أن يُؤْذَنَ له ، وأن يُمْنَحَ من الله المشيخة : لأن العَالِم غير الشيخ ، فالعَالِمُ سَالِك سبيل الدَّعْوَة ، والدَّعْوَة عامَّة مُطْلَقَة للبارِّ والفاجر ، للطَّائِع والعاصي ، للمُؤْمن والكافر .. وتكون الدعوة لإثبات الْحُجَّة وبيان المَحَجَّة .. فلقد كان النبي (ﷺ) يدعو كُفَّار قريش ، كما كان يدعو منافقي اليهود ، وأيضًا كان يدعو أصحابه دعوة عامة لا يَخصُّ بِهَا مخلوقًا دون آخر ، وهذه الدعوة العامة إنذار وتبشير ، لقول الله تعالى : (وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ)[2] ..

وهي لإثبات حُجَّة الله على عباده ، وهذا السلوك هو طريق الدَّعْوَة والدُّعاة

---

[1] رواه أحمد باقي مسند الأنصار .

[2] سورة الأنعام آية ٤٨ .

من بعد رسول الله (ﷺ) ، ومثل هذا النوع من الدعوة يحتاج إلى تمكُّن الدَّاعي من العلم وإِذْن له بالإرشاد ..

أما الشيخ فبعد أن يَسْلُك طريق العلم ، ويصبح من العُلَماء ، ويُؤْذَن له بالإرشاد ، فإنه يُمْنَح المشيخة التي تؤهله لتعليم المريدين ، وتربيتهم ، والسلوك بِهِم طريق التصوف ..

ويزعم الصوفية أن المشيخة تُمْنَح بأساليب متعددة : فهي إما أن تمنح على يد شيخه الذي أهَّلَهُ لذلك ، وقد يُلْحِق به بعض المريدين .. وإما أن يوصي له بالمشيخة من بعده .. وإما أن تُمْنَح له المشيخة رأسًا برؤيا يراها ، أو يراها له شيخه ، وهذا لا يكون إلا للمحبوب الْمُرَاد ، وعليه أيضًا أن يُبْلِغَ شيخه بِهَذا فيهنِّئه ، ويبشِّره ، ويؤكِّد له ما رآه ، وأنه بالفعل مُنِحَ المشيخة .. وعندئذ يُؤْذَنُ له بالْجَلْوَة بعد الْخَلْوَة ، فيكشف عن أمره ، أى يكون قد أُذِنَ له بالكَشْفِ عن نَفْسِه ، ويصبح له مريدون ..

وهنا عليه أن يراعي نقطتين رئيسيتين :

الأولى : ألا تَطْغَى جَلْوَتُهُ على خَلْوَتِهِ .. ذلك أنه مهما كان قويًّا رَاسِخًا ، ثابتًا ، فسوف تُؤَثِّر هذه الْجَلْوَةُ عليه ، لأن مَنْ يجلس معهم هم أُنَاسٌ حفَّهم ظلام الطبع والبعد عن طريق الله يأخذون من طين الأرض من تحت أقدامهم ويلقونَهَا على الشيخ لأن طباعهم لازالت غالبة عليهم ، والشيخ له نُور ، فلكي لا تُؤَثِّر هذه الظُّلْمة على النُّور لابد أن يكون الشيخ قويًّا يَغْلِبُ ولا يُغْلَب ، يَفْتَرِس ولا يُفْتَرَس ..

ولما كان هو في النهاية بَشَرًا ، فلابد له من الْخَلْوَة لِيَغْسِلَ فيها آثارَ الْجَلْوَة ، وتُصْبِح هذه الْخَلْوَة مددًا للجَلْوَة ، وتكون الْجَلْوَةُ في فترات فُتُوره للخَلْوَة ، فحين يُنْهِي جَلْوَتَه ، يلجأ إلى خَلْوته بِنَفْسٍ مُشْرَئِبَّة مُشْتَاقة إلى الاخْتِلاء بالْحَبِيبِ فيخْتَلِي بالله ، بنَفْسه ، بمَوَاجِيدِه ، وأحْوَاله ، ويكون له في كلِّ كلمة إلى الله رجوع ، وفي كل حَرَكة بين يدي الله خضوع ، فيَحْمد الله على الفضل ، ويستغفره على الْخَطَإ ..

والرسول (ﷺ) كان في جَلْوَةٍ مستمرة مع الناس ، ولكنه لم يحرم نفسه أبدًا من الْخَلْوَة ، فكان يقوم الليل إلا قليلاً .. وكان ذلك القيام خَلْوَةً له ..

والشيخ لا يستغني عن خَلْوَتِه أبدًا لاسْتِدْرَار الإمداد من الله تبارك وتعالى والتلقِّي والاستماع بقَلْبِه ، ورُوحه إلى الإشراقات ، والنفحات ..

الثانية : عدم السَّعْي إلى الْمُرِيد : وذلك بعكس العالِم الذي يسعى لاستجلاب الأتْبَاع ، ويذهب لدعوتهم في أي مكان ، أما الشيخ فيجب أن يَأْتِيَه المريدون حيثما كان ، وهو يعتبر كل قادم إليه اختبارًا من الله ، فهو الذي أرسله إليه ، وقد يكون نِعْمَة ، كما قد يكون مِحْنَةً وابتلاء .. وعلى أحْسَن الفروض ، فهو أمانة في عُنُقه ، وهو لديه من الأمانات ما يَكْفِي : فالسَّمْع أمانة ، والبَصَر أمانة ، والقلب أمانة ، والمال أمانة ، والأبناء أمانة ، والبنات أمانة ، والوظيفة أمانة ، والنفس أمانة ، والأيام أمانة ، والأوقات أمانة .. وكم تعني هذه الأمانات لشيخ في مقام الْمُشَاهَدَة ، وفي مقام الْمُكَاشَفَة ، وفي مقام التلقِّي ، والذكر بالرُّوح ، والقلب ؟!! فهو قطْعًا يخشى أشدّ الخشية أن يكون مُقَصِّرًا ..

والشيخ قد يُبَلَّغ بأسماء المريدين إما عن طريق رسول الله (ﷺ) منامًا ، أو عن طريق أشياخه ، ومن هنا ، فهو يعرف درجة المريد قبل أن يأتي إليه .. فيبدأ الشيخ في تسليم قَلْبِه لله تبارك وتعالى ، ويدعوه ويلجأ إليه مُسْتَلْهِمًا إعانته عليه ، وتوفيقه لهدايته إلى ما يُصْلِح به شأنه ، ويقرِّبه من ربِّه ، ويترك نَفْسَهُ ، فإذا جاءت الكلمة كان القَلْبُ تُرْجُمَانًا للحقِّ ، كما أن اللِّسَان تُرْجُمَانٌ للجنان .. فتبرأ الكلمة من الْهَوَى ، وعندما يبدأ الشيخ في الكشف بالباطن على مُرِيده ، ويكون ذلك فيما يتعلَّق بالطريق فقط ، يعرف بنور الله آفَةَ هذا المريد : هل هو بَخِيلٌ ؟!! أو مَغْرُورٌ ؟!! أو مُتَمَسِّكٌ بِحُبِّ الدنيا ؟! .. هل عنده غِلٌّ أو حَسَدٌ ؟! .. وكَشْفُ الشيخ لا يُخْطِئ أبدًا لأنه ينظر بنور الله ، فإن نظر إلى عين المريد قَرَأه في ثوان ، وينظر في قلبه فيجتاز الْحُجُبَ ، ويستحيل على الشيخ أن يُذيع سِرًّا لمريده ، وذلك لأن إذاعَة الأسْرَار لا تأتي إلا من ضيق الصَّدْر ، والشيوخ أبْرِيَاء من ذلك .. وإنما تتَّسِعُ صدورهم ، فصدر الإنسان به قُوَّتان : **إحداهما** : قابضة ، وهي التي تتلقَّى المعلومات والأسْرَار ، **والأخرى** : طاردة تُفْشِي هذه الأسرار .. وكلما اتَّسَع صدر الإنسان كانت القُوَّة القابضة أقوى من القُوَّة الطاردة ، وصدور المشايخ تتمركز فيها القُوَّة القابضة فقط .. وإذا علم الشيخ سِرًّا في المريد ، فهو يعالج هذا الدَّاء بحِكْمَةٍ ، ورِفْقٍ ، ولا يَفْضَحُهُ أبدًا حتى أمام نَفْسِه ، فقد يعالجه من دون أن يُفَاتِحَه ، وقد يَسْرِد أخطاء المريدين عُمُومًا وخطأه من بينهم فيشعر به ، ولذلك يقال : إذا تكلَّمَ الشَّيْخُ في وسط مجمُوعَةٍ ، فما تفهمه فهُوَ لَكَ ، أمَّا ما لا تَفْهَمه فَهُوَ لِغَيْرِكَ فلا تَسْأَلْ عنه .. ذلك أن الشيخ يتناول المريد بالرِّفْق

الذي يُؤْنِس ، ثم يتدرَّج به إلى العِلْم .. كذلك فإنه إذا وجد من المريد ضَعْفًا عَلَّمه الرُّخَص ، ووضعه على حدود الرُّخْصة ، فيقوم بالرُّخَص دون العزائم ، وبالتدريج ، والثبات ، والاختلاط بالإخوان ، وبالأصحاب في الطريق تَثْبُت قدمه ، فينقله إلى مَوَاطن العزائم ..

ولكل مريد طريق صلاح ، وقد سُئِل رسول الله (ﷺ) من العديدين فاختلفت الإجابة لكلٍّ وَفْقَ ما هو مُيَسَّر له .. فكم من سائل له : **أَيُّ الأَعْمَالِ أَفْضَلُ ؟** .. فيقول لأحدهم : (**الصَّلاَةُ لِوَقْتِهَا ، وَبِرُّ الْوَالِدَيْنِ ، ثُمَّ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**)(١) ، ولآخر : (**إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، ثُمَّ الْجِهَادُ ، ثُمَّ حَجٌّ مَبْرُورٌ**)(٢) .. ولثالث : (**عَلَيْكَ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لاَ عِدْلَ لَهُ**)(٣) .. ولرابع : (**الْحَالُّ الْمُرْتَحِلُ .. قِيلَ : وَمَا الْحَالُّ الْمُرْتَحِلُ ؟! قَالَ : صَاحِبُ الْقُرْآنِ ، يَضْرِبُ مِنْ أَوَّلِ الْقُرْآنِ إِلَى آخِرِهِ ، وَمِنْ آخِرِهِ إِلَى أَوَّلِهِ ، كُلَّمَا حَلَّ ارْتَحَلَ**)(٤) .. وهكذا ..

وما يمنحه الشيخ لمريده إن هو إلاَّ صَدَقَةٌ ، وهو يُعْطِيه مما أعطاه الله ، وهو لم يدفع فيه شيئًا ، ولا يسأل عليه أجرًا : (وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ)(٥) .. فهو يتعفف عن مال المريد ..

والشيخ يَنْزِل إلى مُسْتَوى المريد ، حتى يكون هناك لقاء ، وتكون هناك صحبة ، فيجد المريد دائمًا الشيخ بجواره إلى أن يرفعه الشيخ بعد ذلك درجة

(١) رواه البخارى كتاب التوحيد .
(٢) رواه البخارى كتاب التوحيد .
(٣) رواه النسائى كتاب الصيام .
(٤) رواه الدارميّ كتاب فضائل القرآن .
(٥) سورة الشعراء آية ١٠٩ .

درجة ، بأن يَعْلُوه بدرجة واحدة ثم يَسْحَبه إليه ، فيعود ثانية إلى جواره ، فإذا ما تأكَّد من ثباته علا به درجة أخرى ، وهكذا إلى أن يتبيَّن للمريد أن الشيخ نَجْمٌ في السماء .. وأنَّى له الوصول إلى النجوم ؟ لذلك تكون نصيحة الشيوخ للمريدين ألا ينظروا إليهم وأن يكتفوا بالنظر إلى أنفسهم : أين كانوا ؟! وأين أصبحوا ؟! وما دام هناك تقدُّم فقد وجب الحمد لله ، وعلى الشيخ أن يلبِّي دعوة المريد إذا دعاه ، إن رأى في ذلك إصلاحًا لحاله ، وأن يزوره إذا مرض ، ويشيّعَ جنازته إذا مات ..

وعليه أن يتَّبع مع المريدين حُسْن المدَارَاة .. كما عليه أن يقضي حوائجهم ويبذل الجاه لهم ، ويتباسط معهم ، ويمنحهم من الحنان ، والمحبَّة ، واللُّطف ما يُقَرِّبُهم إليه ..

وعلى الشيخ إذا ما رأى المريد رُؤى ، أو تعرَّض للمنَح الربَّانية أن يُحَقِّرَ هذه الأمور في نظره ، ويعرفه أنَّها وإن كانت نِعَمًا تستحِقُّ الشكر ، إلا أن مُرَاده هو الْمُنْعِم ، فلا يجوز أن تشغله النعمة عن الْمُنْعِم ..

• أَدَبُ الصُّحْبَة :

الصُّحْبَة هي : صُحْبَةُ الأخ لأخيه في الله .. وقد تعددت الآراء في شأنِها :

١- ففريقٌ آمن بالعُزْلَة .

٢- وفريق آمن بالصُّحْبَة .

٣- وفريق يرى أنَّ للعزلة أوقاتــها ، وللصحبة أوقاتــها .

ولكل فريق منهم حُجَّته ، **أما الفريق الأول** : فيرى أن الشَّرَّ لا يأتي إلا مِمَّنْ تعرفه ، وقد استندوا في أَخْذهم بالعُزْلَة إلى حديثين لرسول الله (ﷺ) يقول في أحدهما : (**يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ** [١] **الْجِبَالِ ، وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ** [٢] ، **يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ**)[٣] .. ويقول في الآخر : (**لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لاَ يَسْلَمُ لِذِي دِينٍ دِينُهُ إِلاَّ مَنْ فَرَّ بدينه منْ قَرْيَةٍ إِلَى قَرْيَةٍ ، ومِنْ شَاهِقٍ إِلَى شَاهِقٍ ، ومِنْ جُحْرٍ إِلَى جُحْرٍ ، كَالثَّعْلَبِ الَّذِي يَرُوغُ**) .. قالوا : **ومَتَى ذَلِكَ يَا رَسُولَ الله ؟!** .. قال : (**إِذَا لَمْ تُنَلْ الْمَعِيشَةُ إِلاَّ بِمَعَاصِي الله عَزَّ وجَلَّ ، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ الزَّمَان حَلَّت الْعُزُوبَةُ**) .. قالوا : **وكَيْفَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ الله وقَدْ أَمَرْتَنَا بِالتَّزْوِيجِ ؟!** .. قال : (**لأَنَّهُ إِذَا كَانَ ذَلِكَ الزَّمَان كَانَ هَلاَكُ الرَّجُلِ عَلَى يَدَيْ أَبَوَيْه ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَبَوَان فَعَلَى يَدَيْ زَوْجَته ووَلَده ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ زَوْجَةٌ ولاَ وَلَدٌ فَعَلَى يَدَيْ قَرَابَتِه**) .. قالوا : **وكَيْفَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ الله ؟!** .. قال : (**يُعَيِّرُونَهُ بِضِيقِ الْمَعِيشَةِ ، فَيَتَكَلَّف مَا لاَ يُطِيقُ حَتَّى يُورِدُهُ ذَلِكَ مَوَارِدَ الْهَلَكَةِ**)[٤] ..

وهم يقولون : إن الْخَيْرَ عشرة أقسام : تسعة أقسام في الصَّمْتِ ، والقسم العاشر في الْعُزْلَة .. بل ويرون أن العُزْلَة مأمور بِهَا ، وهي ابتعاد عن الفتْنَة ، وابتعاد عن المخالطات التي تأتي بالتَّبِعَات ، وهي تختلف عن الْخَلْوَةِ ، فالْخَلْوَةُ اختلاءٌ عن الأَغْيَار [٥] ويكون الإنسان مع الله فقط ، حتى وهو مع الناس فَقَلْبُه

---

[١] الشعفة : رأس الجبل وقمته . [٢] أي مواضع نزول المطر . [٣] رواه البخاري كتاب الفتن .
[٤] رواه الخطابي في العزلة . [٥] الأغيار : جمع غير ، ويقصد بِهَا كل ما سوى الله .

معلق بالله ، ولا يشعر أين هو .. أو مع مَنْ هو .. أما العُزْلَة فهي عزلة النَّفْس عن أهل الشَّرِّ ، وعن شهوات الدنيا ، والابتعاد عن كل ما يُورِدُ الإنسان موارد التَّهْلُكة ، أو يبعده عن طاعة الله تبارك وتعالى ..

وأما الفريق الآخر الذي آمن بالصُّحْبَة ، ورأى أنَّها واجبة : فيشيرون إلى قول الله تعالى للنبي (ﷺ) : (وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ)[1] .. (وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ)[2].. (فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا)[3].. (ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ)[4].. ويستندون كذلك إلى حديث رسول الله (ﷺ) : (**مَثَلُ الْمُؤْمِنَيْنِ إِذَا الْتَقَيَا مَثَلُ الْيَدَيْنِ : تَغْسِلُ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى**)[5].. ويَسْتَنِدُون كذلك إلى الحديث القدسى الذى يقول الحق تبارك وتعالى فيه : (**حَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ .. وَالْمُتَحَابُّونَ فِي اللَّهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ**)[6] .. مع إشارتهم إلى قول سيدنا « عمر بن الخطاب » (رضي الله عنه) : **إِذَا رَزَقَكَ اللهُ وُدَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ فَتَمَسَّكْ بِهِ ..** [7]

والإنسان بطَبْعِه يأنس إلى غيره ، ويميل إلى الصحبة ، ومن ناحية أخرى فإن الأخوة فى الله تشجِّع على العبادة ، ويكون الأخ فى الله مِرْآة لأخيه فيفيد ويستفيد ..

---

[1] سورة آل عمران آية ١٥٩ . [2] سورة الأنفال آية ٦٣ . [3] سورة آل عمران آية ١٠٣ .
[4] سورة الزخرف آية ٦٧ . [5] رواه ابن شاهين في آداب الصحبة . [6] رواه أحمد مسند الأنصار .
[7] مكارم الأخلاق للخرائطي .

أما الفريق الثالث الذى يرى للعزلة أوقاتــها ، وللصحبة أوقاتــها : فيقولون : العُزْلَةُ فريضة وفضيلة .. فأما الفريضة فهي أن تعتزل أهل الشَّرِّ وأهْلَ المعاصى ، وكل ما يشغلك عن الله تبارك وتعالى ، وعن التقرُّب إليه .. وأما الفضيلة فهى اعْتِزَال الفُضُول من الكلام ، ومن الناس ، ومن كُلِّ ما لا طائل وراءه .. ويقولون :

الصُّحْبَةُ عِلْمٌ لابد له من بداية وهى : النِّيَّةُ ، ولابد له من خاتمة ، وهذه الخاتمة تكون إحدى اثنتين : إما سَعَادَةٌ ، وإما نَدَمٌ وشَقَاوَة ، ويتوقف ذلك على نوع الصُّحْبَةِ ، فالله تبارك وتعالى يقول : (ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ)[1] ، فإذا كُتب للرَّجُلِ الْمَنْزِلة العالية في الجنة ، وأُمِرَ له بِهَا فإنه قَبْلَ أن يدخل يسأل عن أخيه فى الله : أين هو ؟ .. فإن كان فى مَنْزِلة دون مَنْزِلته سأل الله تعالى أن يرفعه إلى مَنْزِلته ، فيُجَاب إلى طلبه .. وإن كان موقوفًا للسؤال أو العتاب شفع له عند الله .. فالناجي يأخذ بِيَدِ أخيه .. ذلك أن الله تعالى يقول : (لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ)[2] وذلك دون تحديد .. (وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلاً)[3] .. وكذلك يقول الحق تبارك وتعالى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا)[4] ..

وأما صُحْبَةُ السُّوءِ فيقول الله تعالى فى شأن نتيجتها : (وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا

(1) سورة الزخرف آية ٦٧ . (2) سورة الزمر آية ٣٤ . (3) سورة النساء آية ١٢٢ .
(4) سورة مريم آية ٩٦ .

خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولاً)[1] .. ولذلك ينصحنا الرسول (ﷺ) فيقول : (**الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِه ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلْ**)[2] ..

هذا .. وللصحبة دوافع بَيَّنَها السَّادة الصُّوفِيَّة فيما يلى :

• دَوَافِعُ الصُّحْبَةِ :

١- دافع عام : وهو الجنسيَّة ، فكل جِنْس يميل إلى جِنْسِهِ ، فجِنْس الإنسان يميل إلى جنس الإنسان .. وهكذا ..

٢- دافع خاص : وهو ميل كل أهل مِلَّةٍ إلى أهل مِلَّتهم ..

٣- دافع هو خاصُّ الخاصّ : وهو ميل أهل الطاعة بعضِهم إلى بعضٍ ، وميل أهل المعاصى بعضِهم إلى بعض ..

وعليه .. فإذا نويتَ أن تُصَاحِبَ فلابد أن تعرف مَنْ تُصَاحِب بأن تقيسه على الشرع ، ذلك أنه : يُعْرَفُ الرِّجَالُ بالْحَقِّ ، ولا يُعْرَفُ الْحَقُّ بالرِّجَالِ ..

ومن ناحية أخرى فقد يميل بجنسيَّة الصلاحية إلى أَهْلِ الصلاح الذين قد يحصل بينهم استرواحات طبيعية جِبلِّيَّة تحول بينهم وبين حقيقة الصُّحبة فى الله ، فيكتسب عن طريقهم الفتور في الطلب ، والتخلُّف عن بلوغ الأدب ، فلْيَنْتَبِه المريد الصادق إلى هذه الحقيقة الدقيقة ، وليأخذ من الصحبة أصْفَى الأقسام ،

---

[1] سورة الفرقان الآيات من ٢٧ : ٢٩ .

[2] رواه أحمد باقي مسند المكثرين .

وليَذَرْ ما يَسُدُّ في وجهه المرام ..

ثم بعد ذلك ينوى أن تكون صحبته خالصة لوجه الله ، فيلجأ إلى الله ، وقد بلغ الأمر ببعض الصوفية أنه أوجب الاستخارة قبل أن يشرع فى ذلك .. فإن صادق أحدًا فعليه أن يدعو الله أن يَقِيَهُمَا شَرَّ الفُرْقَة ، وشَرَّ الشَّيْطَانِ الذي يَشُدُّ هو وقَبِيلُه على المتحابِّين فى الله .. محاولين أن يُوقعوا الفُرْقَةَ بينهم وإفساد ذات البَيْن .. ذلك لأن المتحابِّين فى الله يُظِلُّهم الله بظِلِّ عَرْشِهِ بِهَذه المحبَّة ..

• حُقُوقُ الصُّحْبَةِ :

أولاً : التَّرَاحُم بين الأخَوَيْن فى الله ، فالله تبارك وتعالى يقول : (أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ)[1] ..

ثانيًا : التَّوَاصِي بالْحَقِّ ، والتَّوَاصِي بالصَّبْرِ ، والتَّوَاصِي بالْمَرْحَمَة ، لقول الله تعالى : (إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ)[2] .. وقوله سبحانه : (ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ)[3] ..

ثالثًا : أن يكون بينهم أُلْفَة ومَحَبَّة : (وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ)[4] ..

رابعًا : المواجهة ، أي أن يكون وجه كلٍّ منهما للآخر ، لا يُضْمِرُ في نَفْسِه شيئًا ضدَّه ، ولا يَسْتَدْبِرُه ، وإنما إذا وجد عيبًا فيه يواجهه به مُشْفِقًا عليه منه ..

---

(1) سورة الفتح آية ٢٩ . (2) سورة العصر آية ٣ . (3) سورة البلد آية ١٧ .

(4) سورة الأنفال آية ٦٣ .

والحق تبارك وتعالى يقول : (إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ)[1] ..

خامسًا : النُّصْحُ ، على شرط أن يكون سِرًّا لأن النصيحة في العلن فضيحة ، ومن ناحية أخرى فلابد من قبول النُّصح ، لأن الله تبارك وتعالى يُخْبِر عن قوم السوء أنَّهم لا يحبون النصيحة ، كما حكى عن قول سيدنا « صَالِح » (عليه السلام) لقومه : (وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّـٰصِحِينَ)[2] ..

سادسًا : ستر عورة الأخ في الله ، وعدم اغتيابه ، أو حسده ، وردّ غيبته ..

سابعًا : عدم الاعتراض على تصرفاته التي حدثت بقول : لو أَنَّكَ فَعَلْتَ كَذَا ، ما كَانَ كَذَا ..

ثامنًا : أن يُؤْثِرَه على نَفْسِهِ بالمقدور عليه من أمور الدِّين والدُّنيا ، فالله تبارك وتعالى يقول : (وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)[3] ..

هذا .. والأخوة في الله كالماء الزُّلال في صفوها ، فإن حدث بينهما خلاف فلا يقع فيه ولا يذكره إلا بخير ، أما إذا وقعت قطيعة بينهما ، وشعر أنه ليس أخًا له في الله فلا يكرهه ، وإنما يكره عَمَلَهُ ، ويذكر له لحظات المودَّة فقط ، ودليل الصوفية في ذلك قول الله تعالى لحبيبه المصطفى (صلى الله عليه وسلم) : (وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا

---

[1] سورة الحجر آية ٤٧ . [2] سورة الأعراف آية ٧٩ . [3] سورة الحشر آية ٩ .

تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾)[1] .. أي إنه يَبْرَأ من عَمَلِهم ، ولكنه لا يَبْرَأ منهم ، فليكره الفِسْقَ ، ولا يكره الفاسق .. وليكره المعصية ، ولا يكره العاصي ..

والرسول (ﷺ) يقول : (**لاَ تُظْهِرِ الشَّمَاتَةَ لأَخيك فَيُعَافِيَهُ اللَّهُ وَيَبْتَلِيَك**)[2].. وعَنْ « أَبِي هُرَيْرَةَ » (رضي الله عنه) قَالَ : أُتِيَ النَّبِيُّ (ﷺ) بِسَكْرَانَ فَأَمَرَ بِضَرْبِهِ ، فَمِنَّا مَنْ يَضْرِبُهُ بِيَدِهِ ، وَمِنَّا مَنْ يَضْرِبُهُ بِنَعْلِه ، وَمِنَّا مَنْ يَضْرِبُهُ بِثَوْبِهِ ، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ رَجُلٌ : **مَا لَهُ أَخزَاهُ اللَّهُ ؟!** .. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) : (**لاَ تَكُونُوا عَوْنَ الشَّيْطَانِ عَلَى أَخِيكُمْ**)[3] .. ويُرْوَى أن « أبا الدَّرْداء » (رضي الله عنه) مَرَّ يومًا على بعض الناس ، وهم يسبُّون رَجُلاً أصاب ذنبًا فقال لهم : **أرَأَيْتُمْ لو وَجَدْتُمُوه فى قَلِيبٍ**[4] **أَلَمْ تَكُونُوا مُسْتَخْرِجِيهِ ؟؟** .. قالوا : **بَلَى** ، قال : **فَلاَ تسبُّوا أَخَاكُمْ ، واحْمَدُوا الله الَّذى عَافَاكُمْ** .. قالوا : **أَفَلاَ تُبْغِضُهُ ؟!**.. قال : **إنَّمَا أُبْغِضُ عَمَلَهُ ، فإذا تَرَكَهُ فَهُوَ أَخِى ..** [5]

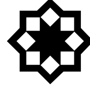
فالصوفي لا يجوز أن يكون في قَلْبِه كُرْهٌ لأحَدٍ حتى الكُفَّار ، فإنَّ عليه أن يكره الكُفْر ولا يَكْرَه الكافر ، أيضًا عليه ألاَّ يجعل أخاه تَابعًا له ، بل يكون هو تابعًا لأخيه ، وعليه أن يَحْذَرَ من الصَّوْلَة عليه ، فالصَّوْلَة على مَنْ هو فوقه وَقَاحَة ، وعلى مَنْ هو مِثْله سوء أدب ، وعلى مَنْ هو دونه عَجْز .. والرسول (ﷺ) يقول : (**لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ ، إنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ**)[6] ..

---

(1) سورة الشعراء الآيات من ٢١٤ : ٢١٦ .
(2) رواه الطبراني فى المعجم الأوسط .
(3) رواه البخاري كتاب الحدود .
(4) قَليب : حفرة .
(5) رواه ابن عساكر ، والبيهقي فى شعب الإيمان .
(6) رواه البخارى كتاب الأدب .

وعليه أن يستغفر لأخيه بظاهر الغيب ويدعو له ..

وفائدة الصحبة أَنَّها : تفتح مسام الباطن .. ويكتسب الإنسان بِهَا عِلْمَ الحوادث ، والعَوَارِض .. ويتحقَّق بِهَا التعاضُدُ ، والتعاون .. وتتقوَّى جنود القلب .. وتستروح الأرواح ، وتتَّفِق في التوجه إلى العَلِيِّ الأَعْلى ..



مَعْرِفَةُ الإنْسَانِ نَفْسَه

يقول السادة الصوفية : مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ .. وهم يرون بداية المعرفة في حديث رسول الله (ﷺ) الذي يقول فيه : (**إنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّه نُطْفَةً أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مثْلَ ذَلكَ ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مثْلَ ذَلكَ ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ إِلَيْه مَلَكًا بِأَرْبَعِ كَلِمَات : فَيُكْتَبُ عَمَلُهُ ، وَأَجَلُهُ ، وَرِزْقُهُ ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيه الرُّوحُ .. فَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْه الْكِتَابُ ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّة ، فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ .. وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّة ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْه الْكِتَابُ ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ ، فَيَدْخُلُ النَّارَ**)[1] ..

ومن الحديث عرفوا أن الروح هي الأساس فأمسك البعض منهم عن الحديث فيها استنادًا إلى قول الله عز وجل : (وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً)[2] ، واستنادًا إلى إمساك النبي (ﷺ) عن الكلام فيها ، ومن ثَمَّ وجب الاقتداء به ، وذلك هو الأصح والأسلم ..

أما البعض الآخر ، فقد أشار إلى أن الروح التي سُئِلَ عنها النبي (ﷺ) – والتي لا يصح الكلام عنها – ليست هي الروح التي في الجسد ، وإنما هو « جِبْرِيل »

---

[1] رواه البخارى كتاب أحاديث الأنبياء دون ذكر كلمة (نطفة) ، وذكرها الحافظ ابن حَجَــر فى فتح البارى ، كما ذكرها الإمام النووى فى الأربعين النووية ..

[2] سورة الإسراء آية ٨٥ .

(عليه السلام) إذ يقول الله تعالى : (فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا)[1] ، ويقول : (نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ)[2] .. فالروح هو « جِبْرِيل » ، والسؤال – حسب رأيهم – كان عن كيفيته وماهيته وما إلى ذلك ، وهذا ما لا يصح السؤال عنه ..

وجاء آخرون يتكلّمون عن الروح القائمة في الجسد آخذين بالنَّظر والاستدلال .. وتناولها آخرون بالذَّوق ، والوَجْد ، معتبرين أن الكلام عنها بالفِكْر والعقل ممنوع تمامًا ..

وتكلم آخرون فقالوا : إن الروح حادثة ، فهي مخلوقة ، ويستندون إلى قول الله تبارك وتعالى : (وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ)[3] .. فقوله : (خلقناكم) يعني خلق الأرواح ، وقوله : (صورناكم) يعني خلق القوالب ، والأجساد .. وتكون الروح بذلك مخلوقة .. وهي محل الخطاب ، ومحل التكليف ، ومحل الثواب والعقاب لقول الله تعالى : (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ)[4] .. فإن الخطاب فيه إنما هو للأرواح ..

ولما كانت الرُّوح مخلوقة ، فالمعروف أن كل مخلوق شيء من أربعة : فهو إما عرض ، وإما جسم ، وإما جوهر ، وإما لطيفة ..

---

(1) سورة مريم آية ١٧ . (2) سورة الشعراء آية ١٩٣ . (3) سورة الأعراف آية ١١ .

(4) سورة الأعراف آية ١٧٢ .

والروح لا يمكن أن تكون عرضًا ، لأن العرض لا يُوصَفُ ، أي لا يكون محلاًّ للصفات ، ولكن الروح محل صفات .. ومن ثَمَّ فهي إما جسم ، وإما جوهر ، وإما لطيفة ..

فالبعض يقول : إنَّها جسم لطيف في كثيف ، والبعض يقول : إن الروح جسم لطيف غاية اللطف يكبر عن اللَّمس ، ويبعد عن الحسِّ ..

والبعض الآخر يرى أنَّها : جوهر ، بل أنور الجواهر ، وأصفاها ، وأنقاها ..

والبعض الآخر يرى أنَّها : لطيفة من الله يضعها حيث شاء ، ولا يعبر عنها إلا بأنَّها موجود ، بِهَا تحيا الأبدان .. ذلك أن الله تعالى جعل بينها ، وبين الأبدان صلة ، وبوجودها في البدن يتَّصِفُ بالحياة ، وبمفارقتها للبدن يتَّصِف بالموت ..

ويقولون : إن الأرواح أقسام .. منها : أرواح طيَّارَة في الجنان .. وأرواح طيَّارة في عالَم البَرْزَخ ، فهي ترى أهل الدنيا ، وأعمالهم ، وترى الملائكة ، وتسمع حديثهم .. وأرواح في الأرض إلى أن تُرَدَّ إلى الأجساد يوم البعث .. وحين سُئِلَ « ابن عباس » (رضي الله عنهما) : **أين تَذْهَبُ الرُّوحُ عند مفارَقَتِهَا للجَسَد ؟!** .. أجاب : **وأين يذهب ضوء المصباح عند فناء الزيت ؟!** .. وحين سُئِلَ : **أين تذهب الجسومُ إذا بليت ؟!** .. أجاب : **وأين يذهب اللَّحْمُ حين يمرضُ الجسد ؟!** ..

من كل ذلك يتبيَّن أن العقل قاصر عن الوصول إلى مثل هذه الأمور الغَيْبِيَّة وأنَّ أحْسَنَ ما يقال في الروح أنَّها :

مَوْجُودٌ تَحْيَا بِهِ الأَبْدَانُ ، وبِمُفَارَقَتِهَا تَمُوتُ الأَبْدَانُ ..

وقد اختُلِف في محل الروح ، فقال البعض : الروح محلها القلب ، وقال البعض الآخر : إن الروح محلها العروق ، وكل ذلك ضرب من الظَّنِّ والتَّخْمِين ..

ويقولون : إن العقل هو جوهرُ الروح ولسانُها ، والعقل هو صفة تُدْرَكُ بِهَا العلوم أو غريزة يُدْرَك بِهَا المعلوم ، واختلفوا في محلِّه ، فمن قائل : إن محلَّه الدماغ ، ومن قائل : إن محلَّه القلب ..

ويُبَيِّن « حُذَيْفَة بن اليَمَان » (رضي الله عنه) أنواع القلوب فيقول : **القُلُوبُ أَرْبَعَةٌ : قَلْبٌ أَغْلَفُ ، فَذَلِكَ قَلْبُ الكَافِرِ .. وقَلْبٌ مُصَفَّحٌ ، فَذَلِكَ قَلْبُ الْمُنَافِق .. وقَلْبٌ أَجْرَدُ فِيهِ سِرَاجٌ يُزْهِرُ ، فذَاكَ قَلْبُ الْمُؤْمِن .. وقَلْبٌ فيه نفَاقٌ وإِيمَانٌ .. فَمَثَلُ الإيمان كَمَثَلِ شَجَرَةٍ يَمُدُّهَا مَاءٌ طَيِّبٌ .. ومَثَلُ النِّفَاقِ مَثَلُ القُرْحَة يَمُدُّهَا قَيْحٌ ودَمٌ ، فَأَيُّهُما مَا غَلَبَ عَلَيْهِ غَلَب ..** [1]

فالقلب هو : محل الفهم .. والروح : محل المحبة .. والعقل : محل المعرفة .. وبين العقل ، والقلب صلة : فالعقل والد للقلب ، والقلب ولد ، ومعاملة العقل للقلب معاملة الوالد المشفق الحنون لولده ، يربِّيه ويعلِّمه .. فإذا أضاء القلب بنور المعرفة من العقل ، واستضاء بنور الشرع نزلت فيه السكينة ، فمنح النفس طمأنينة ، وإذا لم يمنح العقلُ القلبَ علمًا ومعرفةً ، لم يستضيء القلبُ ، ونضحت عليه النفس فأظلم واسْوَدَّ ..

---

[1] رواه أبو نعيم فى حلية الأولياء .

والروح محلُّ المحبَّة ، وهي محلُّ الصَّفات ، والأخلاق المحمودة لأنَّها من الملأ الأعلى ، وهي من أمر الله ، ولا يمكن أن تحمل إلا الصفات العالية ..

ويقولون : إن النَّفْسَ أيضًا لطيفة مثل الروح ولكنها مخلوقة من التراب ، وهي محلُّ الأخلاق ، والصفات المذمومة .. والضَّعْفُ من صفات النفس البشرية ، لأنه كذلك صفة التراب .. والبخل أيضًا صفة للنَّفْس ، وقد جُبِلَت الأنْفُسُ على الشُّحِّ ، وهو أيضًا : صفة الطين ، أما الجهل ، فهو من الفَخَّار ، ومن الصلصال ، ومن الحمإ المسنون الذي في طبيعته النار ، وفيه صفة شيطانية ، يدخل فيها الحسد ، والغل ، والحقد ..

والنور يأتي من أعلى إلى العقل ، وإلى الروح ، ثم إلى القلب ، ومنه إلى النَّفس ، ولكن إذا أخذ الإنسان من الأرض أي من الطبع نضح ذلك على النَّفس ، فيُظْلِمُهَا ، ثم يصعد إلى القلب ، فَيُسَوِّدُهُ ، وذاك هو « الرَّان » ، ثم ينضح القلبُ على العقل ، فيصبح مُسْتَشَارَ سوء ، فيدبِّر المكائد ، والشرور ، ثم تموت الروح .. والله تبارك وتعالى يقول : (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا)[1] .. لذا فقد كان النبي (ﷺ) يقول : (**اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا ، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا ، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلاَهَا**)[2] ..

لذلك كان لابد للإنسان أن يحتمي من كل هذا ، فيحاول أن يُغْلق شباك الطبع تمامًا بأن يجعل بينه وبين الدُّنيا فاصلاً ، بالزُّهد فيها .. ومن هنا يحدث

---

(1) سورة الشمس الآيتان ٩ ، ١٠ .

(2) رواه مسلم كتاب الذكر والدعاء .

تَفْرِيغٌ ، وفراغٌ ، فتفتح نتيجة له الشبابيك العلويَّة ، فيحدث فوق النفس فراغ ، فيَنْزِل النور من الروح على العقل ، ثم على القلب ، ثم على النفس ، ثم على الطَّبع مما يساعد على إحكام إغلاق شباك الطَّبع تمامًا ، والذي بإغلاقه يَتَحَقَّقُ : (قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا)[1] .. ولكن إذا تُرِكَ خابت النفس ..

وبالعقل المجرَّد تُدْرَكُ عُلومُ الْكَوْن ، ويُعْرَفُ عِلْمُ الكائنات ، وهذا هو علم « الْمُلْك » ، وهو علم ظاهر الكائنات ، وإذا أضيف نور الشرع إلى نور العقل الذي منحنا الله إيَّاه ، فإن العقل يستضيء ، ويُمْنَح السَّكِينَة ، ويُرْزَقُ اليقين ، وتُمْنَحُ النَّفْسُ الطمأنينةَ ، ويُرْزَقُ العقلُ البصيرةَ ، وهي علم « الْمَلَكُوت » الذي هو باطن علم « الكائنات » ، فإذا ما تَمَّ هذا أصبحت الرُّوح محل المشاهدة ، ومحل العلم بالغَيْبِيَّات ، فالروح قويَّة للغاية ، فتتلقَّى من الله تبارك وتعالى الإلهامات ، والفتوحات ، والإشراقات ، فيحدث لها الكشف عن المغَيَّبَات ..

وقد سألت السيدة « عائشة » (رضي الله عنها) رسولَ الله (ﷺ) فقالت : **يَا رَسُولَ اللهِ ، بِأَيِّ شَيْءٍ يَتَفَاضَلُ النَّاسُ فِي الدُّنْيَا ؟** .. قال : (**بِالْعَقْلِ**) .. قالت : **فَفِي الآخِرَةِ ؟** .. قال : (**بِالْعَقْلِ**) .. فقالت : **إِنَّمَا يُجْزَوْنَ بِأَعْمَالِهِم ؟!** .. قال : (**وهَلْ عَمِلُوا إِلاَّ بِقَدْرِ مَا أَعْطَاهُمُ اللهُ مِنَ الْعَقْلِ ؟! فَبِقَدْرِ مَا أُعْطُوا مِنَ الْعَقْلِ كَانَتْ أَعْمَالهم ، وبِقَدْرِ مَا عَمِلُوا يُجْزَوْنَ**)[2] ..

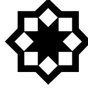
ولذلك ، فقد قيل : عَقْلُ الْمَرْءِ مَحْسُوبٌ عَلَيْهِ مِنْ رِزْقِه .. وقد ورد أن الله

---

[1] سورة الشمس الآية ٩ .

[2] رواه الحارث في مسنده .

عز وجل لَمَّا خلق العقل قال له : (**قُمْ**) فَقَامَ .. ثم قال له : (**أَدْبِرْ**) فَأَدْبَرَ .. ثم قال له : (**أَقْبِلْ**) فَأَقْبَلَ .. ثم قال له : (**اقْعُدْ**) فَقَعَدَ .. ثم قال له : (**مَا خَلَقْتُ خَلْقًا هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ ، ولاَ أَفْضَلُ مِنْكَ ، ولاَ أَحْسَنُ مِنْكَ .. بِكَ آخُذُ ، وَبِكَ أُعْطِي ، وبِكَ أُعْرَفُ ، وبِكَ أُعَاقِبُ .. بِكَ الثَّوَابُ ، وعَلَيْكَ الْعِقَابُ**)[1] ..



[1] رواه البيهقى فى شُعَب الإيمان .

عِلْمُ الْخَوَاطِرِ

الْخَوَاطِرُ : هي أصل الأفْعَال .. يقول الله تعالى : (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾)[(١)] ..

وهذه الآيات تتضمَّن ترتيب المفاعيل ، والذي يبدأ **بالإيحاء** : وهو الخاطر ، ثم **الإصغاء** : وهو الميل .. وقد يكون الميل ميلاً إلى الحق والخير ، وقد يكون إلى غير ذلك .. يقول الله تعالى : (إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)[(٢)] .. والصَّغْوُ والإصْغَاء بمعنى واحد .. وفي هذه الآية الكريمة كان الصَّغْو مَيْلاً عن الحق .. ويلي الإصغاءَ **الرِّضَا** الذي يعقُبُه حدوث **العَزْم** بالفِعْل ، ثم **الاقْتِرَاف** : وهو اكتساب الذنوب ، أو العمل الصالح .. إذًا فجميع أفعال ابن آدم أساسها الخواطر .. وبالتالي كان على السالك في طريق الله أن يعرفها حق المعرفة ..

والخواطر أنواع ، وإذا عرفت الخواطر ، واستطعت أن تُمَيِّزَها ، بدأت تعرف من أين تأتي الأفعال ..

والخواطر أربعة .. منها اثنان أصْليان : أحدهما يأتي من الْمَلَك ، ويتبعه خاطر آخر هو خاطر الحق ، وهو يأتي من يمين القلب ومن فوقه .. والآخر من الشيطان

---

(١) سورة الأنعام الآيتان ١١٢ ، ١١٣ .

(٢) سورة التحريم آية ٤ .

ويتبعه خاطر آخر هو خاطر النَّفْس ، ويأتي من تحت القلب ومن جهة اليسار ..

وحتى نصل إلى معرفة ذلك فالرسول (ﷺ) يقول : (**إنَّ للشَّيْطَان لَمَّةً بابْنِ آدَمَ ، وَلِلْمَلَك لَمَّةً .. فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَان : فَإِيعَادٌ بالشَّرِّ ، وَتَكْذِيبٌ بِالْحَقِّ .. وَأَمَّا لَمَّةُ الْمَلَك : فَإِيعَادٌ بالْخَيْرِ ، وتَصْدِيقٌ بالْحَقِّ .. فَمَنْ وَجَدَ ذَلكَ** [1] **فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ ، فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ .. وَمَنْ وَجَدَ الأُخْرَى** [2] **فَلْيَتَعَوَّذْ باللَّه مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**)[3] .. والحق تبارك وتعالى يقول : (ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ)[4] .. ويقول : (إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ)[5] .. فالتَّخلُّص من لَمَّة الشيطان يبدأ بذكر الله ، وذلك أن الغَفْلَة عن الذِّكْرِ تُسلم الإنسان للشيطان تمامًا ، فالله تبارك وتعالى يقول : (وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ)[6] .. أما المداومة على الذِّكْرِ فهي تُورِثُ التَّقْوى .. فالشيطان يحاول دائمًا أن يبقى جَاثِمًا على قلب ابن آدم ، فإذا استسلم له الْتَقَمَ قَلْبَه ، وسيطر عليه ، وأملى عليه ما يُريد من خواطر .. والشيطان لا يعنيه نوع المعصية .. وإنما يعنيه الإغْوَاء ، فهو يوسوس بالمعصية في أمر ، فإن لم يجد استجابة انتقل إلى أمر آخر دون إصْرار ، أما النَّفْس فإنَّها تُصِرُّ على مَطلبها حتى تناله ، وعلاج وسوسة الشيطان الاستعاذة .. أما علاج النفس فمخالفتها .. والنفس كالطفل إن

---

(1) أي لَمَّة الملك .
(2) أي لَمَّة الشيطان .
(3) رواه الترمذي كتاب تفسير القرآن .
(4) سورة البقرة آية ٢٦٨ .
(5) سورة الأعراف آية ٢٠١ .
(6) سورة الزخرف آية ٣٦ .

تُهْمِله شَبَّ على حُبِّ الرِّضَاع ، وإن تَفْطمه يَنْفَطِم ..

والتخلص من لَمَّة الشيطان أمره سهل لقول الله تبارك وتعالى : (إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا)[1] .. فالاستعاذة بالله ، وذكر الله تجعل الشيطان يَخْنس ويبتعد لقول الله تعالى : (إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ)[2] .. فبمجرد المداومة على ذكر الله ، والبعد عن المعاصي يتم التخلُّص من الشيطان .. أما النفس فهي مَجْبُولَةٌ على طبائع ، فهي تعلو الطبع مباشرة ، وهو لَصِيقٌ بالتُّرَاب وبالطِّين ، وتكمن خُطُورَة النفس في أنَّها جزء من الإنسان ، ولا يمكن أن يتخلَّص منه ، وهي ذات مطالب ، وذات خواطر .. وهذه الخواطر قسمان : أحدهما : حقوق ، والآخر : حظوظ .. وهو تقسيم بالغ الدِّقَّة ، ويزعم الصُّوفية أنَّهم أعلم بذلك ، إذ إنَّهم في خلوتهم يفكرون .. وأقل مدة الاختلاء عندهم أربعين يومًا أخذًا عن سيدنا « موسى » (عليه السلام) : (وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً)[3] .. فبالاختلاء هذه المدة وبالصيام يصل العبد بالتقوى إلى دَرَجَة الْمُكَلَّم أو الْمُحَدَّث ، فما يَرِدُ إليهم من الله تعالى من واردات أو خواطر إلَـٰـهِيَّة ، وإلهامات ربَّانيَّة إن هو إلا نتيجة لصفاء نفسٍ كامل ، وانجلاءٍ لِمْرآة القَلْب فتنطبع فيها صُوَر الأشياء بماهيتها ، وبحقيقتها من اللَّوح المحفوظ ، وذِكرهم الله تبارك وتعالى بالرُّوح يصل إلى مرتبة الْمُشَاهَدَة ، والْمُكَاشَفَة بالغَيْبيَّات ، وذلك لأن الرُّوح لَطِيفَةٌ تَطَّلِع على الغَيْبيَّات ، وهي محل الْمُكَاشَفَات .. فالقَلْب بالتقوى يصبح

---

[1] سورة النساء آية ٧٦ . [2] سورة الحجر آية ٤٢ . [3] سورة البقرة آية ٥١ .

كالسماء الصافية ، فإذا ابتعد عن المعاصي والذنوب ، ولم تخلد نَفْسُه إلى الأرض ، وإلى هواها أصبح القلب خاليًا من أي نكت سوداء تكون قد أتت من الذنوب ، ويحل محل هذه النكت السوداء نور ، ويصبح هناك صفاء تَنْجَلِي معه مِرْآة القلب ، فتنطبع عليها صورة الملكوت ، لأنه يستضيء بنور الشَّرْع ..

وهذا القلب الذي انجلت مرآته أصبح سماءً تحتاج إلى كواكب تحفظها من خطرات الشياطين ، هذه الكواكب هي الذِّكر .. فكل خاطر من الشيطان يلحقه شهاب من كواكب الذِّكْر فَيُبعد ، ويُطرد ، ويترقَّى القلب سماءً فوق سماء ، ويُؤَهَّل لتلقِّي المكالمات ، والمحادثات ، والخواطر الرحمانية ، والإشراقات الربَّانيَّة ، وتبقى بعد ذلك النَّفْس : (إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ)[1] .. فلابد أن نلجأ إلى الله ، وندعو كما كان يدعو رَسُولُ الله (ﷺ) فنقول : (**اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا ، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا ، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلاَهَا**)[2] .. ونقول : (**اللَّهُمَّ إِنِّي ضَعِيفٌ فَقَوِّ فِي رِضَاكَ ضَعْفِي**)[3] ..

وقد ذكرنا أن **خواطر النفس قسمان** : قسم خاص بالحقوق ، وقسم خاص بالحظوظ .. أما الذي هو خاص بالحقوق : فمثل لُقْمَة تُقِيم بِهَا أَوْدَكَ – ويقصد بالحق هنا ما ينفع دِينًا أو دُنْيَا – أما الحظوظ : فهي ما لا طائل وراءه دُنْيَا أو دينًا ، فالجاه حَظٌّ ، والْهَوَى حَظٌّ ، فإذا ما واظب الإنسان على نفي الحظوظ عن نَفْسِه ، ومَنَحها الحقوق فقط أضاءت بالسَّكِينَة الْمُنْبَعِثَة من القَلْبِ السَّمَاوي

---

(1) سورة يوسف آية ٥٣ . (2) رواه مسلم كتاب الذكر والدعاء . (3) رواه الحاكم والطبراني .

فاطمأنَّتْ .. وإذا واظب على إعطائها الحظوظ بدأت تطْلبُ هذه الحظوظ بانبعاث الطَّبْع ، واسودَّتْ من تُرَاب الدُّنْيَا ، وحُجِبَتْ عن القَلْب السماوي ، وبَدَأَتْ تُشِعُّ ظلامًا على هذا القَلْبِ حتى تَجُرَّهُ إليها ، فماذا يفعل العَقْلُ هنا وهو الغريزة التي يتهيَّأُ بِهَا إدراك العلوم ؟! .. هذا العقل مهيَّأٌ للانجذَاب إلى الروح التي هي محل خوَاطر الحق ، أو إلى القَلْب الذي هو محلٌّ لِلمَّة الْمَلَكِ ، أو لَمَّة الشيطان ، أو إلى هَوَى النَّفْس .. فالعقل حُرُّ الْحَرَكَةِ ، وفي حالة انجذاب العَقْل إلى النَّفْس ، وإلى هَوَاهَا ، يصبح مُسْتَشَارَ سُوء ، ويَنْحَرِفُ ، فيصبح الإنسان مِمَّن : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾[1] .. وهنا يكون العقل مُجْرِمًا يدبِّر لعصابة مكوَّنة من : النَّفْس ، والْهَوَى ، والشَّيْطَان .. لذا وَجَبَ علينا أن نَزِنَ كُلَّ خاطر يأتينا بميزان الشَّرْع ، فإن أجازه أمضيناه ، وإن لم يُجزْه نَفَيْناه ..

أيضًا يجب علينا أن نترك الفُضُولَ في كل شيء : في الكلام ، والأفعال ، والطعام ، والشراب .. فإذا ما وصل العَبْدُ إلى ذلك فهنيئًا له ، إذ أصبح مستعدًّا لأن يكون في مَنْزِلة الْمُحَدَّث ، والْمُكَلَّم .. ويُحفظ من إغْوَاءِ الشيطان ، ومن خواطر النفس ..

ولكن إذا أكل العبد من حَرَامٍ فلا يمكن مُطْلَقًا أن يُمَيِّزَ بين لَمَّة الشيطان ، ولَمَّة الْمَلَك .. ولا يمكنه أن يُفرِّق بين الْهَوَاجِس ، والإلهامَات ، وإنما تختلط عليه الأمور ولا يَعْرِف الصَّوَاب من الخطإ ، ويصبح من الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾[2] ..

---

[1] سورة الأعراف آية ١٧٩ .

[2] سورة الكهف الآيتان ١٠٣ ، ١٠٤ .

سُمِّيَ الْحَالُ « حَالاً » لأنه يَحُول ، أي : يتحوَّل ، فهو يأتي وينْصَرِف ، وليس بِدَائِم ..

أما « الْمَقَام » فقد سُمِّيَ كذلك لأنه يعني : الاستقرار ، والدوام ، والثبات ، ويتحقَّق به العبد آناءِ الليل ، وأطراف النهار ..

ولا يمكن للعَبْد أن يحصل على مَقَام دُونَ أن يتدرَّج من الحال إلى الْمَقَام ، فالأحوال مبادئ المقامات ، ولابد للمقام من سابقة حال .. وبالتالي فإنه ما من فضيلة إلا وهي حالٌ أولاً ، ثم تصبح مقامًا ، فالتوبة تكون حالاً ثم تصبح مقامًا .. وهكذا ..

و« الأحوال » : مواهب من الله تبارك وتعالى ، وهي مواريث الأعمال ، وليس للعَبْد فيها إلا كَسْبٌ قليلٌ ، أما « المقام » : فالكَسْبُ فيه أظهر للعَبْد ، والموهبة فيه قَلِيلَةٌ .. فالأحوال مواهب أصلاً ، والمقامات مَكَاسِب .. فإذا راعى العَبْدُ الْحَالَ الموهوبَ له ، وراعى الأوقات ، والأنفاس ، وقوَّى جهده فإن الحال يُمْكِنُ أن يصبح مَقَامًا ، أما إذا كان كَسْبُ العبد ضعيفًا ، وجهده قليلاً فلا يصبح الحال مقامًا ..

ولا يمكن للعَبْد أن يَرْتَقِي من مقام إلى مقام ما لم يتحقَّق بالمقام الأول ، ويكون الترقِّي بأن يَهَبَهُ الله حال المقام التالي ، فيكون متحقِّقًا بمقام ، وعنده حال المقام الأَعْلَى ، والذي يمكن بالجهد والمواظبة أن يتحوَّل إلى مقام .. وهكذا ..

وإليك بيان بعض الأحوال عند الصوفية ..

• حَالُ التَّوْبَة :

ونضرب بالتَّوْبَةِ مثلاً ، فمقام التوبة هو الأرض بالنسبة إلى جميع المقامات ، فكلها مَبْنِيَّةٌ عليه ، ولكن لكي يحدث حال التوبة فلابد للعَبْد من ثلاثة زواجر :

١- زَاجِرُ العِلْم . ٢- زَاجِرُ الْعَقْل . ٣- زَاجِرُ الإيمان .

والزاجر : هو ما يمنعك ..

و« زَاجِرُ العِلْم » : هو أن تعلم الحلال والحرام ، فأوَّل ما يزْجرُك عن الحرام هو علمك بأنه حرام .. أما « زَاجِر العَقْل » : فلا يقصد به العَقْل المجرَّد الذي يدرك علم الْمُلْكِ ، وإنما المقصود به العقل الذي استضاء بالشَّرْع ، ورُزِقَ البَصِيرَة ، وأدْرَكَ بَوَاطِنَ الكائنات ، وهذا العقل ستكون له زواجره .. ويأتي بعد ذلك « زَاجِر الإيمان » : الذي مَلأَ القَلْبَ بِنُور اليَقِين ..

وهؤلاء السادة لا أحد عندهم معصوم حتى الأوْلِيَاء ، ولكن الذُّنُوب تختلف ، فَشَتَّان بين تائب عن الزَّلاَّت ، وتائب من الْهَفَوَات ، وتائب عن رُؤْيَة الْحَسَنَات .. فهذه الزَّوَاجِر لن تزجرهم عن كبائر ، وإنما قد تزجر عن حديث نَفْسٍ ، أو انْشغَال قلب بالأغْيَار [1] ، أو عن خطإٍ في مقام ، كأن يكون أحدهم في مقام تَرْك التَّدْبير مثلاً ثم يختار لنَفْسه شيئًا ، وهنا يَزْجُرُه العَقْلُ أو الإيمان ، أي يأتيه حال توبة فينْزَجِرُ ، ويَنْدَمُ ، ويَسْتَغْفِرُ ، ويَبْكِي ، ويتضرَّع إلى الله ، وقد تَغْلُبُ عليه النَّفْس ، ويَغْلُبُ عليه الطَّبْعُ فينصَرِف عن الحال ، فيأتيه الزَّاجِرُ ثانية ، ويبدأ في

---

[1] الأغيار : جمع غير ، ويقصد بِهَا كل ما سوى الله .

الدخول في حال التَّوْبَة من جديد ، وباستمرار توارُدِ حال التوبة عليه ، وانصرافه عنه على فترات تأخذ هذه الفترات في التقارُب إلى أن يَنْقَلِب « حالُ التوبة » إلى « مَقَامٍ للتوبة » .. ففي البداية كان ورود الحال مَوْهِبَة من الله تبارك وتعالى ، فلمَّا رَعَاهَا ثبت الحال ، وأصبح مقامًا ..

• حَالُ الزُّهْد :

الزُّهْدُ غير الفَقْرِ ، لأن الفَقْر اضطرار ، والزُّهْدُ فيه اختيار ، فالإنسان لا يَتَمَلَّكُ الأشياء اضطرارًا .. والزهد هو : عدم تملُّك الأشياء اختيارًا ، فالقَلْبُ السَّمَاوِىُّ الذى أضاء يجعل العَبْدَ يرى قُبْحَ الدُّنيا ، وزوال مَحَاسِنِها ، وعدم دوام نِعَمِها – وما لا دوام له لا فضل له ، ولا خير فيه – فيزْهَدُ فى الشيء ويتركه ، وحتى لو مَلَكَهُ فإنه يضعُهُ تحت قَدَمِهِ ، فالزُّهْد : لَيْسَ عَدَم تملُّك الأشياء ، وإنما هو أَلاَّ تَتملكك الأشْيَاء ، فيكون الزُّهْدُ عندئذ اختيارًا ، فيأتي العبدَ « حالُ الزُّهْد » ثم تغلبه النَّفْس ، فيتمنَّى النِّعَم والْمُتَع ، فيذهب الحال ، ويجيء ثانية ، ويتعهَّده بالرِّعَايَة ، ويحاول أن يتحقَّقَ به ، فينقلِب الحال إلى مقام .. وهكذا .. أما إذا كان كَسْبُ العَبْد ضَعِيفًا ، والجهد منه قليلاً ، فإن الحال قد لا يصبح مقامًا ..

• حَالُ الْمُحَاسَبَةِ :

وأساسه عند الصوفية هو قول سيدنا « عمر بن الخطاب » (رضي الله عنه) : (**حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا ، وَتَزَيَّنُوا لِلْعَرْضِ الأَكْبَرِ ، وَإِنَّمَا يَخِفُّ الْحِسَابُ يَوْمَ**

الْقِيَامَةِ عَلَى مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا)[1] ..

ويتم ذلك بأن يَزِنَ العبد أعماله بميزان الشَّرْع ، ويَعْرِض نَفْسَهُ على القرآن ليعرف أين هو ؟ .. هل هو ممن : (كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ)[2] ؟ .. هل هو ممن قال القرآن عنهم : (وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ)[3] ؟ .. هل هو من : (ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ)[4] ؟ .. هل هو ممن : (إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ)[5] ؟ .. هل هو ممن قال الله عنهم : (وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)[6] ؟ .. هل هو ممن وصفوا بقوله تبارك تعالى : (وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ)[7] ؟ .. والتحقُّقُ بمقام « الْمُحَاسَبَةِ » يعني أن لا تكون هناك حَرَكَةٌ أو نَفَس دون أن تُحَاسِبَ نَفْسَكَ عَلَيْهِمَا .. فإن كانت صَائِبَة حَمِدْت الله ، وإن كانت غير ذلك اسْتَغْفَرْت الله ، وتُبْتَ إليه .. وهكذا فإذا ما تحقَّق العبد بمقام « الْمُحَاسَبَةِ » بَدَأَ حَالُ « الْمُرَاقَبَةِ » ..

• حَالُ الْمُرَاقَبَة :

وفيه يُرَاقِبُ الإنسان نَفْسَه قبل العَمَلِ ، فإن كان صَحِيحًا قام به ، وإن لم يكن كَفَّ عنه ، وفَلَتَاتُ مقام « الْمُحَاسَبَةِ » تحتاج إلى حال « الْمُرَاقَبَةِ » ،

---

[1] رواه الترمذى كتاب صفة القيامة . [2] سورة الذاريات الآيات من ١٧ : ١٩ .
[3] سورة المؤمنون آية ٣ . [4] سورة الأنبياء آية ٤٩ . [5] سورة الأنفال آية ٢ .
[6] سورة الحشر آية ٩ . [7] سورة الحج آية ٣٥ .

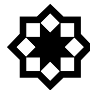
و« الْمُحَاسَبَةُ » تكون بَعد الفِعْل .. أما « الْمُرَاقَبَةُ » فتكون قبل الفِعْل ، وهي لا تكون فى مجال الأعْمَالِ فقط ، وإنما أيضًا في مجال الأَحْوَالِ .. وحال « الْمُرَاقَبَة » يراقب مقام « الْمُحَاسَبَة » : وهو حال خَطِير لِلْغَايَة ..

أما مقام « الْمُرَاقَبَة » فهو أشَدُّ خُطورَة ، وهو يعني أن الإنسان قد انْفَصَلَ فأَصْبَحَ اثنين ، يَقِفُ أحدهما للآخَرِ بالْمِرْصَادِ ، فقد خرج المراقب عن نَفْسِه ، وأصْبَحَ خارجها ، وأصبح كُلُّ شَيْءٍ مَحْسُوبًا عَلَيْهِ .. ومَنْ وَصَل إلى هذا المقام فلابد أن يكون غافلاً عن كل شَيْءٍ إلا نَفْسه ، ورحم الله مَنْ شغلته عُيُوبُهُ عن عُيُوبِ الناس ..

والعبد وإن بلغ هذا المقام إلا أنه يكون متحققًا أيضًا بمقام « الْمُحَاسَبَة » ، وبالتالى فما يَفْلِتْ من « الْمُرَاقَبَة » تلحقْه « الْمُحَاسَبَةُ » ..

والذي يُذهب حال « الْمُرَاقَبَة » هو الغَفْلَةُ والسَّهْوُ ، فإذا لم يغفل العَبْد عن نَفْسه ، ولم يَسْهُ ، فإنه يتحقَّقُ بمقام « الْمُرَاقَبَة » ، والمتحقِّق بمقام « الْمُرَاقَبَة » لا يُفَكِّرُ قَلْبُهُ فى الأَغْيَارِ (١) مُطْلَقًا ، وإن حدث ذلك فإن مقام « الْمُحَاسَبَة » يَعمل ، ويسأل : كيف شَغَلَتْ قَلْبَكَ الأَغْيَارُ ؟! .. كيف تَخْتَار والله له التَّدْبِير ؟! .. وهكذا ..

وحال « الْمُحَاسَبَة » ، وكذلك حال « الْمُرَاقَبَة » من أحوال المرِيدِين ..



(١) الأغيار : جمع غير ، ويقصد بِهَا كل ما سوى الله .

• مَقَامُ التَّوْبَةِ :

التَّوْبَةُ أساس المقامات والأحوال كلِّها .. وهى كالأرض ، وباقى المقامات كلها كالبِنَاء ..

والتَّوْبَة نوعان :

١- تَوْبَةُ إِنَابَةٍ : وهي أن يذكرَ الإنسان قدرة الله عليه ، فيخشاه ، ويخافه لهذه القُدْرَة ..

٢- تَوْبَةُ اسْتِجَابَةٍ : وهي الحياء من الله تبارك وتعالى لقُرْبِهِ من العَبْدِ .. وهذه التَّوْبَةُ عالية المقام لِلْغَايَةِ ، وقد يتوب العَبْدُ فى صلاته لمجرَّد ورود خاطر يَشْغَلُهُ عن الله في الصَّلَاَةِ فَيَسْتَحِيي منه ..

وتوبة العوام تكون من الذُّنُوب ، أما توبة الْخَوَاصّ فمن الغَفْلَةِ ، وأما توبة الأَنْبِيَاءِ والمقرَّبين فهي من رُؤْيةِ العَجْزِ في بلوغ ما ناله غيرهم ، وهؤلاء يرون أن التوبة نفسها تحتاج إلى تَوْبَةٍ ..

وقد اشترط السادة الصُّوفِيَّة أربعة أشياء حتى تكتمل للعَبْدِ المقامات كُلُّها :

١- صِدْقُ الإيمان بعقوده وشروطه ، ويدخل في ذلك علم « الدِّرَاسَةِ » بالكامل ..

٢- التوبة النصوح كمقام لا كحال ..

٣- الزهد فى الدنيا ..

٤- التحقُّق بمقام « العُبُودِيَّة » وذلك بدوام العمل لله تعالى ظاهِرًا وباطِنًا .. بالقلب والقَالب ..

وحتى تتحقَّق هذه الشروط الأربعة يلزمه أربعة شروط أخرى مُسَاعِدَة :

١- قِلَّةُ الكلام ..

٢- قِلَّةُ الطَّعَامِ ..

٣- قِلَّةُ الْمَنَام ..

٤- اعْتِزَالُ النَّاس ..

والرسول (ﷺ) يقول : (**إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ قَدْ أُعْطِيَ زُهْدًا فِي الدُّنْيَا وقِلَّةَ مَنْطِقٍ فَاقْتَرِبُوا مِنْهُ ، فَإِنَّهُ يُلَقَّنُ الْحِكْمَةِ**)[1] ..

والتَّوْبَةُ لا تكون للعَاصي فقط ، وإنما هي لجميع الناس ، حتى الأنبياء ، والرُّسُل ، والمقرَّبين إلى الله تبارك وتعالى ، وهو جل شأنه يخاطب المصطفى (ﷺ) فيقول : (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا)[2].. فحتى الأنبياء تَتُوب ، ولكن شتان بين تائب من الزّلاَّت ، وتائب من الهَفَوَاتِ ، وتائب عن رُؤْية الحَسَنَات .. والتوبة مطلوبة بالقرآن والسُّنَّة .. فالله تعالى يقول : (إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ)[3] .. ويقول : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ

---

[1] رواه أبو نعيم في حلية الأولياء . [2] سورة النصر آية ٣ . [3] سورة البقرة آية ٢٢٢ .

تَوْبَةً نَّصُوحًا)[1] .. ويقول أيضا : (وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)[2] .. ولم يستَثْنِ .. فالمؤمن مهما بلغت درجة إيمانه لابد أن يتوب إما من كبائر ، أو من صغائر ، أو من خَوَاطر ، أو من غَفْلَة ..

وقبل أن يتحقَّق العَبْدُ بمقام « التَّوْبَةِ » فهناك ثلاثة أحوال يترقَّى فيها :

أولها : « حال الزَّجْرِ » : فإذا واظب عليه ، وتحقَّقَ به ارتقى إلى « حال الانْتِبَاه » – ذلك أنه لا يوجد مقام للزَّجْر – ويبدأ يتنبَّه لكل ما يفعل ، وقد يفلت منه في البداية شيء ، أما إذا ما تحقَّق « بحال الانتباه » فإنه يرتقي إلى « حال التَّيَقُّظ » : وهنا فقط ينقلب « حال التَّوْبَة » إلى مقام ..

وعندما يتحقَّقُ « مقام التَّوْبَةِ » يظهر في أعقابه حالان :

الحال الأول : « حال المحاسبة » ، والحال الثاني : « حال المراقبة » .. والعبد هنا يُخْطِئ ، ولكن تتفاوت أخطاؤه : فما كان يُزْجَرُ من أجله ليس هو ما يخطئ فيه الآن ، فلم يَعُدْ يرتكب الكبائر ، وإنما قد تَدرَّج إلى الصغائر ، ثم إلى الْهَفَوات ، ثم أصبح يُؤَاخِذ نَفْسَه على الخواطر ، ولابد له من رعاية السِّرِّ ، بِهَدَف ألا يشغل بَالَهُ وسِرَّه شيء غير الله ..

وبذلك فإن « مقام التوبة » يكون ملازمًا للعَبْد في جميع مقاماته ، فالإنسان في « مقام التوبة » يتحقَّق بالتوبة النَّصُوح ، ويجتاز « حال الْمُحَاسَبَة » ، و« حال الْمُرَاقَبَة » ، و« حال الرِّعَايَة » ، ويصبح في

---

[1] سورة التحريم آية ٨ . [2] سورة النور آية ٣١ .

مقاماتها ، فيصل إلى مقام « رِعَايَة السِّرِّ » ، وهو المقام الذي يعقبه مقامان في غاية الأهمية ، وهما : « مقام الْخَوْف » ، و« مقام الرَّجَاء » .. فالتوبة تعني الخوف من الله والحياء منه ، فهي إذن تَتَضَمَّن « مقام الْخَوْف » ، فالإنسان يكون دائم الاستغفار ، كما تتضمَّن « مقام الرَّجَاء » حيث يظل الإنسان راجيًا الله أن يقبل توبته ..

• مَقَامُ الْخَوْف :

قال رسول الله (ﷺ) : (**رَأْسُ الْحِكْمَة مَخَافَةُ الله**)[1] .. ولقد كان سيدنا « داود » النبي (عليه السلام) يعوده الناس يظنُّون أن به مَرَضًا ، وما به مرض إلا خوف الله تعالى ، والحياء منه ..

والخائف هو مَنْ يخاف من نَفْسِه أكثر مما يخاف من الشيطان .. ولقد قيل : إن الخائف هو مَنْ لا يخاف لنفسه ، وإنما يخاف إجلالاً لله ، والله تبارك وتعالى قد جمع للخائفين ما فرَّقه على المؤمنين وهو : الْهُدَى ، والرَّحْمَة ، والعِلْم ، والرِّضْوَان ، إذ يقول الله عز وجل : (هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ)[2] .. ويقول تعالى : (إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ)[3] .. ويقول عز من قائل : (رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ)[4] ..

وقال « سهل التَّسْتُريّ »[5] : **كمال الإيمان العِلْم ، وكمال العِلْم الْخَوْف ..**

---

[1] رواه البيهقي فى شُعَب الإيمان . [2] سورة الأعراف آية ١٥٤ . [3] سورة فاطر آية ٢٨ .
[4] سورة البينة آية ٨ . [5] من كبار أئمة الصوفية .

والعِلْمُ كَسْبُ الإيمان ، والْخَوْفُ كَسْبُ الْمَعْرِفَة ..

ويقول « الفضل بن عياض »[1] : **إذا قيل لك : هل تخاف الله ؟ فاسكت ، لأنك إن قلت : لا ، كفرت .. وإن قلت : نعم ، فليس وصفك وصف مَنْ يخاف ..** [2]

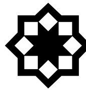
والْخَوْفُ نَوْعَان :

١- أن تخاف لِنَفْسِكَ ، وهو خوف العقوبة .

٢- أن تخاف للهِ ، خوفَ رعاية لجلالِه ولمقامِه .

وخوف رعاية الجلال كخوف الملائكة فلا جنة لهم ، ولا نار .. ولا سؤال ، أو حساب .. ولا ثواب ، أو عقاب .. ومع ذلك يقول الله تبارك وتعالى : (وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ)[3] .. وخوفهم هذا مراعاة لجلال الله ..

وليس الخائف مَنْ بكى ومسح عينيه ، ولكن الخائف مَنْ ترك ما يخاف أن يُعَذَّب بسببه فابتعد عن كل ما ينشأ عنه عُقُوبة .. وعلى قَدْرِ المعرفة يكون الخوف ..



---

(١) من كبار أئمة الصوفية .

(٢) قوت القلوب لأبي طالب المكي .

(٣) سورة الرعد آية ١٣ .

• مَقَامُ الرَّجَاء :

ويشير القرآن إلى هذا المقام في قول الله تعالى : (وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ)[١] .. (وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا)[٢] ..

وعلى ذلك فإن « مقام الْخَوْف » ، و« مقام الرَّجَاء » متلازمان دائمًا أبدًا .. فاستمرار الخوف يُميتُ ، واستمرار الرَّجَاء يُتْلِفُ ، إذ يؤَدِّي إلى الطمأنينة ، والأمن الزائف : (فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ)[٣] ..

والْخَوْفُ يجب أن يَغْلِبَ أثناء الحياة ، فإذا جاء الموتُ وَجَبَ للرَّجَاء أن يَغْلبَ .. ورسول الله (ﷺ) يقول : يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ : (**أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِه مِثْقَالُ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيمَانٍ**) ، ثم يقول : (**أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِه مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ**) ، ثم يقول : (**وعِزَّتِي وجَلاَلِي لاَ أَجْعَلُ مَنْ آمَنَ بِي سَاعَةً مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ كَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِي**)[٤].. ويقول (ﷺ) أيضًا : يَقُولُ اللَّهُ : (**أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ ذَكَرَنِي يَوْمًا ، أَوْ خَافَنِي فِي مَقَامٍ**)[٥] ..

ولقد قيل : إنَّ الرَّجَاءَ هُوَ رُؤْيَة الجلالَ بِعَيْنِ الْجَمَال .. وقيل : هو قُرْب القَلْبِ من مُلاطَفَة الرَّبِّ .. وقيل : هو ارْتِيَاحُ القُلُوبِ لِرُؤْيَةِ كَرَمِ المرجو سبحانه وتعالى ..

فالْخَوْفُ ، والرَّجَاء بالنسبة إلى العبد في سلوكه إلى الله تبارك وتعالى ،

---

[١] سورة الإسراء آية ٥٧ . [٢] سورة الأعراف آية ٥٦ . [٣] سورة الأعراف آية ٩٩ .
[٤] رواه الطبراني في المعجم الأوسط . [٥] رواه الترمذى كتاب صفة جهنم .

كالجناحين بالنسبة إلى الطائر ، إذا اسْتَوَيَا استوى الطائر ، وتمكَّن من الطيران .. ولو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا ، فلا يكون خائفًا إلا وهو رَاج ، ولا رَاجيًا إلا وهو خائف ، لأن موجب الخوف الإيمان ، وبالإيمان الرَّجَاء .. وموجب الرَّجَاء الإيمان ، ومن الإيمان الخوف .. ولهذا المعْنَى رُوِيَ عن « لُقْمَان » أنه قال لابنه : (**يَا بُنَيَّ خَفِ اللهَ خَوْفًا يَحُولُ بَيْنكَ وبَيْنَ الرَّجَاءِ ، وارْجُهُ رَجَاءً يَحُولُ بَيْنَكَ وبَيْنَ الْخَوْفِ**) .. فقال : **أَيْ أَبَه ، إِنَّمَا لِي قَلْبٌ وَاحِدٌ إِذَا أَلْزَمْتُهُ الْخَوْفَ شَغَلَهُ عَنِ الرَّجَاءِ ، وإِذَا أَلْزَمْتُهُ الرَّجَاءَ شَغَلَهُ عَنِ الْخَوْفِ** !! .. قال : (**أَيْ بُنَيَّ إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَهُ قَلْبٌ كَقَلْبَيْنِ : يَرْجُو اللهَ عَزَّ وجَلَّ بَأَحَدِهِمَا ، ويَخَافُهُ بِالآخَرِ**)[1] ..

• مَقَامُ الصَّبْرِ :

وهو أيضًا مقام لازم للتَّوْبَة .. فالصَّبْرُ نوعان :

صَبْرُ الفَرِيضَة : وهو الصَّبْرُ على الطاعات ، والصَّبْرُ عن المنهِيَّات ، والصَّبْرُ على الْمَكَارِه ، والصَّبْرُ عن الْمَعَاصِي ..

صَبْرُ الفَضِيلَة : وهو الصَّبْرُ عند الصَّدْمَةِ الأُولَى ، والصَّبْرُ على الأَوْجَاع ، والصَّبْرُ على البَلاَء ، وعدم الشَّكْوَى ، وهو أيضًا الصَّبْرُ على النِّعْمَة ، وأداءِ حَقِّها من الشكر ، وعدم صَرْفِها في معصية الله ، والصَّبْرُ على الْمِنَح والكَرَامَات بأن يُعْطِيكَ الله تبارك وتعالى ، ويُعَرِّفَك مكانك ، وتَتَنَزَّل عليك الملائكة مصداقًا

---

[1] حسن الظن بالله لابن أبي الدنيا .

لقول الله تعالى : (أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ)[1] .. وهو ما يعني حدوث ذلك في الحياة الدنيا .. فإذا وصل الإنسان إلى هذا المقام ، ولم يُصَرِّح فصبره صبر فضيلة ، وثبات ، ويرتقي به إلى مقامات أعْلى ، فالصبر على الوِلاَيَة صبر فَضِيلَة .. ولذلك كان « الوَاسِطِيّ » [2] يقول : **مَنْ حَسُنَتْ رِعَايَتُهُ حَسُنَتْ وِلاَيَتُهُ** ..

فمقام « الصَّبْر » إذن ملازم لمقام « التَّوْبَة » ، وهو يعني الزُّهْد في الموجود أملاً في الموعُود ، وهو إذن يقود إلى مقام « الزُّهْد » ..

وقد قسَّموا المتصفين بالصَّبْر إلى ثلاثة أقسام :

١- الْمُتَصَبِّر .　　　٢- الصَّابِر .　　　٣- الصَّبَّار .

« الْمُتَصَبِّر » : هو مَنْ صَبَر في الله .. و« الصَّابِر » : هو مَنْ صَبَر في الله ، ولله .. أما « الصَّبَّار » : فهو مَنْ صَبَر في الله ، ولله ، وبالله .. فأما المتصبِّر ، فيصْبِرُ مرَّةً ، ويَجْزَعُ مَرَّةً ، ولا يَقْوَى على مداومة الصَّبْر ، وهو مُتَصَبِّرٌ في الله تبارك وتعالى في سبيل الأَجْر والثَّوَاب .. وهو قد عرف أَجْرَ الصابرين فيتصبَّر في الله ، أو في أوامر الله ، أو فيما ابتلاه به الله .. وأما الصَّابِر فهو أعلى درجة ، ويكون صبره استسلامًا لمشيئة الله .. وأما الصبَّار فإنه يرى أن كل ما يأتيه به الله جميل .. والحق تبارك وتعالى أمر جميع أنبيائه بالصبر ، وأعطى سيدنا محمدًا (ﷺ) أعلى درجاته فقال له : (وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ)[3].. ولا يصبر بالله

[1] سورة فصلت الآيتان ٣٠ ، ٣١ .　[2] أحد كبار أئمة الصوفية .　[3] سورة النحل آية ١٢٧ .

إلاَّ مَنْ كان صبَّارًا ، فالصبر بالله يختلف تمامًا عن صبر المرءِ بنفسه ، أي بإرادته واختياره ..

وهم يرون أنه يكفي الصَّبْرَ شرَفًا أن الله تبارك وتعالى قال فيه : (إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ)[1] ..

هذا .. وعن معنى الصبر قيل : إنه انتظار الفَرَج ، وقيل : إن الصبر هو أن تَصْبِرَ في الصبر ، ولا تنتظر فيه الفرج .. فالله تبارك وتعالى يقول : (وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ)[2] .. ولم يذكر أنَّهم منتظرون للفرج .. وقد سُئِل أحد أئمة التصوُّف عن أشد أنواع الصبر على الصابرين فأجاب : إنه الصَّبْرُ عن الله .. وهو يكون بعد أن يصل العَبْدُ إلى « مقام حَقِّ اليَقِين » ، وهو أعْلَى مقامات الْمُشَاهَدَة ، فتنظر رُوحه - التي هي من الْمَلإِ الأعلى — إلى لَوامِعِ الْجَلاَل ، وأنْوَار الْجَمَال فتستحيي من الله تبارك وتعالى ، فينطوي على نفسه ، ويرد بصيرته إلى موضعها ، فيصبر عن الله .. فالرُّوح تريد أن تَرَى ، وتَسْمَعَ .. ولكن الأدَبَ يمنعه ، فيمنعها ، فتُنَازِعه رُوحه للنظر إلى مَرَاقِي الجلال ، وهو يَكْبَحُ جِمَاحَهَا أَدَبًا ، وخُضُوعًا ..

وقالوا : إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ جَوْهَرًا ، وجَوْهَرُ الإنْسَانِ العَقْلُ ، وجَوْهَرُ العَقْلِ الصَّبْرُ .. ولابد للصُّوفِيِّ أن يتحقق بِهَذا الصَّبْرِ كمقام لأنه من مقامات النبوَّة ، فما من نَبِيٍّ إلاَّ ووُصِفَ بِهَذِه الصِّفَة ..

---

[1] سورة الزمر آية ١٠ .

[2] سورة البقرة آية ١٧٧ .

• مقَام الوَرَع :

قال رسول الله (ﷺ) : (**مِلاَكُ الدِّينِ الوَرَعُ**)[1] .. و« الورع » : هو الوقوف عند حدود العِلْم بغير تَأْوِيل ، وإنما يُؤْخَذُ الْمَنْقُولُ فقط ، دون غَوْصٍ في الأعماق .. وهو نَوْعٌ من الْخَوْفِ ، وهذا أعْلَى مقام من مقامات « التَّقْوَى » ، ويكون بأن يَكُفَّ الإنسان عن المحارم وعن الشُّبُهات .. و« الورع » : هو منتهى الحياء من الله ، ومنتهى الوَجَل أن تُؤْتَى مَحَارِمُهُ ، وهو أيضًا منتهى التعَفُّفِ ليس فقط عن الحرام ، أو الشُّبُهَات ، وإنما عن الحلال أيضًا .. وهؤلاء الذين رُزِقُوا « الورع » يصبح حِسُّهُمْ وكأنه جهاز استشعار يستَشْعِرُ أيَّ شُبْهة ، وقد نُقِل عن « الحارث بن أسد الْمُحَاسِبِيّ » [2] أنه **كان إذا مد يده إلى طعام فيه شبهة يتحرك في إصبعه عِرْقٌ ، فيمتنع من تناوله** [3] .. و« الوَرَعُ » أَوَّل الزُّهْد ، وهو دليل الْخَوْف ، والْخَوْف دليل المعْرِفَة ، والمعْرِفَة دليل القُرْبَة ..

• مقَام الزُّهْد :

يبدأ الزُّهْدُ كحال ثم يصبح مَقَامًا ، وهو يأتي بتزكِيَة النَّفْس وتَطْهِيرها ، الأمر الذي يقود إلى انْجِلاء مِرْآة القَلْب فتَرَى قُبْحَ الدُّنْيا ، وزَوَالَهَا ، فتزهد فيها طَمَعًا في البَاقِية ..

و« مقَام الزُّهْد » يلزمه مقام آخر وهو « مقام الرِّضَا » ، وهو يقود إلى مقام هام للغاية وهو « مقام التَّوَكُّل » ..

---

(1) رواه الديلمي عن أبي هريرة . (2) أحد كبار أئمة الصوفية . (3) الرسالة القشيرية للقشيري .

وللزهد تعريفات متعددة :

قالوا : الزُّهْدُ هو عدم تَمَلُّكِ الأشْيَاء ، وعدم تتبُّعهَا بالقَلْبِ .. أي إنه : خُلُوُّ الأيْدِي من الأمْلاَك ، والقلوب من التتبُّع ..

وقالوا : إِنَّ الزُّهْدَ لَيْسَ فِي عَدَمِ تَمَلُّكِ الأشْيَاءِ ، وإنَّمَا هو ألا تتملَّكَكَ الأشْيَاءُ ..

وقالوا : لا زُهْدَ في الحقيقة ، لأنه إما أن يَزْهَدَ فيما ليس له ، فليس ذلك زُهْدًا ، أو يزهد فيما هو له ، فكيف زهد فيه وهو معه ؟! ..

لذا فقد قالوا : إن الزُّهْدَ هو : مُوَاسَاةُ النَّاسِ ، وهو الإيثار ، وأن تواسيهم بكل شيء وبأي طريقة ، لا بالمال فقط .. ذلك أن الزُّهْدَ هو ترك حظوظ النفس من الدُّنْيَا ، فلابد أن يكون الزهد في : المال ، والجاه ، والْمُتْعَة ..

والبعض رأى أن هذا الزهد غَفْلَة ، فالدنيا لا شيء ، والزُّهْدُ في لا شيء غَفْلَةٌ ، فالدُّنْيَا لا تُسَاوِي عند الله جَنَاح بَعُوضَةٍ ..

وقد رأى البعض أن الزُّهْدَ هو أن : تَزْهَدُ في الزُّهْد .. لأن الزُّهْدَ اختيار ، وتدبير .. فأنت قد اخْتَرْتَ الزهدَ لنَفْسِكَ بِنَفْسِكَ وإن كان لله ، وتَرْك الاختيار مطلوب ، فإذا أقامك الله في شيء وَجَبَ أن تَرْضَى بما أقامك فيه ، وهذا هو الزُّهْدُ بالله ، فإذا أعطاك الله « مقام الزهد » واختاره لك ، فلم يَمْنَحْكَ شيئًا ، فلا تتطلَّع إلى الأشياء بقلبك ، تُصْبِحْ زَاهِدًا على الحقيقة بقَلْبِكَ في الأشياء التي لم يُقِمْكَ الله تبارك وتعالى فيها .. أما إذا أقامك في شيء من الدُّنْيَا ، فاقْبَلْهُ ، وازْهَدْ في الزُّهْدِ ..

والبعض يرى أن المقام الأَعْلَى في الزُّهْد هو أن تكون مَمْنُوحًا ، والدُّنْيَا لك مَوْهُوبَةً ، ولكنك تَزْهَدُ فيها بالله ، وبالاختيار الموافق لاختيار الله .. ومن أمثلة ذلك زهد رسول الله (ﷺ) الذي راودته الجبالُ الشُّمُّ عن نَفْسِها ، فأَرَاها من نَفْسه أيما شَمَم ، فحين تَنَزَّل عليه سيدنا « جِبْرِيلُ » ، وعَرَضَ عليه أن تُصْبِحَ جبال « مكة » كلها ذَهَبًا خَالصًا له رَفَضَ ، واختار مقام « العُبُودِيَّة » ، ورُوِيَ عنه (ﷺ) قوله : (**عَرَضَ عَلَيَّ رَبِّي عزَّ وجَلَّ أَنْ يَجْعَلَ لِي بَطْحَاءَ مَكَّةَ**[1] **ذَهَبًا ، فقُلْتُ : لاَ يَا رَبِّ ، وَلَكِنْ أَجُوعُ يَوْمًا ، وأَشْبَعُ يَوْمًا ، فَإِذَا شَبِعْتُ حَمِدْتُكَ وشَكَرْتُكَ ، وإِذَا جُعْتُ تَضَرَّعْتُ إِلَيْكَ ودَعَوْتُكَ**)[2] ..

وكذلك حين أعطى الله تبارك وتعالى سيدنا « سُلَيْمَان » الْمُلْكَ والتصرُّف بقوله سبحانه : (هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)[3] ، لم يزهو بذلك ، ولم يتصرف إلا بما يرضي الله .. ثم حين أتاه عَرْشُ « بِلْقِيس » تواضع لله عز وجل ، ولم يكن له هدف إلا إسلامها وإسلام قومها ، ويحكي عنه القرآن قوله : (هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ)[4] ..

وكذلك « ذُو القَرْنَيْن » حين منحه الله حقَّ التَّصرُّف ، وترك له حرية الاختيار في معاملة القوم الذين وجدهم عند مغرب الشمس ، بقوله تعالى : (يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا)[5] ، اختار هو .. ولكنه اختار بالله كما حكى

---

(1) أى أرضها ورمالها . (2) رواه البيهقي فى شُعَب الإيمان . (3) سورة ص آية ٣٩ .
(4) سورة النمل آية ٤٠ . (5) سورة الكهف آية ٨٦ .

القرآن عنه : (قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا)[1] ..

هذه النماذج من الزُّهْد تَعْكِس زُهْدَ المتصرِّفين الذين مَلَكُوا الاختيار ، وأصبحت الدُّنْيا لهم مَوْهُوبَةً ، فأصبحوا فيها بالله ، وباختيارهم الموافق لاختيار الله تبارك وتعالى ..

• مقَامُ التَّوكُّل :

« مقام التَّوكُّلِ » هو : الانخلاع من الْحَوْلِ والقُوَّةِ ، وهو أن يلغي الإنسان نَفْسَه تمامًا .. وقيل هو : أن تكون لله كما لم تكن ، فيكون الله تبارك وتعالى لك كما لم يَزَلْ .. ولننظر إلى قول الله تعالى لسيدنا « زكريا » (عليه السلام) : (وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا)[2].. فعلى الإنسان أن يرجع بنَفْسِه إلى أصْلِه ، فقد كان الله و لم يكن شيء ..

وقيل هو : رد العيش إلى يوم واحد ، وإِسْقَاطُ هَمِّ الغَدِ ، فنحن لا نَعْلَمُ عن الغَدِ شيئًا ، والنبي (صلى الله عليه وسلم) يقول : (**لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِه لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ : تَغْدُو خِمَاصًا ، وَتَرُوحُ بِطَانًا**)[3]..

ويكون « التَّوَكُّل » على قَدْرِ المعْرِفَة بالوَكِيل ، وكلما زادت مَعْرِفَتُك بالوكيل ازْدَدتَ توكُّلاً عليه ، وإلا كان توكُّلُك ضَعِيفًا .. ويكون صِدْقُ التوكُّلِ بأن ترى الله تبارك وتعالى قد تولِّي أمرك من الأزَلِ ، فلا تَحِسب ما سوف

---

[1] سورة الكهف الآيتان ٨٧ ، ٨٨ . [2] سورة مريم آية ٩ . [3] رواه ابن ماجه كتاب الزهد .

يكون ، وإنما عليك أن تَرْضَى بالنَّتائج ، وأن تترك في توكُّلِكَ التَّدْبِيرَ ، والاختيارَ تمامًا ، بل وتَرَى في كُلِّ مواقع القَدَرِ حُسْنَ تدبيرٍ ، واختيارٍ من العَلِيم الْخَبِير .. فالتوكل هو الاعتصام بالله ..

ولابد لنا أن نَعْرِفَ أن « العِلْمَ » كُلَّه بابٌ من « التَّعبُّد » ، و« التَّعبُّدُ » كلُّه بابٌ من « الوَرَع » ، و« الوَرَعُ » كلُّه بابٌ من « الزُّهْد » ، و« الزُّهْدُ » كلُّه بابٌ من « التَّوَكُّل » ، و« التَّقْوَى » و« اليَقِين » مثل كَفَّتِي الْمِيزَان ، و« التَّوَكُّل » لسانه ، ومَنْ كان أتم مَعْرِفَةً كان أتم توكُّلاً ، ومَنْ أكمل توكُّلَهُ غَابَ في رؤية الوكيل عن رُؤية توكُّله ..

ولكن كيف للإنسان وهو عَجُول كَفُور أن يحسِن « التَّوكل » على الله ؟! ..

يكون ذلك بأن يَعْلَم :

- أن مَنْ سَتَرَ فيما مضَى يستر فيما بقَى .
- أن الله تبارك وتعالى له في خلقه شئون .
- أنه أقام العِبَاد فِيمَا أَرَاد .
- أنه لا يُسْأَلُ عمَّا يَفْعَلُ ، وهم يُسْأَلون .
- أنه كان و لم يكن شيء .
- أنه تبارك وتعالى أراد بنا ، وأراد مِنَّا .. ما أراده منا بيَّنه لنا ، وما أرَادَه بنا أخْفَاهُ عَنَّا .. فيجب أن لا نشغل أنفسنا بما أراده بنا عمَّا أراده منا .. وإلاَّ ، نكن قد أعْمَلْنا العَقْلَ فيما لا يَجِبُ له أن يَعْمل فيه .. و« التوكل » الحقيقي : هو أن يترك الإنسان نَفْسَه لله تبارك وتعالى ، كما يكون الميِّتُ

بين يَدَي الغَاسِل ، فَصِدْق التوكُّل يعني ترك التَّدْبير ، والاختيار ، مع الرِّضَا بالنتائج وإن جاءت على غير الْهَوَى ، فهي من عند العَلِيم القَدِير الذي لا يُعْجِزُه شَيْءٌ ، والْخَبِيرُ الذي لا يَخْفَى عليه شَيْءٌ ..

- **مقام الرِّضَا :**

« الرِّضَا » هو : سُكُون القَلْبِ تَحْتَ جَرَيَانِ الْحُكْمِ ، وسرور القَلْبِ بِمُرِّ القضاء .. و« الرِّضَا » هو : أن تَرْضَى بالْحَقِّ مُدَبِّرًا ومُخْتَارًا ، وأن تَرْضَى مع الحق قاسِمًا ومُعْطِيًا ، وأن ترضى بالحق إِلَـــهًا وربًّا ..

ويقول الرسول (ﷺ) : (**ذَاقَ طَعْمَ الإيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا ، وَبالإِسْلامِ دِينًا ، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً**)[1] .. فإذا كان الأمر كذلك فقد أصبحتَ راضيًا بالحق ، وللحق ، ومع الحق .. « فالرِّضا » : هو الجريان مع مُرَاد الْحَقِّ من الأزل ، وفق ما أراده بنا ، وعلى مُرَادِه هو .. فالله تبارك وتعالى حَكِيمٌ خَبِيرٌ ، لا يختار للمُؤْمن إلا ما فيه صَلاَحُهُ ، فإن كانت نِعْمَةً ظاهرة من نِعَم الدُّنْيَا فهو رَاضٍ بِهَا ، وإن كانت بَلِيَّةً أو مِحْنَةً وَجَبَ أن يَرْضَى بِهَا لأَنَّها : إما نعْمَة مُؤَجَّلة يستحق على الرضا بِهَا أَجْرًا ، وإما تَكْفِير ، وإما تَمْحِيص ، أو رفع للدَّرَجَات .. والرسول (ﷺ) يقول : (**إِذَا سَبَقَتْ لِلْعَبْدِ مِنَ اللَّهِ مَنْزِلَةٌ لَمْ يَبْلُغْهَا بِعَمَلِه ، ابْتَلاَهُ اللَّهُ فِي جَسَدِهِ ، أَوْ فِي مَالِهِ ، أَوْ فِي وَلَدِهِ ، ثُمَّ صَبَّرَهُ حَتَّى يُبْلِغَهُ الْمَنْزِلَةَ الَّتِي سَبَقَتْ لَهُ مِنْهُ**)[2] .. فالأفضل للإنسان أن يَرْضَى بكل ما يأتيه ، وأن يَسْتَوِي

---

[1] رواه مسلم كتاب الإيمان .
[2] رواه أحمد باقي مسند الأنصار .

لديه الغِنَى ، والفَقْر .. والصِّحَّةُ ، والْمَرَضُ .. والنِّعْمَةُ ، والْمُصِيبَةُ .. وهذا « الرضا » لا يتحقَّق إلا إذا تعاملتَ مع الله بأربعة أصول :

١- إذا أُعْطِيتَ شَكَرْتَ .

٢- إذا مُنِعْتَ رَضِيتَ .

٣- إذا تُرِكْتَ عَبَدْتَ .

٤- إذا دُعِيتَ أَجَبْتَ ..

ومَنْ رضى بالله ربًّا ، ورضى باختياره ، وبجميع أحكامه ، وبقضائه فلا يأتيه لحظة سخط .. فالله تبارك وتعالى يقول : (أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦۚ)[1].. ومَنْ أصبح على هذا النور رأى مواقع القَدَر ، وعَلِمَ ما فيه من نِعَم ، فَرَضِيَ بِهَا .. وهذا « الرِّضَا » يقود إلى الْحُبِّ لأن الفَعَّال هو الْمَحْبُوب ، فقد اختار المحبوب مُرَادَه ، فرضيتَ أنت به ، وغفلتَ عن مُرَادِكَ ، وفنيت في لَذَّةِ رُؤْيَةِ اختيار الْمَحْبُوب ..

وعندما يتمكَّن النور من الباطن ، يتَّسِع الصَّدْرُ ، وتنفَتِحُ عَيْنُ البَصِيرة ، فيعاين الإنسان حُسْنَ تدبير الله تعالى فينتزع السخط والتضجُّر ..

• مَقَام الْحُبِّ :

الْحُبُّ لله تبارك وتعالى من الأمور الدقيقة للغاية ، وقد قال فيه الرسول (ﷺ) : **(ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ : مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ**

---

(1) سورة الزمر آية ٢٢ .

مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ لِلَّهِ ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ – بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ – كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ)[1] .. وهذا الْحُبُّ هو ما كان رسول الله (ﷺ) يدعو له ويقول : (**كَانَ مِنْ دُعَاءِ « دَاوُدَ » يَقُولُ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ حُبَّكَ ، وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ ، وَالْعَمَلَ الَّذِي يُبَلِّغُنِي حُبَّكَ .. اللَّهُمَّ اجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي ، وَأَهْلِي ، وَمِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ**)[2] .. وهو ما يعني أن يكون هذا الْحُبُّ لله بالقَلْب ، والرُّوحِ ، وبالكُلِّية حتى يكون هذا الحب لله تعالى أغْلَبَ من حب كلِّ مَنْ وما سواه ، مهما غَلاَ .. فيكون حبًّا صافيًا خالصًا ..

ذلك أن الْحُبَّ مقامات ، ودرجات ، وأنواع .. فهناك حُبُّ الطَّبْعِ المنبعث عن الطَّبْعِ والْجِبِلَّة ، وهناك حُبُّ النَّفْسِ ، وهناك حُبُّ القَلْبِ ، وهناك حُبُّ الرُّوح ، وهناك حُبُّ العَقْل ..

والْحُبُّ حُبَّان : حُبٌّ عَامٌّ ، وحُبٌّ خَاصٌّ .. فالْحُبُّ العَامُّ : هو بامتثال الأمر ، وربما كان حُبًّا من معدن العِلْمِ بالآلاء ، والنَّعْمَاءِ .. أما الْحُبُّ الْخَاصُّ : فهو الْحُبُّ الذى فيه السَّكَرَاتُ ، وهو الاصْطِنَاعُ من الله الكريمِ لِعَبْدِهِ ، واصطفاؤه إيَّاه ، وهذا الْحُبُّ يكون من الأحوال لأنه محض مَوْهِبَة ، وليس للكَسْبِ فيه أي مَدْخَل .. وهذا التقسيم الذى قال به الصوفية يوضحونه فيقولون :

- **الحب قسمان أساسيان :**

القسم الأول : وهو الْحُبُّ الْمُنْبَعِثُ من الصِّفَاتِ ، أو هو الْحُبُّ الذي يطلع من مطالع الإيمان ، والذى ينتج من العِلْمِ بالآلاء ، والنعماء ، وهذا الْحُبُّ للعَبْدِ

---

[1] رواه مسلم كتاب الإيمان .   [2] رواه الترمذى كتاب الدعوات .

فيه كَسْبٌ ، أي جهد وعمل ، وهو موجود في جميع المقامات كالرُّوح في الْجَسَد .. ذلك أن الْحُبَّ للأحوال السَّنِيَّة ، كالتوبة للمقامات العَلِيَّة .. وهذا الْحُبُّ الذى فيه كَسْبٌ للعَبْدِ تقول فيه السيدة « رابعة العدوية » :

تَعْصِي الإِلَـــهَ وأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ ... هَذَا لَعَمْرِي فِي الفِعَـــالِ بَدِيعُ

لَوْ كَـــانَ حُبُّكَ صَادِقًا لأَطَعْتَهُ ... إِنَّ الْمُحِـــبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

وهذا الْحُبُّ يجعل العَبْدَ طائعًا زَاهِدًا فيما سِوَى الله ، راضيًا بما قَسَمَه لهُ ، شاكِرًا لَهُ ، حَامِدًا في كل الأحوال ..

القسم الثانى : هو الْحُبُّ النَّاشىء من مُطَالَعة الروحِ للمَحْبُوبِ ، فالله تبارك وتعالى يقول : (فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ)[1] .. والهاء هنا عائدة على الذَّات دون النُّعُوتِ والصِّفَات ، وهذا الْحُبُّ مَوْهِبَةٌ ليس للعَبْدِ فيه كَسْبٌ ، فالعَبْدُ فيه هو الْمُرَادُ ، وقد سبق له من الله الْحُبُّ فرزقه الْحُبَّ ..

وفى ذلك تقول السيدة « رابعة العدوية » :

أَحِبُّكَ حُبَّيْن : حُـــبَّ الْهَـــوَى ... وحُـــبًّا لأَنَّـــكَ أَهْـــلٌ لِـــذَاكَ

فَأَمَّا الَّذِي هُوَ حُـــبُّ الْهَـــوَى ... فَشُغْلِي بِذِكْـــرِكَ عَمَّنْ سِـــوَاكَ

وأَمَّـــا الَّـــذِي أَنْتَ أَهْـــلٌ لَـــهُ ... فَكَشْفُكَ لِي الْحُجْبَ حَتَّى أَرَاكَ

فَلاَ الْفَضْـــلُ فِي ذَا ولا ذَاكَ لِي ... ولَكِنْ لَكَ الفَضْلُ فِـــي ذَا وذَاكَ

والله سبحانه وتعالى هو الذي يرزق أيضًا حُبَّ الطاعة ، وطهارة النَّفْسِ ،

---

[1] سورة المائدة آية ٥٤ .

وتزكِيَتها ..

ومن أوَّل دلائل صِدْقِ هذا الْحُبِّ ما يشير إليه الله تبارك وتعالى قائلا : (يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ)[1] .. فمَنْ صَدَقَ في حُبِّه ذَلَّ لمحبوبه ، ولِمَحْبُوبِ مَحبوبهِ .. فالمؤمن يذلُّ للمؤمن لأنه أحب الله ، وأحب أحباب الله ..

والقسم الأول من الحبِّ : وهو حُبُّ الْمُحِبِّين يتقلب فيه هؤلاء المحبون في أطوار ومقامات مختلفة ، أما القسم الثاني : وهو حُبُّ الْمَحْبُوبِين فقد تجاوزت هِمَمُهُم المقامات ، فالمقامات جميعها كائِنةٌ فِيهم ، وليسوا هم كائنين في المقامات ، « فالزُّهْدُ » فيهم و« التَّوَكُّلُ » فيهم ، و« الرِّضَا » كذلك ..

ولكي تصح هذه الْمَحَبَّة يجب أن يخرج الإنسان بالكُلِّيَّةِ من الكُلِّيَّة إلى الله .. فلا شيء سِواه .. ويقول « الروزبادى »[2] : **مَا لَمْ تَخْرُجْ مِنْ كُلِّيَّتِكَ فَلَنْ تَدْخُلَ فَي حَدِّ الْمَحَبَّة** ..

وإذا صحَّت هذه الْمَحَبَّةُ صحَّت الأحْوَالُ كُلُّها ، فهم مع الله لقول النبي (ﷺ) : (**الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**)[3] .. ومَنْ يَدَّعي أنه يحب الله ولا يتوَرَّع عن محارمه فهو كاذِبٌ ، وكيف يُحبُّه وهو مشغول عنه ؟! .. وكيف وهو يُثْبِتُ نَفْسَه كيانًا ؟!!

ولكن إذا وَصَلَ العَبْدُ إلى مقام « الْحُبِّ » ، وأصبح مُحِبًّا لله عَلى الْحَقِيقَةِ ، ومَحْبُوبًا من الله على الْحَقِيقَةِ يصبغ الْحُبُّ الْمُحِب بصفات مَحْبُوبِه ، وهذا

---

[1] سورة المائدة آية ٥٤ . [2] أحد كبار أئمة الصوفية . [3] رواه البخارى كتاب الأدب .

الرُّقي إلى الصفات هو ما قيل فيه : **تَخَلَّقُوا بِأَخْلاَقِ اللهِ** .. فالْمُحبُّ الصَّادقُ من شدَّة حُبِّه لله تبارك وتعالى يَرْقَى بِرُوحِه إلى مَعَارِج المَلإِ الأَعْلَى ، والْحَضْرَةِ الإِلـــٰـــهيَّةِ ، فيصبغ بصفات الله التي يصح ويجوز للبشر أن يتَّصِفُوا بِهَا مثل صفات : الرحمة ، والْحِلْم ، والصبر .. ويَظلُّ ينْصبغ إلى أن يَنْقَطِع الجهد ، ولا يَقْوَى على الارْتِفَاع فَوْقَ ذلك لطبيعَته البشريَّةِ ، فيعود وقد عمَّته الصفات ..

وفى الحديث القدسي يقول الله تعالى : (**مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ .. وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْه .. وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ .. فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ : كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ .. وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ**)[1] ..

وانصِبَاغُ الْمُحِبِّ الصَّادِقِ بصفات الله تبارك وتعالى تُضْفِي عَلَيْهِ أنْوارًا ، وهيئة ، وإِشْرَاقاتٍ ، وتجلِّيَاتٍ ، وتَصرُّفَاتٍ لا قِبلَ لأحدٍ بشَرْحِهَا ..

• مقَامُ الشَّوق :

بعد الوصول إلى المقام العالي من « الْحُبِّ » يحدث « الشَّوْقُ » إلى الحبيب ، ولا يكون الْمُحِبُّ إلا مُشْتَاقًا أبدًا ، لأن أمْرَ الله تبارك وتعالى لا نِهَاية له ، فما من حال يبلُغها الْمُحِبُّ إلا ويعلم أن ما وراءِ ذلك أوْفَى منها وأتم ، فكلَّما وصل

---

[1] رواه البخارى كتاب الرقاق .

الْمُحِبُّ إلى مقام قُرْبٍ عَلِمَ أنَّ وراء ذلك مقامات ، ومقامات ، فازداد شَوْقًا ، فالشوق إلى الله تعالى مطالبات تنبعث من الباطن إلى الأولَى والأعْلَى ، ولا نِهَاية لذلك لأن الله مُحِيطٌ بكل شيء ، أزَلِيٌ بلا بداية ، أَبَدِيٌ بلا نِهَايَة .. وفى قول « موسى » (عليه السلام) كما حكى القرآن عنه : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾[1] شوق جعله يستهين بِمَنْ وراءه ، ويتعجَّل لِقَاء ربه .. و« الشوق » ثمرة الْمَحَبَّة ، والله تبارك وتعالى يقول : ﴿ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[2] .. فهو السميع لكلام المحِبِّين ومناجاتِهم ، العليم بشوقهم للقَائِه فيطمئنهم إلى حتمية هذا اللِّقَاءِ ، وضرورة حدوثه .. والشوق إلى الله أعلى المقامات ، وإذا بلغ الإنسان هذا المقام استبطأ الموت شوقًا إلى رَبِّه ، ورجاءً للقائه ، والنظر إليه .. وفى هؤلاء يقول سيدنا « على » (كَرَّم الله وَجْهه) : **إنَّهُمْ مِنْ شِدَّة شَوْقِهِمْ إِلَى الْجَنَّة ، ومِنْ شَدَّة خَوْفِهِمْ مِنَ النَّارِ تَكَادُ أَرْوَاحُهُمْ أَنْ تُفَارِقَ أَجْسَادَهُمْ ، لَوْلاَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى ضَرَبَ لَهُمْ آجَالاً يَنْتَهُونَ إِلَيْهَا** [3] ..

ومع ذلك فالبعض يرى أن الْمُحِبَّ الصادقَ ، والْمَحْبُوبَ الْمُرَادَ الذي يَصِلُ إلى أعْلَى درجات الْحُبِّ والقُربِ ، ويُمْنَحُ لَذَّة الْمُنَاجاةِ يتمسَّك بالحياة حتى لا يُحْرَم من هذه المناجاة ، ويقول الله تعالى لحبيبه المصطفى (صلى الله عليه وسلم) : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[4] .. فمَنْ كانت حياته لله منحه الكريم

---

[1] سورة طه آية ٨٤ .
[2] سورة العنكبوت آية ٥ .
[3] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد .
[4] سورة الأنعام آية ١٦٢ .

لذَّة الْمُنَاجَاة والمحبة ..

وهناك مَنْ أنكر « مقام الشوق » إذ لا يكون « الشَّوقُ » إلا لِغَائِبٍ ، ومتى غَابَ الحبيب أصلاً حتى يُشتَاق إليه ؟!!

وهناك فرق بين « الشَّوْقِ » وبين الاشْتِياقِ ، ومن تحقَّق « بمقام الاشتياق » لم يبق منه أثر ، وهام فيما اشتاق إليه فخرج بالكُلِّيَّةِ عن الكُلِّيَّة .. وذاك مقام لا شرح له ، ولكن مَنْ ذَاقَ عَرَفَ ، وكما ينشأ « الزهد » من التوبة ، ينشأ « الشوق » من الحب ..

ولا شك أن شوق المشاهدة واللِّقَاء أشد من شوق البُعْدِ والغَيْبُوبَةِ .. ويقول « أبو يزيد البسطامي »[1] : **لله رِجَالٌ لَوْ حَجَبَهُمْ فِي الْجَنَّة عَنْ رُؤْيَته لاسْتَغَاثُوا مِنَ الْجَنَّة كَمَا يَسْتَغِيثُ أَهْلُ النَّارِ مِنَ النَّارِ ، لَكِنَّهُمْ عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُون** [2] .. وقد سُئِلَ « ابن عطاء » : الشَّوْقُ أعلى أم المحَبَّة ؟! فقال : **الْمَحَبَّةُ ، لأنَّ الشَّوْقَ مِنْهَا يَتوَلَّد** [3] .. فلا مشتاق إلا من غَلَبَهُ الْحُبُّ .. فالحب أصل ، والشوق فرع ..

• مقَامُ الأُنْس :

بعد أن يصل العَبْدُ إلى مقام الشَّوق ، يُمْنَحُ « مقام الأُنْس » .. و« الأنْسُ » هو : ارتفاع الْحِشْمةِ مع بَقَاء الْهَيْبَةِ .. وهو : انبساط الْمُحِبّ إلى الْمَحْبُوبِ ،

---

[1] أحد كبار أئمة الصوفية .

[2] إيقاظ الهمم لابن عجيبة .

[3] الرسالة القشيرية للقشيري .

أَلَم يقل « إبراهيم » الْخَلِيلُ (عليه السلام) كما حكى القرآن عنه : (رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ)[1].. وكذلك قول سيدنا « موسى » (عليه السلام) كما حكى القرآن عنه : (رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ)[2].. والله تبارك وتعالى لَمْ يُعَاقِبْه ، أو يُعَاتِبْه ، وإنما قال له : (لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى)[3] ..

و« الأُنْس » هو : محادثات الرُّوح في مجالس الْقُرْبِ ، فكما أن « الْحُبَّ » بالرُّوح ، وكذلك « الشَّوْق » ، فكذلك يكون « الأُنْس » للرُّوح .. وفى ذلك تقول السيدة « رابعة العدوية » :

وَلَقَدْ جَعَلْتُكَ فِي الْفُؤَادِ مُحَدِّثِي وأَبَحْتُ جِسْمِيَ مَنْ أَرَادَ جُلُوسِي
فَالْجِسْمُ مِنِّي لِلْجَلِيسِ مُؤَانِسٌ وحَبِيبُ قَلْبِي فِي الْفُؤَادِ أَنِيسِي

و« الأُنْس » قد يكون بكلام الله ، بتلاوة القرآن ، وبِذِكْرِ الله ، وبالعِبَادَةِ ، وبالصَّلاةِ على النبى (صلى الله عليه وسلم) حين يعيش كل حَرْف في قلب الإنسان ..

ولا يكون اللِّسان إلا ترجمانًا لِمَا يشعر به الْجَنَانُ ، وهو يصل إلى أن يَكْرَه العَبْد إنْهَاء صلاته ، أو انقطاع تلاوَتِه أو ذِكْره ، ولا يَمْنَعه من الاستمرار إلا الضرُورَات .. وتكون الرُّوح في محادَثَةٍ مع الْمَحبُوبِ تَرْفَع عن القَلْب جميع الْهُمُوم ، وهذا القَدْرُ هو نِعْمَةٌ من الله ومِنْحَةٌ مِنْه ، ولكن ليس هو حال الأُنْس الذي يكون للمُحِبِّين .. فمقام « الأُنْس » ليس فيه كَسْبٌ مطلقًا ، وإنما يُوهَبُ للعبد فيستوحش من الأَكْوَانِ كُلِّها ، فلا يأْنَسُ إلا بَرِبِّ الأَكْوَان ، وهذا

---

[1] سورة البقرة آية ٢٦٠ .
[2] ، [3] سورة الأعراف آية ١٤٣ .

الاستيحَاشُ يكون مع العَبْدِ في كل ما سِوى الله ، ولا يصل إليه عَبْدٌ إلا بالاصْطِفَاء الْمَحْضِ ..

• مقَامُ الْحَيَاء :

أول مقامات القُرْبِ هو « الْحَيَاءُ » ، و« الحياء » أقسام : فمنه ما هو ظَاهِرٌ ، ومنه ما هو بَاطِنٌ .. وهناك أيضًا حياء عام ، وحياء خاص ..

فقد رُوِي عن « عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ » (رضي الله عنه) قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) : (**اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ**) .. قال : قُلْنَا : **يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّا نَسْتَحْيِي وَالْحَمْدُ لِلَّهِ** .. قَالَ : (**لَيْسَ ذَاكَ ، وَلَكِنَّ الاسْتِحْيَاءَ مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ : أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى ، وَالْبَطْنَ وَمَا حَوَى ، وَلْتَذْكُرِ الْمَوْتَ وَالْبِلَى ، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا .. فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدِ اسْتَحْيَا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ**)[1] .. وذلك مقام عزيز ..

فَحِفْظُ الرَّأسِ وَمَا وَعَى : معناه أنه لا تُوجد به هَوَاجِس ، ولا خواطِر ، ولا شُكُوكٌ ، ولا ارتياب لقول الله تبارك وتعالى : (إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ)[2] ..

وحفظ البَطْن وما حَوَى : معناه التحفظ من الحرام في كل مأكول ومشروب ..

وأما ذِكْرُ الْمَوْتِ والبلَى : فهو مقامات ، فقد كان سيدنا « عمر » (رضي الله عنه) يقول : **مَا أَصْبَحْتُ يَوْمًا ، وانْتَظَرْتُ الْمَسَاء .. ومَا أَمْسَيْتُ يَوْمًا ، وانْتَظَرْتُ**

---

[1] رواه الترمذى كتاب صفة القيامة . [2] سورة الحجرات آية ١٥ .

الصَّبَاح .. فَردَّ عليه سيدنا « أبو بكر » (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) قائلا له : **إِنَّكَ لَطَوِيلُ الأَمَلِ ، والله مَا تَنَفَّسْتُ نَفَسًا وظَنَنْتُ أَنِّى سَوْفَ أَسْتَرِدهُ** ، وكان يرى أن كل امْرِىء مُصَبَّحٌ في أهْلِهِ ، والْمَوْتُ أَدْنَى من شِرَاكِ نَعْلِهِ [1] .. ذلك أن ذِكْرَ الموت يُقَرِّبُ جدًّا من الله ، ومن أراد وَاعِظًا فالموت يكفيه ..

وهذا هو الحياء العام وهو كَسْبٌ ، أما الحياء الخاص فهو مَوْهِبَةٌ ، وهو ما أشار إليه سيدنا « عثمان » (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) عن نَفْسِهِ فقال : **ما اغْتَسَلْتُ فِي بَيْتٍ مُظْلِمٍ إلاَّ وانْطَوَيْتُ عَلَى نَفْسِي حَيَاءً مِنَ الله** .. وقد فسَّر البعض قول الله تبارك وتعالى : (أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ)[2] أن المسلمين فى عصر النبى (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) من شِدَّةِ حَيَائِهِمْ كانوا حين يجلسون لقضاء حاجتهم يُغَطون رؤوسهم بثيابِهِم ، فنَزَلت الآية ..

هذا .. والحياء هو تعظيم الرُّوح لعظيم الجلال ، وقال الصوفية : إِنَّ الْحَيَاءَ والأُنْسَ يَطُوفَانِ بِالْقَلْبِ ، فإذا وَجَدَا فيه الزُّهْدَ والوَرَعَ حَطَّا ، وإلاَّ رَحَلاَ ..

• مقَامُ القُرْبِ :

يقول الله تبارك وتعالى لنبيه (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب)[3] .. ويقول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ**)[4] ..

ويُشْتَرَط فى « مقام القُرْبِ » أن يكون معه الْهَيْبَةُ ، ويقول (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (**أَمَا**

---

[1] الشراك : السير الذي يكون في وجه النعل ، والمعنى أن الموت أقرب إلى الشخص من شراك نعله لرجله .

[2] سورة هود آية ٥ . [3] سورة العلق آية ١٩ . [4] رواه مسلم كتاب الصلاة .

وَاللَّهِ إِنِّي لأَتْقَاكُمْ لِلَّهِ ، وَأَخْشَاكُمْ لَهُ)[1] وكلما ازداد العَبْدُ قُرْبًا من الله ازداد هَيْبَةً مِنْهُ ، وخشْيَة ..

ومَنْ وصل إلى مقام « القُرْبِ » يطوى بِسُجُودِه الأكْوَانَ ، ما كانَ وما يكُونُ ، ويصبح سُجُودُه على طَرَف رِدَاءِ العَظَمَةِ ، ويتلاشى كُلُّ شيءٍ في ذهْنه تمامًا ، وكذا في نَظَرِه ، أو قَلْبِه ، أو رُوحِه ، ولا يشعر سوَى بالغَيْبُوبَة الْمُطْلَقَة عن النَّفْسِ ، وعن الدُّنْيَا ، وما فيها ، حتى عن الآخِرَة ، وثَوَابِهَا ..

• مقَامُ الاتِّصَال :

وهذا المقام يصل إليه العَبْدُ نتيجة لمقام « الْحَيَاء » الخاص ، و« الاتصال » هو : مُكَاشَفَاتُ القُلُوبِ ومُشَاهَدَاتُ الأَسْرَارِ .. أو هو : وصولُ السِّرِّ إلى مقام الذُّهُول .. أو هو : ألا يَشْهَدَ الْعَبْدُ غير خَالقِه ، ولا يتَّصِلَ بِسرِّه خاطرٌ لِغَيْرِ صَانِعِه ..

والوَاصِلُ هو : الذي يَصِلهُ الله فلا يُخْشَى عليه القَطْعُ أبدًا ، وهو يصل إما بتجلِّي الأفعال أو بتجلِّي آثار الصِّفَات ، أو بتجلِّي الذَّات ، ثم بعد ذلك يرقى إلى مقام « حقِّ اليَقِين » ..

أما الْمُتَّصِلُ فهو : مَنْ يجتهد فَيَصِلُ ، وكلما دَنَا انْقَطَعَ ، ثم يجتهد فيتَّصِل ، ثم يُقطع ويعود يَبْذُل الجهد للوصول إلى الله تبارك وتعالى ، وكلما وَصَل إلى المشارف رُدَّ ، فيعود ، ثم يُرَدُّ .. وهكذا ..

وأوَّل مقام للواصل هو مقام « تَجَلِّي صِفَات الأفعَال » ، فإذا تجلَّى الله تبارك

---

[1] رواه مسلم كتاب الصيام .

وتعالى عليه بصفات الأفعال ، وأصبح عنده مُشَاهَدَاتٌ في قَلْبِه ، ومطالعات لأسْرَارِ الوجود ، والكَوْنِ ، والأفعال .. فما من فِعْل إلاَّ ويرى فيه الفِعْلَ ، ومقدِّماته ، ونِهَايته ، وآثاره ، وما يُؤدِّي إليه ، فالواصل في مقام « كَشْف » .. وتتجلَّى عليه فيه كلُّ صِفَات الأفعال ، ثم يلي ذلك مقام « التَجَلِّي بالأفْعَال » ، وهو مقامٌ فيه إسقاط تام للتَّدْبِير ، ثم يلي ذلك مقام أرْقَى وهو مقام « تَجَلِّيَات صِفَات الله » تبارك وتعالى ..

وهناك مقام أعْلَى وهو مقام « تَجَلِّي الذَّات » أو مقام « الْمُشَاهَدَة » كما يسميه السادة الصوفية ..

• مقَامُ القَبْض ، ومقَامُ البَسْط :

وهما مقامان متلازِمَان ، وهما حالان شريفان لهما وقت محتوم ، وموسم لا يتعدَّيانه .. وإنما يأتيان بعد أن يرتَقِي العَبْدُ من الْمَحَبَّة العَامَّة إلى الْمَحَبَّة الخاصَّة ، وعندئذ وفي أوائل حال المحبة الخاصة يأتيان لا في نِهايَتِها .. ذلك أن مَنْ هو في مقام المحبة العامة الثابتة بِحُكْمِ الإيمان لا يكون له قَبْضٌ ولا بَسْطٌ ، وإنما خَوْفٌ ورَجَاءٌ ، وهما مقامان لابد من وجودهما في جميع الأحوال من البداية إلى النهاية : لأنَّهما جناحا الإيمان ، ومهما وَصَلَ العَبْدُ فلن يتخلَّى عن الإيمان .. ولكنه حين يصل إلى مَرْتَبَة المحبَّة الخاصة يَرْتَقِي من مقام « الإيمان » إلى مقام « الإيقان » ، أو « اليقين » .. وهنا يأتِي القَبْضُ والبَسْطُ ، وذلك نتيجة لتصرُّف النَّفْس ، فلِكَوْنِها لَوَّامَة فهي مَغْلُوبَة تارة ، وغَالِبَةٌ تارة أخرى فيحدث القَبْضُ من ظهورها ،

وظهور صفاتِهَا .. كما أن حدوثه قد يكون عُقُوبَة على تجاوُزِ النَّفْس الْحَدَّ بمحاولتها أن تَسْتَرِقَ السَّمْعَ من القَلْبِ الذي أصبح سماءً مُزَيَّنَةً بكوَاكِبِ الذِّكْرِ ، فإذا تجلَّت عليه الْمُكَاشَفَات ، والْمُشَاهَدَات ، والتَجَلِّيَات أخذت النفس تَسْتَرِقُ السَّمْعَ من القَلْبِ فتفْرَح ، وهنا يكون الفَرَحُ مَذْمُومًا ، ذلك لوجوب التحقُّق – عند الصوفية – بقول الله تبارك وتعالى : ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾[1] .. وبذلك تكون النَّفْس هنا قد تجاوزت حد الاعتدال الذي تشير إليه الآية ، فيأتي القبض ، فيُمنع الإنسان ما كان يأتيه ، ويُحرم مما ذاقه ، وهذا بخلاف الخوف الذي يكون فيه الإنسان واعيًا ، باكيًا ، مستغفرًا ، تائبًا ، لاجئًا إلى الله ، راجيًا له ، أما القَبْضُ فلا استغفار فيه ولا توبة لله ، ولكنه « غلق » فإذا ما جاء هذا القبض وجب على الإنسان أن يَرُدَّ نَفْسَه إلى مكانِها ويُلْجِمَها ، ويضَعَها موضعها من الإذلال ، والإفناء ، فيأتيه حَالُ « البَسْطِ » .. والقبض والبسط يأتيان في أول طريق الْمَحَبَّة الخاصَّة .. والعبد إما تحت حجاب النَّفْس ، وهو حجاب مُظْلِمٌ ، وإما أن يكون تحت حجاب القَلْب ، وهو حجاب نُورَانِيٌّ ..

ومَنْ يأتيه حال « القَبْض » يكون مُدْرِكًا تمامًا لأسبابه ، وبمعالجتها يأتي حال « البَسْطِ » ، فإذا ما ارْتَقَى العبد في درجات المحَبَّة الخاصة ، واخترق حجَاب القَلْب انصرف عنه القبض والبسط ، وتحكَّم هو في الأحوال ، وأصبح مُتَصَرِّفًا في نَفْسِهِ ، وفي قَلْبِهِ ، وتجاوز الحِجَابَ النُّورَانِيّ للقَلْبِ ، وأصبح في حَظِيرَة القُرْب

---

[1] سورة الحديد آية ٢٣ .

بالرُّوح ، واقترب السِّرُّ من حظيرة القُدْسِ ، وهنا تنقَلِبُ نَفْسُهُ ، وتصبح نَفْسًا مُطْمَئِنَّةً ، فيصبح في الأفْعَال بالله ، فهو بالله ولله ، ويصبح نور القلب مسيطرًا على هذه النفس سيطرة كاملة ، فلا تظهر بصفاتها الأصلية ، وتصل إلى مقام « الفَنَاء » .. وفي تعريف الصوفية « للقَبْض » قالوا : والقَبْضُ هُوَ أن يَقْبِضَك الله عمَّا لَكَ ، وأَنْ يَبْسُطَك فِيمَا لَهُ .. أو : أَنْ يَقْبِضَك بِإيَّاكَ ، ويَبْسُطَكَ لإيَّاهُ ..

• مقَامُ الشُّكْر :

« الشُّكْرُ » هو : الغَيْبَةُ عن النِّعْمَة بمعْرِفَة الْمُنْعِم .. وما دمتَ تَشْكُرُ فلستَ بِشَاكِرٍ ، فالشُّكْرُ التَّحَيُّرُ : أي أن تتحيَّر في كيفية الشُّكْرِ ، فالشكر نِعْمَةٌ تحتاج إلى شُكْرٍ .. وزعموا أن في أخبار « داود » (عليه السلام) : **يَا رَبِّ ، كَيْفَ أَشْكُرُكَ وأنَا لاَ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَشْكُرَكَ إلاَّ بِنِعْمَةٍ ثَانِيَةٍ مِنْ نِعَمِكَ** ؟! .. فأوحى الله تعالى إليه : (**إذَا عَرَفْتَ هَذَا فَقَدْ شَكَرْتَنِي**)[١] ..

و« الشكر » في اللغة هو : الكَشْفُ والإظْهَارُ .. ومن ثَمَّ فإن نَشْر النِّعَم ، وذِكْرِهَا ، وتعدَادَها باللِّسَان ، وأن تُرَى على صَاحِبِها ، يُعَدُّ شُكْرًا ظَاهِرًا .. أما الشُّكْرُ الباطن فهو أن تستغل النِّعَم في طاعة الله لا في مَعْصِيَته .. ويقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) : (**أَوَّلُ مَنْ يُدْعَى إِلَى الْجَنَّة الْحَمَّادُونَ الَّذِينَ يَحْمَدُونَ اللهَ فِي السَّرَّاءِ والضَّرَاءِ**)[٢] .. ويقول أيضًا : (**أَفْضَلُ الذِّكْرِ : لا إلَهَ إلاَّ اللَّهُ .. وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ : الْحَمْدُ لِلَّه**)[٣] .. والله تبارك وتعالى يقول : (وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ

---

[١] قوت القلوب لأبي طالب المكي . [٢] رواه الطبراني في المعجم الكبير . [٣] رواه الترمذى كتاب الدعوات .

لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ)[1] ..

ومن النِّعَم ما هو ظاهر ، ومنها ما هو باطن .. والله سبحانه وتعالى يقول : (أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً)[2] ..

ومن النِّعَمِ الظَّاهرة : العَافِيَة ، والغِنَى .. ومن النِّعَمِ البَاطِنَة : الابْتِلاَءَات .. فَالبَلِيَّةُ نِعْمَةٌ خَفِيَّةٌ .. وحتى نكون شاكرين على الحقيقة فلابد من أن نشكر على البَلْوَى كما نشكر على العَافِيَة ..

والشكر عمل لقول الله تعالى : (ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا)[3] ، وهو يكون بأن نَحْمَدَ باللِّسَان ، ونُؤَدِّي حق النِّعمة باستخدامها فيما خُوِّلَت من أجله مما يُرْضِي الله تبارك وتعالى ..

• مقَامُ الفَنَاء :

يقصد « بالفَنَاء » : الفَنَاء عن الْمُخَالَفَات ، والبَقَاءُ بالْمُوَافَقَات أو بالْمَمْدُوحَات .. والفَنَاءُ والبَقَاء لابد أن يكونا مُتَلازِمَيْن ، ويكون الفَنَاءُ أيضًا عن الأشْيَاء ، ويكون البَقَاءُ بِالْحَقِّ .. فمَنْ يصل إلى مقام « الفناء » فهو مَحْجُوبٌ بالْحَقِّ عن الْخَلْقِ ، ولا يحْجُبُه الْخَلْقُ عن الْحَقِّ ، ويكون قد خرج عن التَّدبير والاخْتِيَار ، وفَنِيَ عَنْ أفْعَاله ، وأفْعَالِ الْخَلائق جميعًا ، وبقى بأفعال الله .. فهو لا يَرَى إلا فِعْلَ الْحَقِّ في كل شَيْءٍ .. و« الفَنَاءُ » هو : الغَيْبَةُ عن الأشياء ، كما

---

(1) سورة يونس آية ١٠ . (2) سورة لقمان آية ٢٠ . (3) سورة سبأ آية ١٣ .

كان فَنَاءُ « مُوسَى » (عليه السلام) حين تجلَّى ربُّه للجبَل .. و« البَقَاءُ » هو : الْحُضُورُ مع الْحَقِّ .. ومقام « الفَنَاء » تتجلَّى على العَبْدِ فيه الأفْعَال فيرى الْحِكْمَة فيها ، وقد يصل العَبْدُ إلى مقام لا يتحرَّك فيه ولا يَقْدِمُ على شَيْءٍ إلا بالإذْنِ ، فهو ينتظر الإِذْنَ في كُلِّيَّاتِ الأمُور ، ويرجع بباطنِهِ إلى الله في جُزْئِيَّاتِها ، فقد أسقط عن نَفْسِهِ التَّدْبِيرَ والاخْتِيَار ..

أما مقام « البَقَاء » فهو مقام التَّصَرُّف ، فمَنْ أعطاه الله نِعْمَةً فقام بِحَقِّها وبخِدْمَتِها لله ، وزَهِدَ في الزُّهْدِ ، وترك التَّدْبِير والاخْتِيَار .. فإنه يَرْقَى ويُرَدُّ إليه التَّدْبِيرُ ، والاختيارُ فيُصْبِحُ في مقام التصرف بالله وهو مقام « البقاء » فالتوجيه فيه من الله ، فكُلُّ ما يأخُذُه يأخُذُه بالله ، وكل ما يَتْرُكُه يَتْرُكُه بالله ، ويكون مأْذُونًا له بالتَّصْرِيف بتفويض من الله .. وهذا المقام يكون لقِلَّةٍ في كُلِّ زَمَانٍ ، وهو مثل مقام سيِّدنا « الْخَضِر » (عليه السلام) ، ومقام « ذي القَرْنَيْن » ..

ومقام « الفَنَاء » يجعل العَبْدَ حين يرى الغُيُوبَ ، والقَدَرَ ، وتَصْرِيف الله تبارك وتعالى في الأمُور ، وعِلْمَ المغيَّبات في التَّدْبِير يَتْرُكُ الاختيار ، ذلك لأنه يجد نَفْسَه لا شيء ، أي إنه يفنى عن نَفْسه ، ولا يرى إلا الله – ليس بعينه – وإنما يَرَاه في كل قَضَاءٍ ، وقَدَرٍ .. في كل حَرَكَةٍ ، وسكون ..

ومقام « الفَنَاء » هذا هو الذي قال فيه « الْحَلاَّجُ » [1] : **مَا فِي الْجُبَّة إلاَّ الله** .. ويزعمون أنه لم يقصد الْحُلُولَ – والعياذ بالله – وإنما سيطر عليه الْمَقَامُ ولم يثْبُتْ .. والثبات مطلوب للشيوخ ، فهذا المقام إن لم يلحق الله العبدَ فيه ،

---

[1] الصوفية مختلفون فيه ، فأكثرهم نفى الحلاج أن يكون منهم ، وأبى أن يعده فيهم .

ويتداركُهُ بمقام « البَقَاء » ليثبت ضاع وانتهى .. ولا يُفْهَم مقام « الفَنَاء » على أنه مجرد فلسفة وسفسطة ، فإنما هو مقام ترك التدبير ، والاختيار .. لأن الصوفي يرى أنه لا تَدْبير له ولا اختيار إطلاقًا ، فتستَوِي عنده النِّعْمَةُ والنِّقْمَةُ ، والصحَّة والْمَرَض ، والغِنَى والفَقْر ، والرِّضَا والسَّخط ، والجنَّة والنَّار ، لأن كل ذلك على مراد الله تبارك وتعالى ..

وإذا ما تحقَّقَ العَبْدُ بمقام « الفَنَاء » تمامًا ، ردَّه الله تبارك وتعالى بنعمته ، وفَضْله إلى مقام « البَقَاء » وإلى دائرة التَّدْبير ، والاختيار .. ولكنه إذا دبَّرَ هنا فبتدبير الله ، وإن اختار فباختيار الله ، وإن فعل فبالله ، وإذا امتنع فبالله ، وإن تكلَّمَ فبالله ، وإن صَمَتَ فبالله مصداقًا لقول الله تعالى في الحديث القدسي : (**فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ : كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ**)[1] .. ويصبح فعله تمامًا كفعل « الْخَضِر » كما يحكي القرآن عنه قوله : (وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ)[2] .. فقد كان سيدنا « الْخَضِر » يُدَبِّر ويختار ، أي إنَّه كان في مقام « الْبَقَاء » ..

• مقَامُ الْمُشَاهَدَة :

بعد أن يتحقَّق العبد بمقام « الْمُحَاسَبَة » ويأتيه حال « الْمُرَاقَبَة » فيتعهَّده يَرْقَى إلى مقام « الْمُرَاقَبة » ويتحقَّق به .. ثم يأتيه حال مقام « الْمُشَاهَدَة » – ولا

---

(١) رواه البخارى كتاب الرقاق .
(٢) سورة الكهف آية ٨٢ .

يُقْصَد بِهَا مشاهدة الله عز وجل (تعالى الله عن ذلك عُلُوًّا كَبِيرًا) فهو : (لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ)[1] – وإنما يُقْصَدُ بالمشاهدة : مشاهدة مواقع اللأْوَاء [2] ، ومَوَاطِنِ النَّعْمَاء ، ومُشَاهَدَة الغُيُوبِ .. وهي الْحِكْمَة في كُلِّ تَدْبِيرٍ ، وفي كُلِّ تَقْدِير .. وحال « الْمُشَاهَدَة » شأن سائر الأحوال : مَوْهِبَة تتحوَّل أو تزول بالاسْتِتَار ، وتأتي بالتَّجَلِّي .. وعلى سبيل المثال : حين خرق سيدنا « الْخَضِرِ » السفينةَ ، أكان يرى الله ؟ أم كان يرى أن من ورائهم مَلِكًا يأخذ كُلَّ سَفِينَة غَصْبًا ؟! ..

وحال « الْمُشَاهَدَة » مع الوقت يصبح مقامًا ، وبه عدة درجات وهي :

١- اليَقِين : وهو أَدْنَى درجات الْمُشَاهَدَة .

٢- عَيْنُ اليَقِين : وهو مقام أعْلَى من اليقين .

٣- حَقُّ اليقين : وهو أعلى ما يصل إليه العَبْدُ في سلوك هذا الطريق .

ومقام « الْمُشَاهَدَة » هو أعْلَى مقامات « الْقُرْبِ » ، وهو الغَايَةُ والنِّهَايَة ، فقد تحقَّق العَبْدُ بالأُنْسِ ، وبالْحَيَاء ، وبِالْهَيْبَةِ ، وبالفَنَاء والبَقَاء ، وبالقُرْبِ ، وتجاوَزَتْ هِمَّته الْمَقَامَات ، فهي كائنة فيه ، وهو مقام اجتياز الْحُجُبِ : حِجَاب النَّفْس ، وحِجَاب القَلْبِ ، وحِجَاب السِّرِّ ، وحتى العَقْل ، ولا شيء إلا الرُّوح فقط فهي محل الْمُشَاهَدَات ..

وعلى هذه الرُّوح تتجلَّى الذَّاتُ بآثار مُعَيَّنَةٍ فتأتيها اللوامح والإشْرَاقَاتُ من

---

[1] سورة الأنعام آية ١٠٣ .

[2] اللأواء : الشدائد .

أنوار الذَّاتِ فتمتلئ بالأنوار الوَاصِلَة إليها من مقام « الْقُرْبِ » فتفِيضُ بِهَذه الأنوار على القَلْب والقَالِب ، فلا قَلْبَ ولا قالب ، وإنما أصبح القَلْبُ هو القَالِب ، والقَالِبُ هو القَلْبُ ، والظَّاهِرُ هو البَاطِنُ ، والبَاطِنُ هو الظَّاهِر ، والأوَّل هو الآخر ، والآخِرُ هو الأوَّل ..

وهذا أقصى ما يمكن أن نتكلَّم فيه حيث تَعْجَزُ العِبارَاتُ عن شَرْحِ فَحْوَى الإشَارَات !!

• مقَامُ حَقِّ اليَقِين :

وفيه تَهِيمُ الرُّوح بِالْمَلإ الأعْلَى ، فتَرَى الْجَنَّة ، والنَّارَ ، والعَرْشَ ، ومَنْ حَوْلَ العَرْش ..

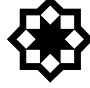
وحين سأل النبي (ﷺ) « الحارثَ بن مالك الأنصاري » (رضي الله عنه) : (**كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا حَارِث ؟**) .. قال : **أَصْبَحْتُ مُؤْمِنًا حَقًّا** .. قال : (**انْظُرْ مَا تَقُولُ ، فَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَة ، فَمَا حَقِيقَةُ إِيمَانِكَ ؟**) .. فقال : **قَدْ عَزَفَتْ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا ، فَأَسْهَرْتُ لِذَلِكَ لَيْلِي ، وأَظْمَأْتُ نَهَارِي ، وكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى عَرْشِ رَبِّي بَارِزًا ، وكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّة يَتَزَاوَرُونَ فِيهَا ، وكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ يَتَضَاغَوْنَ [1] فِيهَا** .. فقال (ﷺ) : (**يَا حَارِثُ ، عَرَفْتَ فَالْزَم**)[2].. أي الزم ما أنت عليه من أحوال أدَّت بِكَ إلى الوصول إلى هذا المقام ..

وعُزُوف نَفْسِهِ يعني أنَّها أصبحت مُنِيرَةً بالنُّورِ الكافي حتى إنَّها اطمأنَّتْ

---

[1] يتضاغون : يصيحون ويبكون .
[2] رواه البيهقي فى شُعَب الإيمان .

وعَزَفَتْ عن الدنيا وغرورها .. وأما إسهارُه ليلَه فهو يأنس بالله تبارك وتعالى .. وهي كلمة تتضمن أداءِ العبادات ، والفرائض ، والنوافل ، والقيام ، والقرب ، والمناجاة ، مع الشعور بلَذَّة ذلك ..



« **الوَجْدُ** » هو : ما يقذفه الله تبارك وتعالى في قَلْبِ العَبْدِ في أوَّل حاله من نُورٍ يشعر معه بفَرْحَةٍ يُقبل بِهَا على الله ، ويرى من خلالها الأسْرَارَ ، وقد يكون « الوَجْدُ » حُزْنًا .. ذلك أن العَبْدَ في أوَّل الطريق يُرْزَقُ حُزْنَ خَوْفِ الوَعيد ، ويُرْزَقُ فَرَحَ رَجَاءِ الْمَوْعُود .. وذاك فضل من الله تبارك وتعالى يُنْعِمُ به على قَلْبِ العَبْدِ ..

« **التَّوَاجُد** » هو : استجلاب الوَجْدِ بمداوَمَةِ الذِّكْر ، والتفكير في الله تعالى ، فبعد أن ذَاقَه العَبْدُ يُرِيدُه ثانية ، فالبكاء بين يدي الله له مذاق خاص ، وكذلك الفَرَح بالإقبال على الله ..

« **الوُجُودُ** » : هو دَرَجَةٌ أَعْلَى ، وهو الخروج من فَرْحَةِ الوَجْدِ إلى الوُجُود ، حيث يُصْبِح في مقام « شُهود » ، فلا يتركه « الوَجْدُ » أبدًا ، أو هو اتِّساع فرجة الوجد بالْخُرُوج إلى فضاء الوجْدَان ، فلا وَجْدَ مع الوجْدَان ، ولا خبر مع العِيَان ..

« **الاسْتِتَارُ** » : تأديب لِلْعَوَام بستر صِفَات نُفُوسِهم ، ورِزْقهم من الحال ما يتأدَّبون به في الْحَضْرَةِ الإلَـــٰــهِيَّة ..

« **التَّجَلِّي** » : تَهْذِيب ، وهو للخاصة بِمُكَاشَفَاتِ القُلُوب ..

« **الْمَحْوُ والإثْبات** » : الْمَحْو هو : إزَالَةُ أَوْصَاف النُّفُوسِ .. والإثبات : هو ما أدِيرَ عليهم من كؤوس آثار الْحُبِّ ، أي هُوَ : مَحْوُ صِفَاتِ النَّفْسِ ، وإثبات وجود الله تبارك وتعالى في القَلْبِ بِالْمَحَبَّةِ ، وبِالْيَقِين ..

« **التَّجْرِيدُ** » هو : مَحْوُ الأغْرَاض ونفيها في العِبَادَات ، والقُرْب من الله تبارك

وتعالى ، فالعبد فيه مُتَجَرِّدٌ من أغْرَاض الدُّنْيَا والآخِرَة ، وعبوديَّته لله تبارك وتعالى ، وهو يقومُ بحَقِّ الطاعة لما بَدَا له من تَجَلِّيَات العَظَمَة ، فهو يتجرَّدُ من كل الأغْرَاض الدُّنْيَوِيَّة ، والأُخْرَوِيَّة في العِبَادَات ، ويؤدِّيها لأنَّ الله تبارك وتعالى مُسْتَحِقٌّ لها ..

« **التَّفْرِيد** » هو : أن يَفْنَى عن نَفْسِهِ ولا يَرَى عَمَلَهُ ، وإنَّما يرى نعمة الله عليه بالتوفيق لما هو فيه ..

« **التَّلْوِين** » : هو لأصحاب مُكَاشَفَات القلوب حين يتجلَّى الله تبارك وتعالى عليهم بآثار صِفَاتِهِ ، ولما كانت صفاته جل وعلا متعدِّدة ، فحين يَتَنَزَّل أثر الصِّفَة يتلوَّن العبد بلون الصِّفَة التي تجلَّت عليه ..

« **التَّمْكِينُ** » هو : الخروج من مقام تجلِّي آثار الصفات ، إلى مقام تجلِّي الذَّات .. ولما كانت الذَّاتُ وَاحِدَةً فإنَّ العَبْدَ يخرج من حَيِّزِ « التَّلْوِين » إلى مقام « التَّمْكِين » ..

« **السُّكْرُ** » هو : سَيْطَرَةُ سُلْطَان الْحَال ..

« **الصَّحْو** » هو : العَودُ إلى تَرْتِيبِ الأفْعَال ، وتَهْذِيبِ الأقْوَال ..

« **الوَقْتُ** » : هو للبِدَايَة .. فأرباب الوَقْتِ هم أرْبَابُ البِدَايَاتِ الذين يراقبون الأوقات ، فتتحكَّم فيهم الأوْقَاتُ إلى أن يتحكَّمُوا هم في الأوقات ، والوقت بالنسبة إليهم أغْلَى شيء في الدُّنْيَا ، فهو إما أن يكون لطاعة ، وإما أن يكون لمعصية ، فلابُدَّ من مُرَاقَبَة الوقت لِمَعْرِفَة فِيمَ يُقْضَى ، فيراعي أحدهم الوقتَ عَقِب كُلِّ صَلاَةٍ ، ويُحَاسِبُ نَفْسَه حِسَابًا عَسِيرًا قبل الصلاة التالية حتى يخرج من كُلِّ ذَنْبٍ ، ويتوب إلى الله تبارك وتعالى ، ويُنْشِئ تَوْبَةً جديدة إلى أن يَصِلَ

إلى مقامٍ تُنَوَّرُ فيه صلاتُه بنُور وقته ، وينور وقته بنُور صلاته ، وهؤلاء هم أَرْبَابُ الوَقْت ..

« **الْحَال** » : هو للمتوسِّطِينَ ، والحال شيء يَقْذفُه الله تبارك وتعالى في قلب هؤلاء الْمُرِيدِين الْمُحِبِّين ، أو الْمُرَادِين الْمَحْبُوبِين .. ويكون للحال بِدَايَاتٌ تُسَمَّى : طَوَالِعُ ، أو لَوَامِعُ ، أو بَوَارِقُ ، وإجمالاً هي إشْرَاقَاتٌ ، وتجلِّيَاتٌ ، وهذه الوارِدَاتُ تختلف عند أرباب الحال عنها عند أرباب المقام ..

« **النَّفَس** » : مَنْ وصل إلى النهاية أصبح من أرْبَاب الأنْفَاس ، وهؤلاء يكون وجدهم في كل نَفَسٍ فلا يدخُلُ شَهيقٌ إلاَّ بِذِكْر ، ولا يخرج زَفِيرٌ إلاَّ بِذِكْرٍ ..

« **عِلْم اليَقِين** » : هو علم لا شُبْهَةَ فيه لأن أساسه النَّظَرُ والاستِدْلاَل ، إذ لو تجرَّد العِلْمُ من صِفَة اليَقين لأصبح مَعْلُومًا فيه شُبْهة ..

« **حَقُّ اليَقِين** » : هو حَقِيقَة ما أشار إليه « عِلمُ اليَقِين » ، وهو ثُبُوت الأمْرِ فتَرَى الغيْبَ كما تَرَى الشَّهادَةَ ، وهو لأرباب الْمُشَاهَدَات ، وليس لأرْبَابِ الْمُكَاشَفَاتِ ، فهو ما كان بتحقيق الانْفِصَال عن لَوْثِ الصَّلْصَالِ بورُودِ رائد الوصَال ..

« **عَيْن اليَقِينِ** » هو : العِلْمُ الذي أَوْدَعه الله الأسْرَار ..

« **الذَّوْقُ** » هو : الإيمَانُ .. « **الشُّرب** » هو : العِلْمُ .. « **الرِّيُّ** » : هو الحال ..

« **الْمُحَاضَرَةُ** » : تكون لأهل العِلْم .. « **الْمُكَاشَفَةُ** » : تكون لأهل القُلُوب ..

« **الْمُشَاهَدَةُ** » : تَذْوِيبٌ ، وهي للأوْلِيَاء والْمُقَرَّبِين الذين تجاوَزُوا حُدُودَ

نُورَانِيَّةِ القَلْبِ إلى مجال الرُّوح في الملإ الأعْلَى .. وتكون لأهْلِ السِّرِّ ، وهم الخواص أرباب الأرْوَاح ، وهؤلاء الناس سَلَكُوا الطريق من بدايته بالْهِمَّة العَالِيَة ، مُتَّجهِينَ إلى الله تبارك وتعالى فتجرَّدُوا من أنْفُسِهم ، ومن الْهَوَى ، ومن الغَرَضِ فى أفْعَالهم كُلِّها فلا يبتغون بِهَا إلا رضاءه ، والوصول إليه .. فَنُوا عن الْخَلْقِ ، وفَنُوا عن أَفْعَالِهِم ، واتَّجَهُوا بالكُلية إليه .. إلى الْخَالِقِ ، والموجدِ الرَّازقِ ، فتضرَّعُوا إليه ، وتمسَّكُوا بِحَبْلِه ، واتَّبَعُوا سُنَّة رَسوله (ﷺ) ، فباتِّباعِ السُّنَّة تُنَالُ الْمَعْرِفَةُ ، وباتِّباع الفَرَائِض يُنالُ القُرْبُ ، وبالإكْثَارِ مِنَ النَّوَافِلِ تُنَالُ الْمَحَبَّةُ .. وهم اتَّبعُوا السُّنَّة كي يَصِلوا إلى الْمَعْرِفَةِ ، وأدَّوْا الفَرَائِضَ على أكْمَلِ وجْه لينالوا القُرْبَ ، وأكثَرُوا من النوافِلِ لكي ينالوا الْحُبَّ ..

« **التَّفرِقَةُ** » ، و« **الْجَمْعُ** » ، و« **جَمْعُ الْجَمْعِ** » .. يقول بعضهم : إذا رأى العَبْدُ الصُّوفِيُّ عَمَلَه ، وكَسْبَهُ ، وأثْبَتَ عَمَلَهُ ، وكَسْبَهُ .. فهو في « التَّفْرِقَة » ، أما إذا رأى الأعمال كلها بالله تبارك وتعالى ، أى بالْحَقِّ ، فهو فى « الْجَمْعِ » فَإنَ رأى لنَفْسه طاعة فليَحْمَدِ الله حتى يكون فى « الْجَمْعِ » بحيث لا يرى لنَفْسه عملاً ، ولا فضلاً ، ولا كَسْبًا .. ويقول البعض الآخر : مَنْ تجلّت له أفعاله فهو فى « التَّفْرِقَة » ، ومَنْ تجلَّت عليه آثار الصِّفَاتِ فهو فى « الْجَمْعِ » ، ومَنْ وصل إلى مقام الْمُشَاهَدَاتِ فهو في « جَمْعِ الجمعِ » ..

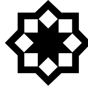
« **الغَيْبَةُ** » هي : غيبة صفات النَّفْسِ .. والعَبْدُ فى مقام الغَيْبَةِ يغيب عن نَفْسِهِ ، وعن كلِّ مَوْجُود .. يَغيبُ عن أفعَاله ، ولا يرى إلا أفعال الله ..

« **الشُّهودُ** » هو : ثُبوتُ رُؤيَةِ الغَيْبِ .. فالشهود أن يَغِيبَ العبدُ عن وجُودِه

في شُهُودهِ .. والشهود هو ذهاب لَوْث الصَّلْصَالِ بورود رائد الوِصَال ، وهو أيضًا ألاَّ يشاهد العَبْدُ إلا أَثَرَ الفِعْلِ ..

والله تبارك وتعالى يثبت لهؤلاء القوم الأسْرَارَ ، ويمحو عنهم فى غيبتهم صفات النَّفْس ..

والشهود هو الْحُضُور ، وقتًا بنعت الْمُرَاقَبَةِ ، ووقتًا بوصف الْمُشَاهَدَة ، فما دام العَبْدُ موصوفًا بالشهود والرعاية فهو حاضِرٌ ، فإذا فقد حال المشاهدة ، والمراقبة خرج من دائرة الحضور فهو غائب ..



وبعد .. أيها القارئ الكريم :

لعلَّكَ قد طَوَّفْتَ معنا في أحوال السَّادة الصُّوفِيَّة ومقاماتِهِم ، وسَبَحْتَ معنا في بحور علومهم وفلسفتهم .. ولعلك قد لاحظت أن الكثير من علومهم مستمدٌّ من الكتاب والسُّنَّة ، وإن أطلقوا عليها أسماءً من اختراعهم .. ولو تأملنا في وصايا شيوخهم لوجدناها مأخوذة من وصايا رسول الله (ﷺ) .. وإن كان بعض تلميحاتِهِم وإشاراتِهِم يفتقر إلى الدليل والسَّنَد ، إلا أننا نأخذها على اعتبار أَنَّها تعبير عن مشاعر ، وأحاسيس نتجت من فرط حُبِّهم ، أو طول خَلْوتِهِم بأنفسهم ، وإعمال عقولهم في صفات الْحَقِّ ، وتصريفه لأمور الْخَلْق ، لذلك كان من تعبيراتِهِم الشهيرة قولهم : **مَنْ ذَاقَ عَرَفَ ، ومَنْ حُرِمَ انْحَرَفَ** ..

ولعلك أيها القارئ الكريم قد لاحظت أن طريق الأوائل منهم الذين وضعوا قواعد وأُسُس العِلْم الصُّوفِي قد اعتمدوا أساسًا على علوم الشريعة التى أطلقوا عليها لفظ « علم الدراسة » ، واهتموا بدراستها وتطبيقها ، وتدريسها للمريدين ، ومراقبة التزامهم بِهَا قبل الخوض في مسائل الأحوال والمقامات ..

ولعلك لاحظت مدى اهتمام شيوخهم بالأدب ، والأخلاق الفاضلة ، وحسن الصحبة ، والتواضع ، والزهد في الدنيا ..

ومن الغريب أنك لا تجد ضمن علومهم ما نراه الآن من بعض أدعياء التصوف من تنافسٍ على مشيخة الطرق التي تعدَّدَت أسماؤها ، وتفرَّعت ، ونُسِبَت إلى أشخاص ، وسُمِّيَت بأسمائهم ، واتَّهم بعضهم بعضًا بالادِّعاء ، بل حُرِّمَ على المنتسبين إليهم الانصراف إلى طريقة أخرى ، وإلا حَاقَ بالمنصرف كذا ، وكذا ..

كما لا نجد فى علوم الأوائل الالتزام بزيٍّ معين ، أو بلون خاص للعمامة ، أو بلبس المرقَّعات ، والاتِّشاح بوشاح كُتِبَتْ عليه آيات من القرآن ، أو بحمل المسابح ذات العدد .. بل نسمعهم يقولون :

لَيْسَ التَّصَوُّفُ لبْسَ الصُّوف تَرْقَعُهُ وَلاَ بُكَـاؤُكَ إنْ غَنَّـى الْمُغَنُّونَـا

وَلا صِيَاحٌ وَلاَ رَقْصٌ وَلاَ طَرَبٌ وَلاَ اخْتبَاطٌ كَأَنْ قَدْ صِرْتَ مَجْنُونَا

بَلْ التَّصَوُّفُ أَنْ تَصْفُوَ بِلاَ كَـدَرٍ وَتَتْبَعَ الْحَـقَّ وَالْقُـرْآنَ وَالدِّينَا

وَأَنْ تُـرَى خَائِفًـا لِلَّهِ ذَا نَـدَمٍ عَلَى ذُنُوبِكَ طُولَ الدَّهْرِ مَحْزُونًا

ولم يكن هناك طُرُقٌ بأسماء الأوائل أمثال : « بِشْر الحافي » ، و« إبْرَاهِيم بن أدْهَم » ، و« سَهْل التَّسْتُرِىّ » ، و« أبي النَّجيب السُّهْرَوَرْدِىّ » ، و« أبي يزيد البسطامِي » ، و« الشِّبْلِيّ » ، و« حسن البصرى » ، و« إبراهيم الخواص » ..

ولم نجد لهم احتفالات بمولد فلان ، أو فلان ، ولم نجد في تقسيمهم لأنواع الذِّكْر (ذكر اللسان ، ذكر القلب ، ذكر السِّرِّ ، ذكر الروح) ذكرًا بالدفوف والمزامير ، ولم نجد في أحوالهم رقصًا ، أو تمايلاً ، أو اختلاطًا بين الرجال والنساء .. ولم نسمع عن أحدهم أنه كان مُعَاهدًا للثعابين والحيَّات يتراقص بِهَا في حلقات الذِّكْر كالحواة ، ولاعبي السيرك .. وإنما نجد منهم تنافسًا في حفظ القرآن ، والعمل بأحكامه ، واقتداءً بسُنَّة سَيِّد الأنام (ﷺ) ، وتخلُّقًا بأخلاقه ، وبعدًا عن الجاه وحُبِّ الظهور والتملُّق إلى الحكام ، وتعفُّفًا عن مال المريدين حتى تكون أيديهم هى العليا .. لدرجة أن الكثير منهم كان يرفض قبول الهدايا لأنه لا يستطيع أن يُجازي عليها ، وكلهم كانوا يأكلون من عمل أيديهم ، ولا

يتكسَّبون بدِينهم .. ولم يكونوا مدَّعين للكرامات التي حَفَلَتْ بعض الكتب ببَيَانِهَا .. بل كانوا يقولون : **إنَّ أَكْبَرَ كَرَامَةٍ هي التَّوْفِيقُ إِلَى الطَّاعَةِ** ، ويقولون : **إن الصوفي الحقيقى يستحيى من الكرامة كما تستحيي المرأة من دم حيضتها** ، ويقولون : **كُن طَالِبًا للاسْتِقَامَةِ ولاَ تَكُنْ طَالِبًا للكَرَامَةِ ، وإذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَمْشِي عَلَى الْمَاءِ ، ويَطِيرُ في الْهَوَاءِ فَلاَ تَنْخَدِعْ بذلك ، فالعبرة بمدى تمسُّكه بالشَّرْعِ ، فالشياطين تَسْتَرِق السمع من السماء ، وتطير فى الهواء ، واعْرِفِ الرِّجَالَ بِالْحَقِّ ، ولا تَعْرِفِ الْحَقَّ بِالرِّجَالِ ..**

ولم نجد لهم أورادًا بعينها ، ولم نجد لهم أذكارًا ، أو أدعية بلغة غير عربية ، يُرَدِّدُها المريد بلا فَهْم ، أو وَعْي ..

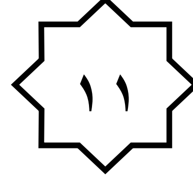
لذلك حرصت بعض الدول الإسلامية المتمسِّكة بأحكام الكتاب والسنة أن ترفض التصوف الذى اتسم بالادِّعاء ، والدَّجل ، وإرهاب المريدين ، وتخويفهم من بطش الشيوخ وغضبهم .. بل أصدرت بعض الجهات الدينية الكبرى فتاوى بخروج بعض الطرق الصوفية عن المِلَّة ، ومنعت كُتُبها من التداول .. ولهم الحق كل الحق فى ذلك .. إذ يقول سيدنا « عمر بن الخطاب » (رضي الله عنه) : (**مَنْ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِلتُّهْمَةِ ، فَلاَ يَلُومَنَّ مَنْ أَسَاءَ بِهِ الظَّنَّ**)[1] ..

ولله الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ ومِنْ بَعْدُ ..

ياسين رشدى

[1] رواه ابن أبي الدنيا في الصمت .

الكتاب القادم



من أحْكَـــام الإسْـــلام

- مقاصد التشريع الإسلامي ..
- الأجانب وأهل الذمة في الإسلام ..
- **الحُدُود :**

الجرائم الكبرى التي حددتها الشريعة ، وحدَّدَت العقوبات عليها بنص صريح ، ولا يملك أحد أن يعدلها بالرفع أو بالخفض ، ولا يجوز العفو فيها ..

- **القِصَاص :**

العقوبات على الجرائم التي تتعلق بحقوق النـــاس ، والتـــي يجوز فيها العفو ، أو قبول (الدِّيَة) ..

- **التعازير :**

الجرائم التي لا تتعلق بالحدود أو بالقصاص ، وتُقَدَّر عقوبتها بمعرفة ولي الأمر طبقًا لاختلاف الأزمنة ، والأمكنة بما يحقق الصالح العام .

الفهـــرس

تابع الفهرس

رقم الإيداع ٢٢٠٥ / ١٩٩٣

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 – 14 – 0158 - 5

مجموعة كتب

الطريق إلى الله

١- هو الله

٢- الإسلام وأركانه

٣- من الأحاديث القدسية

٤- المحظورات

٥- من أخلاقيات الإسلام

٦- من مجامع الكلم

٧- التربية فى الإسلام

٨- فى رحاب الأصحاب

٩- نساء مؤمنات

١٠-التصوف ما له وما عليه

١١-من أحكام الإسلام

١٢-تأملات فى آيات من القرآن الكريم

١٣-من علوم القرآن وبلاغته

١٤-مناجاة

١٥-فى رحاب المصطفى المختار ﷺ

يُهدى ولا يُباع
جمعية المواساة الإسلامية
Site: www.mouassa.org
Email: mouassa1@hotmail.com

إصدارات

فضيلة الشيخ / ياسين رشدي

١- سلسلة كتب الطريق إلى الله (خمسة عشر كتابًا) .

٢- التفسير الجامع لمعاني القرآن الكريم .

٣- شرح كامل واف للأحاديث النبوية التي أوردها الإمام البخاري في صحيحه .

٤- مجموعة من الإجابات الواضحة على أسئلة في مواضيع شتى تَهُم المسلم في دينه ودنياه .

هذا .. والجدير بالذكر أن جميع الإصدارات السابقة متوفرة على شرائط مسموعة ومرئية وأسطوانات (cd) ، وموجودة أيضًا على الموقع الإلكتروني لجمعية المواساة الإسلامية www.mouassa.org

لجنة نشر الثقافة

جمعية المواساة الإسلامية بالإسكندرية

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ،،